كفاح شعب مصر:(٢)

الثورة العرابية

الجزء الثاني

تأليف

دكتور/ محمد مورو



٢٣ ش سكة المدينة - ناهيا - جيزة - ج . م . ع
تليفاكس / ٣٢٥٠٢٠٢

اسم الكتاب : كفاح شعب مصر (٢)
الثورة العرابية

المؤلـــف : د.محمد مورو

الغـــلاف : أحمد يحيي البدوى

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٨١٤٤

الطبعة الأولى: مايو / ٢٠٠٧م
ربيع ثاني ١٤٢٨هـ



مقدمة

الثورة العرابية ظُلمت من الجميع من الذين كروها، ومن الذين دافعوا عنها؛ فالذين كرهوها فقدوا الموضعية في تقييمها افتروا عليها وعلى زعيمها أحمد عرابي، والذين كرهوها عن قصد وسوء نية أمرهم مفهوم ومعروف فهم يكرهون أي ثورة وخاصة إذا كانت ثورة إسلامية شاملة كالثورة العرابية، وهؤلاء يعملون لحساب الاستعمار الذي تتعارض مصالحه مع أي ثورة إسلامية؛ لأنها خطر على وجوده، والذين كرهوها عن حسن نية فافتروا على زعيمها وافتروا على الثورة فقد خدموا الاستعمار دون أن يدروا؛ لأنهم في سبيل إدانة الثورة العرابية أدنوا كل ثورة وشككوا في جدوى كل مقاومة ثورية للاستعمار، وهذا بالضبط ما يريده الاستعمار، وهكذا انسحبت إدانة هؤلاء إلى الحاضر والمستقبل، والثورة العرابية ظلمت أيضًا من الذين دافعوا عنها؛ لأنهم دافعوا دفاعا أشبه بالإدانة بل ربما أسوأ وخرجوا بالثورة عن أهدافها الحقيقية وأسبابها الحقيقية وبين الذين كرهوا والذين دافعوا ضاعت حقيقة الثورة، وضاع ما يمكن أن تستفيده الأجيال من دروس الثورة وعظاتها بل وأخطائها، وفي رأينا أن الثورة العرابية ثورة إسلامية شاملة.ومحاولة إسلامية للتخلص من النفوذ الأوربي، وإقامة قاعدة للنهضة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والثقافية في مصر، تكون نواة للبعث الإسلامي أو على الأقل عصا غليظة في عجلة المشروع الاستعماري الذي كان يصعد بسرعة في ذلك الوقت، وبديهي أن للثورات أخطاء، ولزعمائها أخطاء وليس هناك من معصوم من الخطأ اللهم إلا الرسول ﷺ.

ويبقى أن نعتز بتلك الثورة وأن نستفيد بدورها وتجاربها،

د. محمد مورو

جــذور لا تمــوت

ظاهرة الثورة الإسلامية عموما، وفي مصر خصوصا، غيــر قابلــة للتصفية أو الاجتثاث، قد تخبو أحيانا، أو تتعرض لعمليات البطش ولكنها تظل كامنة في أعماق التربة تظهر مرة بعد مرة ولتأخذ صورا وأشكالا متعددة.

ولا سبيل للقضاء على تلك الثورة إلا بالقضاء على الشعب المصــري كله، كان محمد علي قد وجه ضربات شديدة لحركة الجماهير المســلمة فــي مصر سواء عن طريق القمع والاستبداد أو عن طريق تصــفية المؤسســات الثورية مثل الأزهر أو حتى عن طريق ضرب البنيان الاجتماعي الذي يعطي للثورة وحركة الجماهير بعدا وعمقا.

و أكدت أوربا المتربصة تلك العملية عن طريق الاختراق الاجتمــاعي والثقافي والاقتصادي والسياسي بهدف ترويض الأسد ونزع أظافره وأســنانه ليسهل بعد ذلك احتلال مصر التي استعصت مرتين على الغــزو الأوربــي (الفرنسي ١٧٩٨ ــ ١٨٠١) والإنجليــزي (١٨٠٧) واســتغرقت عمليــة الترويض تلك عشرات السنين واستخدمت أوربا عشرات الوسائل في تحقيــق ذلــك، ولكن وبرغم هذا، كانت حركة الشعب المسلم في مصر تنمــو وتتقــد تحت التراب وتحاول قدر الاستطاعة اختراق هذا الحصار الحديــدي الــذي شكلته قوى الاستعمار المتربص وقوى الاستبداد الداخلي المتمثل فــي أســرة محمد علي والمتعاونين معها، وقد عبرت حركة الشعب المسلم عن نفسها ضد محمد علي بأكثر من وسيلة، وبأكثر من أسلوب؛ فالمثقفون من أول الجبرتــي كانوا يعارضون سياسات محمد علي في جلساتهم واجتماعاتهم، وإن كانت تلك

المعارضة ظلت محصورة في نطاق ضيق بسبب القمـــع والاســـتبداد وقـــوة القبضة البوليسية لنظام حكم محمد علي.

كان هؤلاء المثقفين يطلقون على محمد علي لقب باشا النصارى، وهو مصطلح يعبر ويلخص رؤية مجموعة المثقفين لمجمل سياسات محمد علـــي، وهذا المصطلح يعبر عن رأي تلك المجموعة في عمليات التغريب وامتـــداد النفوذ الأجنبي إلى مصر والصدام مع الخلافة الإســـلامية العثمانيـــة، وهـــو مصطلح شديد التركيز وشديد الدلالة في وقت واحد، ممـــا يؤكـــد أن درجـــة الوعي السياسي لدى هؤلاء المثقفين المعارضين كانت عالية ويؤكد أيضًا قدرة تلك المجموعة على صياغة شعاراتها في عبارات مختصرة، بل قـــل فـــي عبارة واحدة مختصرة أو بالتحديد في كلمتين تحملان المضـــمون المتكامـــل لأسباب معارضتهم لمحمد علي، ومن البديهي أن تلك الحركة قـــد تعرضـــت لأبشع عمليات المطاردة أو محاولات الاستقطاب والإفساد و الجبرتي نفســـه دفع الثمن غاليا، فقد مات ابنه مسموما في ظروف غامضة، وعبرت حركـــة الشعب المسلم في مصر عن نفسها أيضًا عن طريق الاحتفال والاهتمام بالسيد عمر مكرم عندما سمح له بالعودة من منفاه في دمياط إلـــى القـــاهرة ســـنة (١٨١٩) حيث تزاحم الناس على بابه وهنأه الشعراء بقصائدهم ممـــا جعـــل محمد علي يقرر نفيه ثانية إلى طنطا.

وعبرت حركة الشعب المسلم في مصر عن نفسها أيضًا ســـنة ١٨٢٢ عندما هاج السكان أستياءًا من فرض ضريبة جديدة على المنازل و اصطدموا بجنود محمد علي.

وذهبت الجموع إلى دار الشيخ العريسي شيخ الأزهر ليتكلم عنهم لرفع الضريبة، وقد استطاع محمد علي أن يقمع هذا الحركة بقسوة وأن ينفذ قراره بتحصيل الضريبة، وانتفاضة (١٨٢٢) تمثل تلخيصا هاما لأحوال مصر في ذلك الحين، فإذا كانت الجماهير المسلمة قد تعودت على الثورة على الظلم واللجوء إلى الأزهر وفرض مطالبها، فأنها في هذه الانتفاضة فشلت في فرض تلك المطالب؛ لأن الأزهر لم يعد كما كان. والأوضاع لم تعد كما كانت فمحمد علي كان قد نجح في ضرب نفوذ الأزهر و تصفيته كمؤسسة حاضنة للثورة وكقيادة طبيعية للجماهير. وعبرت تلك الحركة أيضًا عن نفسها في انتفاضة شاملة اندلعت في الوجه القبلي ما بين أسنا وأسوان سنة (١٨٢٤) واستطاعت تلك الحركة أن تنزل هزيمة مؤقتة بجند محمد علي إلى أن أستطاع إخمادها وعبرت تلك الحركة أيضًا عن نفسها بعمليات الهروب الجماعي والفردي التي مارسها الفلاح المصري كنوع من الرفض السلبي للظلم والاستبداد أو شكل من أشكال الامتناع عن العمل في مزارع أسر محمد علي والمتعاونين معها وهو أسلوب كان يصيب نظام الحكم بخسائر اقتصادية كبيرة جدًا حيث يحرمها من قوة عمل كانت تدر عليه عائدا اقتصاديًا كبيرًا.

وقد يبدو أن عملية الهروب شكل من أشكال اليأس ليس إلا ولكنها في حقيقتها كانت شكلا من أشكال المقاومة الواعية، فالفلاح الذي كان يهجر أرضه كان يعرف أن هناك عقوبة قاسية تنتظره بسبب هذا الهروب ومع ذلك كان يختار الهروب رغم تلك العقوبة كنوع من الرفض الواعي واليأس معا، وإذا حاولنا أن نستخرج دلالات الأرقام، نجد أنه في عام واحد وهو

عام(١٨٥٥) هجر فلاحو الشرقية والدقهلية وحدهم مساحة من الأرض تبلغ(٦٦,٨٦٦) فدانا [1].

ومن المعروف أن هؤلاء الهاربين كانوا من صغار الملاك جدًا بحيث لا يتجاوز ما يملكه أحدهم بضعة قراريط أو نصف فدان ونادرا ما يمتلك فدانا كاملا ومن المستحيل أن يملك أكثر من فدان، إذا فقد هجر الأرض في عام واحد قرابة مائة ألف فلاح في الشرقية والدقهلية وحدها، فكم كان عدد الهاربين من كل مصر، يمكننا أن نستنتج أنهم زادوا عن المليون فلاح،ويمكننا أن نستنتج حجم تلك الهجرة بحساب عدد من يعولهم هؤلاء الهاربين من أولاد ونساء ليسوا في سن العمل.

وهذا كله يؤكد أن ظاهرة الهروب كانت ظاهرة جماعية وواسعة جدًا، مما يؤكد أنها كانت حركة رفض واع وأن كان يائسا على أن حركة الشعب المسلم في مصر في تلك الفترة، استخدمت أيضًا أسلوب المطالبة بالأراضي عن طريق العرائض الجماعية ونقلا عن الدكتور على بركات أستاذ التاريخ بجامعة المنصورة في مقال له في كتاب - صدر عن مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام بمناسبة مرور مائة عام على الثورة العرابية- فإن أهالي ناحية طنطا وميل الطير بالمنيا قد تقدموا بعرائض جماعية عام

---

* كما قدرها جرجس حنين – نقلا عن د. على بركات . مصر للمصريين – ص ٢٤٧ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية – الأهرام٢ ١٩٨ بمناسبة مرور مائة عام على الثورة العرابية.

(١٨٥١) للمطالبة باسترداد الأراضي التي اغتصبها سامي باشا من أراضي معمور الناصيتين المذكورتين، وتشير شكوى أخرى إلى قيام أهالي دروة وأبو الحسن – دقهلية – بتقديم عريضة جماعية سنة(١٨٥١) للمطالبة باستعادة الأراضي التي اغتصبها صبحي بك، وفي سنة(١٨٤٩) تقدم أهالي قرية نزلة الفلاحين بالمنيا بعرائض للمطالبة بالأراضي التي أغتصبها يوسف عبد الشهيد بالقوة الجبرية (٥٠٠ فدان) ثم تجددت تلك العرائض عام(١٨٦٦) ثم في عام(١٨٧١) وعام(١٨٧٥) (١٨٧٦) ثم (١٨٨١) وفي هذا العام ذاته (١٨٨١) قام عدد من الفلاحين بمحاولة إغراق تلك الأرض عن طريق قطع أحد الجسور، وفي قرية الجعافرة بمديرية الفيوم تقدم(٩٤) من أهل القرية بعريضة سنة(١٨٥٦) للمطالبة باسترداد أراضيهم التي أستولي عليها معجون بك، وفي قرية قونجيل (دقهلية) تقدم الأهالي بعرائض للمطالبة باسترداد أراضيهم التي أغتصبها الخديوي عباس،وقد جدد الأهالي تلك المطالب والعرائض وتقدموا بها إلى مجلس شورى النواب (١٨٨٢)، وكان الأهالي قد امتنعوا عن العمل في تلك الأرض عدة مرات مثل الفترة (من ١٧ جماد الأول ١٢٧٢هـ إلى ٥ شعبان سنة ١٢٧٢ الموافق ١٨٥٦).

وفي قرية معصرة داود تقدم الأهالي بعرائض سنة(١٨٧٨) للمطالبة باسترداد أراضيهم التي أغتصبها الخديوي إسماعيل خلال عمليات تكوين الدائرة السنية.

وفي قرية قرموط البهو دقهلية رفض الفلاحون الذين يزرعون أراضي القرية تسليم الأرض التي يزرعونها بعد أن قام قومسيون الأملاك الأميرية

بتأجيرها جملة إلى اثنين من كبار الملاك هما الأخوان ميخائيل وواصف جريس، وفي ناحية بني شقير بمدرية أسيوط طالب مشايخ الناحية باسترداد أطيانهم التي سبق أن استولي عليها واصف خياط.

على أن حركة المطالبة بالأرض ما لبثت أن تحولت إلى انتفاضات واسعة وعمليات ثورية للاستيلاء على الأرض في إطار الثورة العرابية، وخاصة بعد انحياز الخديوي وكبار الملاك إلى الإنجليز، وسوف نناقش ذلك في إطار مناقشة الثورة العرابية.

الجذور تجد من يرويها

وإذا كانت حركة الشعب المسلم في مصر قد عبرت عن نفسها برغم كل الظروف القاسية فأنه ومع بداية السبعينيات من القرن التاسع عشر، كانت هناك العديد من العوامل التي مهدت لانطلاق حركة الشعب المسلم من جديد.

كانت تجربة محمد علي قد انهارت وانهارت معها قبضة السلطة الحديدية فأصبحت أقل قوة، وأصبحت مصفاة النظام المستبد تحتوي على كثير من الثقوب الواسعة التي اندفعت من خلالها حركة الشعب المسلم في مصر في ذلك الوقت، وإذا كان النظام المستبد قد سمح بقدر من التعليم والبعثات بهدف الحصول على موظفين لتدعيم جهازه الإداري أو تلبية حاجات الجيش فإن هؤلاء المتعلمين الذين جاءوا من القرى والمدن المختلفة أصبحوا عنصرا هاما من عناصر توعية الشعب والمطالبة بحقوقه.

وإذا كان عدد المدارس الحكومية في سنة(١٨٧٥) قد بلغ(٤٨١٧) مدرسة بها (٦٠٤٨) مدرسًا و (٢٧٧٧٢) طالبا فإن المدارس غير الرسمية

المتمثلة في الكتاتيب المنتشرة في كل قرية وحي وشارع كانت عشرات الألوف، أضف إلى ذلك الأزهر الذي ظل مدرسة هامة من مدارس الوعي والثورة والمحافظة على الذات برغم كل ما تعرض له، وكان علماء الأزهر الصغار والمتوسطين يقومون بدورهم التقليدي في التعليم والتوعية في كل مدن مصر وقراها ولن يكون من المبالغة في شيء أن نقول أن كل مصري نال شيئا من التعليم على يد هؤلاء العلماء أقله معرفة مبادئ القراءة وشيء من الفقه وحفظ القرآن كله أو بعضه، وإذا تأملت في فقرة كتبها عرابي في مذكراته تقول:" إنه تعلم في كتاب القرية وأن نصف قريته على الأقل كانوا من المتعلمين"، نجد أن هذه الفقرة تؤكد انتشار التعليم في مصر في ذلك الوقت، فإذا كان سكان القرية على الأقل من المتعلمين فمن البديهي أن نسبة أكبر من المتعلمين كانت في المدن، وهذا يؤكد من جديد كيف أن حركة الكفاح الشعبي في مصر كانت تعمل من خلال عمليات التعليم في القرية التي يقوم بها بعض المدرسين الصغار من حفظة القرآن الكريم عن طريق الكتاب.

واستطاعت تلك الحركة أن تحافظ على وعي الشعب وأصالته بهذه الوسيلة رغم الاختراق الأوربي الواسع وممارسات أسرة محمد علي الظالمة، وكانت القواعد الثورية المتمثلة في هذه الكتاتيب هي الرافد الأساسي الذي أمد حركة الثورة عموما في مصر بزاد لا ينضب والثورة العرابية خصوصا.

ويقول محمد عبده في مناقشة له مع لورد إنجليزي (1): إن أرض مصر من زمن محمد علي قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ما هو موجود في بلاد أوربا وأخذ كل مصري نصيبا منها، ولا تخلو قرية مصرية

من عدد كبير من القارئين والكاتبين، والأخبار العمومية توصلها إليهم الجرائد العربية، ومن لا يقرأ يستنبئ الأخبار من القارئين، وإذا ما قرأنا هذا النص جيدا بالإضافة إلى النص الذي أثبته عرابي في مذكراته لأدركنا على الفور أن النهضة التعليمية والأدبية في مصر كانت موجودة بصورة واسعة ولا تقل عن دول أوروبا على حد قول الشيخ محمد عبده، وأنها كانت بفضل الحركة الشعبية في مصر عن طريق علماء الأزهر الصغار والمتوسطين المنتشرين في كل مدن مصر وقراها، وأنها لم تنشأ فيما بعد نتيجة التأثر بأوروبا.

فالغرب الاستعماري لا يقدم تعليما ولا ثقافة ولكنه يقدم اغترابا وتشويها بهدف القضاء على روح الأمة وجذورها ونهضتها التعليمية والأدبية أيضًا، وان تلك النهضة أيضًا لم تكن بفعل المدارس الحكومية التي أنشأها محمد علي وإسماعيل بهدف تلبية مطالب جهازهما الإداري، وإن كانت تلك المدارس قد أضافت على غير قصد من محمد علي وإسماعيل زادا جديدا لوعي الشعب ونهضته التعليمية والأدبية ومن العوامل التي ساهمت في زيادة الوعي العام قيام برلمان منتخب سنة (١٨٦٦)،وقد جاء ذلك البرلمان بقرار من الخديوي إسماعيل بهدف امتصاص المد الجماهيري الواسع الذي كان يلوح في الواقع المصري من ناحية.وتحقيق نوع من الدعم الشعبي لإجراءات إسماعيل يفيده في تناقضه الثانوي مع الدول الأوروبية الطامعة في مصر، وعموما فإن هذان الهدفان هما من التكتيكات التقليدية للحكومات المستبدة والتي تلجأ إلى إقامة حياة برلمانية تفيدها في تناقضاتها الثانوية مع القوى الدولية المحيطة وتحقق لها نوعا من التفريغ لحركة الشعب في الداخل، ومن

البديهي أن الخديوي إسماعيل قام بتفصيل قانون هذا المجلس وطريقة انتخابه بحيث لا يكون إلا مجلسا شكليا يحقق للخديوي إسماعيل أهدافه الســابقة ولا يخرج عن إطاره، ولكن هيهات، فدائما وأبدا تخرج الأمور من قبضة الأنظمة المستبدة بفضل الوعي الشعبي، وشيئا فشيئا يتحول الشكل إلى مضمون ويبدأ الأعضاء الشاغبون في المعارضة ويحدث نوع من الشد والجــذب إلــى أن تضيق القوى المستبدة بالبرلمان فتقرر حله أو حتى الاستغناء عنه نهائيا، وإذا كان مجلس شورى النواب الذي سمح به الخديوي إسماعيل قد ظل يعمل فــي الإطار المحدد له عشر سنوات كاملة، فإنه ومع بداية ســنة(١٨٧٦) بــدأت أصوات المعارضة تبرز داخل البرلمان وخاصة فيما يخص قــانون المقابلــة وكذلك مطالبة الأعضاء بنظر الميزانية ونجح البرلمان في الحصــول علــى بعض السلطات في سنة ١٨٧٨، ودخل النواب في معــارك مــع الــوزرين الأوروبيين في وزارة رياض سنة ١٨٧٩ وأصر النواب على التمسك بحقهم في النظر في كافة الإجراءات الخاصة بفرض ضرائب جديدة. ممــا جعــل الوزرين الأوروبيين في وزارة رياض يطالبان بحل مجلس الشــورى، إلا أن أعضاء المجلس رفضوا ذلك القرار واحتجوا على المشروع المــالي الــذي أعدته لجنة التحقيق العليا بالاشتراك مع الوزير الإنجليزي ولسون، ووصــل الأمر إلى حد عقد اجتماع بمنزل إسماعيل راغب باشا طالبوا فيــه بالنظــام الدستوري وإقصاء الوزرين الأوروبيين وتعديل لائحة مجلس شورى النواب، وأطلق المجتمعون على أنفسهم اسم (الجمعية الوطنية) واستمر تصاعد وتيرة المعارضة البرلمانية قبل وأثناء الثورة العرابية إلى أن تم احتواء وتصفية تلك

الحركة البرلمانية عقب الاحتلال، ولا شك أن سخونة الحياة البرلمانية في تلك الفترة كانت تزيد في وعي الشعب كما كانت نتيجة لهذا الوعي أيضًا، وعلينا أن نعرف دائما أن السلطات المستبدة والقوى الاستعمارية لم تمنح مصـــريون برلمانا حقيقيا، وعلينا أن ندرك أنها إنما تسمح بهامش المعارضة البرلمانيـــة، فإذا زادت عن حدها تم تصفيتها بلا هوادة إلا أن علينا أيضًا أن ندرك أنه لا مانع إطلاقا شرعا وتكتيكيا الاستفادة من هذا الهامش فـــي إنتـــاج الظـــروف الموضوعية للثورة وتحقيق أفضل الأجواء لحركة تلك الثورة، وعلينا أيضًا ألا نقع في وهم إمكانية تحقيق مطالب الشعب عن طريق النضال البرلماني وحده أو اعتبار هذا النضال البرلماني غاية بل هو وسيلة أو قل إحدى الوسائل وما ينطبق على البرلمان ينطبق على الصحافة أيضًا، فحركة الجمـــاهير تحـــاول دائما أن تنتزع حقها المشروع في إصدار الصحف والكتابة بحرية والسلطات المستبدة من ناحية ثانية تحاول عرقلة هذا الحق ووضع العقبات المختلفة فـــي طريقه، ولكنها أيضًا تسمح بهامش من حرية الصـــحافة فـــي حـــالات المـــد الجماهيري الواسع كنوع من التنفيس ولكن في حدود معين.

وفي كل الأحوال فان الصحافة تلعب دورا هاما بل رئيسيا في تســـليح الشعب بالوعي وتحقيق الظروف الموضوعية للثورة وحشد قوى الجمـــاهير وتحريضها وهكذا كانت الصحافة المزدهرة في ذ لك الوقت أحـــد العوامـــل الهامة التي دعمت جذور الثورة وروتها وساعدتها علـــى النمـــو والاتســـاع، ويمكننا أن نميز بين عدد من الاتجاهات التي عبرت عنها صحف تلك الفترة، فمنها صحف كانت تصدر بصورة رسمية عن الحكومة المصرية مثل الوقائع

المصرية، ومنها صحف كانت تصدر بتشجيع وتمويل الخديوي لتبرير سياساته والدعاية لها مثل صحيفة وادي النيل (١٨٦٦ ـ ١٨٧٢) وأخرى تصدر بتشجيع الخديوي ثم تخرج عن هذا الإطار فتتوقف أو يمنع عنها الدعم الخديوي مثل جريدة نزهة الأفكار وثالثة تصدر بإيعاز من المستعمر الأوروبي المتربص سواء كان فرنسيا أو إنجليزيا مثل الأهرام (١٨٧٥) ورابعة تصدر للدفاع عن قضايا الشعب مثل (مصر ١٨٧٧)، ثم التجارة (١٨٧٨)، (أبو نضارة) (١٨٧٧) (الوطن) (١٨٧٧)، وبديهي أنه لم تكن هناك فواصل حديدية بين تلك الصحف – فبسبب وجود التناقضات الثانوية أو الجوهرية بين مختلف القوى كانت هذه الصحيفة أو تلك تتبنى هذا الموقف أو ذاك، بل أن العناصر الصحفية الموالية للشعب كانت تجد طريقة أو أخرى للتعبير عن نفسها في صحف القوى الأخرى، وعلى كل حال فإن الصحافة عموما لعبت دورا هاما في تكوين وبلورة رأي عام مصري قوي.

ثوريون و إصلاحيون

النموذج الثوري هو السيد جمال الدين الأفغاني، والنموذج الإصلاحي هو الشيخ محمد عبده، ومازال هذان النموذجان تؤثر آراؤهما في فكر وحركة قطاعات كبيرة من الحركة الشعبية في مصر وخارجها حتى الآن بل أننا لا نكون مبالغين إذا قلنا أن مستقبل النهضة الإسلامية في مصر والعالم العربي مرتبط بصورة كبيرة بسيادة أحد هذين النموذجين، وفي رأينا أنه إذا ساد نموذج جمال الدين فإن المستقبل للإسلام وللشعوب ولمصر، وإذا ساد المنهج الثاني، فإننا سنسقط في المابين وسنظل نعاني طويلا جدًا وسنظل عرضة

للتردد والتخبط إلى ما شاء الله، و لعل أولي الخطوات هو عملية الفصل بين هذين النموذجين خاصة وأن الكثيرين يخلطون بين النموذجين وبين الرجلين على اعتبار أن الشيخ محمد عبده، هو تلميذ الأفغاني أو هو امتداد له وهـذا غير صحيح نعم إنه تلميذه ولكنه ليس امتدادا له، هـذا مـنهج وذاك مـنهج، النهج الأول يعمل من خلال الشعب والثورة والجماهير، والثاني يعمـل مـن خلال التعاون مع القوى الحاكمة، سواء كانت حكومات مسـتبدة أو سـلطات احتلال، أو حتى ثورة في حالة صعود، ولا يعني هذا بـأي حـال مـن أي الأحوال أن المنهج الثاني خائن أو عميل، ولكنها رؤية في العمل، نراها غير صحيحة ولكنها غير خائنة، النهج الأول يرى أن الثورة والعمل الثوري هـو الطريق إلى انتزاع الحقوق وتربية الفرد؛ لأن الفرد المسلم لا يتربى ألا فـي خلال الصراع وعلى وهج الثورة، والنهج الثاني يرى البدء بالتربية، فإذا مـا تم تربية الشعب أمكن التخلص من السلبيات بما فيها الاسـتبداد والاحـتلال وغيرها، وهذا بالطبع قول خاطئ؛ لأنه مـن البـديهي أن قـوى لاسـتبداد والاحتلال تعمل على إفساد الشعب ولن تترك دعاة التربية يمارسون عملهـم بحرية، أي أن المسألة تحتاج لصراع أيضًا من أجل هذه التربية وهنا لابد من العمل الثوري لحسم هذا الصراع ثم أن الله تعالى يقول في كتابة العزيـز ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ أي إن الهداية ذاتها ستأتي مـن خـلال الحركة والجهاد والثورة وليس العكس.

نعم الفرق بين المنهجين هو الفرق بين من يعمل للثورة عـن طريـق جماهيرها الطبيعية وبين يعمل للإصلاح عن طريق الحكام وهم أصلا سـبب

الفساد، أن هذا الفرق يتضح جليا بين المنهجين، منهج الثورة ومنهج الاعتدال والتردد والتربية، فالأفغاني مثلا يعنف الشيخ محمد عبده قائلا :" تكتب لي ولا تمضي" أي توقع "وتعقد الألغاز، وما الكلاب كثرت أو قلت)(٢) وذلك في إطار انتقاد الأفغاني لغموض محمد عبده وتردده وعدم وضوح تفكيره وإكثاره من الحديث عن قوة الخصم، وعندما يكتب الشيخ محمد عبده إلى السيد جمال الدين بعد هزيمة الثورة العرابية يقترح عليه:" أن نهجر السياسة ونذهب إلى مهجر من مهاجر الأرض لا يعرفنا منه أحد نختار عشرة من الأذكياء نربيهم على منهجنا، فإذا أتيح لكل منهم تربية عشرة آخرين لن تمضي بضع سنيين أخرى ألا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد في سبيل الاصطلاح ".

ويرد الأستاذ الأفغاني على الشيخ محمد عبده قائلا:" إنما أنت مثبط، نحن شرعنا في العمل ولابد من المضي فيه مادمنا نرى منفذا،(٣)

ومادام مستقبل نهضة الأمم الإسلامية عموما ومصر خصوصا، مرتبط بشكل كبير بسيادة أي من الاتجاهين السابقين داخل حركة الشعب المسلم، كان من الطبيعي أن تحاول العديد من القوى البريئة والخبيثة خلط الأوراق بين المنهجين وبين الرجلين، فإذا كانت مسألة احترام العقل مبدأ إسلامي أصيل فليكن احترام العقل من سمات محمد عبده وحده ولابد من جعل الأفغاني وكل رموز المنهج الثوري ضد العقل والعقلانية،وهو كلام غير صحيح طبعا .

وفي الحقيقة فإن محمد عبده كان يحترم العقل إلى حد بعيد وهذا أمر جيد إذا ما وضع في إطاره الصحيح، والإسلام دين العقل لاشك في ذلك. والدعوة إلى التفكير والتدبر فريضة إسلامية.

ولكن من قال إن هذا الأمر قاصرا على محمد عبده، إن احترام العقل أمر جوهري في فكر وسلوك الأفغاني ومدرسته ومنهجه، والأفغاني أستخدم أرقي الأساليب الفكرية في الرد على الدهريين، ودعا دائما إلى العلوم الطبيعية، بل وقام بتدريسها في الأزهر أو في حلقات الدرس التي كان يعقدها في أكثر من مكان وأستخدم في دروسه أسلوبا عقليا متميزا سواء في تدريس العقيدة والفقه أو تدريس التاريخ أو تدريس الفلك والرياضة والطبيعة والشيخ محمد عبده نفسه يصفه بقوله: إن حديثه كان ينير العقل، ويطهر العقيدة ويذهب بالنفس إلى معالي الأمور[٤].

وفي الحقيقة فإن احترام العقل والاهتمام بالعلم لم يكن أمرا أبتكره الشيخ محمد عبده أو السيد جمال الدين الأفغاني، ولكنه كان أمرا ملازما للإسلام عموما وللأزهر خصوصا.

فالعلوم الطبيعية كانت تدرس بالأزهر دائما منذ نشأته وفي الفترة التي سبقت الحملة الفرنسية يحدثنا الجبرتي عن عدد كبير من علماء الأزهر كانوا أساتذة في علوم الفلك والطبيعة والكيمياء، وكيف أن التلاميذ من أوروبا كانوا يفدون عليهم بغرض التعلم والتتلمذ؟ وحتى بعد الضربات القاسية التي وجهها محمد علي إلى الأزهر ظل الأزهر محافظا على تقاليده في نشر العلوم الطبيعية بالإضافة إلى العلوم الدينية؟ وهذه حقيقة لا سبيل إلى إنكارها وهي تفرض نفسها لدرجة أن رفعت السعيد[٥]،وهو ماركسي !! يضطر إلى الاعتراف " بأنه كانت هناك حركة تموج وسط علماء الأزهر تدعو إلى دراسة العلوم العصرية والعقلية،وقد قاد تلك الحركة الشيخان العطار

والطويل، بل اعتبرا العلوم العلمية في حقيقتها علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم عن الحضارة الإسلامية " إذن فمسالة احترام الفعل ليست قاصرة على المنهج الإصلاحي بل هي أشمل من ذلك وأشمل أيضًا من المنهج الثوري، وهي إحدى خصائص الإسلام عموما والأزهر خصوصا.

على أنه ينبغي علينا أن ندرك أن رؤية المنهج الثوري لهذه المسألة أكثر شمولا وإيجابية فهي ليست مسألة منفصلة بل ترتبط بغيرها من العوامل ويجب وضعها في إطارها الصحيح من حيث النصوص الشرعية والمصالح المرسلة بحيث تؤدي إلى النهضة استنادا إلى خصائصنا الحضارية والذاتية أما نظرة المدرسة الاصطلاحية لهذا الأمر بشكل منفصل تؤدي حتما إلى الذوبان الحضاري ولن تؤدي إلى النهضة بأي حال من الأحوال، وإذا كان الشيخ محمد عبده قد دافع دفاعا عقليا عظيما عن الإسلام ضد فئات المستشرقين فهذا أمر عظيم، ولكن يجب النظر بحذر إلى مواقفه السياسية وخاصة في مواقفه من الاحتلال الإنجليزي وعلاقته باللورد كرومر حتى ولو كان أتخذ هذا الموقف أو ذاك من أجل إطلاق يده في الاصطلاح؛ لأنه بتلك المواقف وهذه العلاقات قد نسف الأساس الصحيح للإصلاح، وفي الحقيقة فإن الجمود الذي أبتدعه بعض المشايخ كان مرتبطا بالحكام المستبدين وينفذ لحسابهم عن طريق هؤلاء المشايخ المرتزقة الذين كانوا يعرفون ويعرف سادتهم المستبدون أن نشر الإسلام الصحيح كفيل بإنهاء خضوع الجماهير لظلمهم واستبدادهم.

وفي الحقيقة أيضًا أن هؤلاء الداعون إلى الجمود كانوا دائما ملفـوظين خارج زمرة العلماء، وأن كل علماء الأزهر مهما كانت درجة ثقافتهم الدينية أو العصرية أو رؤيتهم الشرعية أو مذاهبهم الفقهية كانوا دائما مع نشر العلوم الطبيعية والعصرية وعلى سيل المثال فإنه في ذلك الوقت أي فـي النصـف الثاني من القرن التاسع عشر كان الشيخ الأنبابي شيخ الأزهر يجيز تعلم تلك العلوم بل ويعتبرها واجبا وكذلك كان الشيخ محمد بيرم أشهر علمـاء جـامع الزيتونة يرى الرأي نفسه بل ويلجأ إلى نشره عن طريـق اسـتقاء الشـيخ الأنبابي فيه (٦).

إذا أخذنا في الاعتبار أن حركة الأفغاني ومدرسته التي امتـدت فـي الزمان والمكان كانت وراء العديد من الثورات الإسلامية في مصر والعـالم العربي والإسلامي، وكذلك وراء حركـات المقاومـة السـلمية والمسـلحة للاستعمار في المنطقة لأدركنا على الفور أن التقييم الموضـوعي للأفغـاني وحركته ومنهجه ضروري وحيوي لمسـتقبل العمـل الإسـلامي ومسـتقبل الشعوب الإسلامية والعربية ومصر خصوصا، ولأدركنا أيضًا لمـاذا كانـت هناك دائما محاولات للإفراط أو التفريط في حق هذا الرجل وهذه الحركة، و الاستعمار يدرك بالطبع هذا الدور الهام الذي لعبته مبادئ الأفغاني ومدرسـته وتلاميذه في تفجير الثورة العرابية وفي كفاح الحزب الوطني في مصر قبـل ثورة (١٩١٩)، وفي التأثير على الحركات الإسلامية عمومـا بعـد ذلـك، ويدرك أيضًا أن تلك المبادئ وهؤلاء التلاميذ لعبوا دورا هامـا فـي كفـاح شعوب المغرب العربي ضد الاستعمار الفرنسي، وفي كفاح شعب ليبيا ضـد

الاحتلال الإيطالي، وفي تفجير الثورة الجزائرية سنة (١٩٥٤) والثورة الإيرانية سنة (١٩٧٩)، إذن فهو أثر ممتد في الزمان والمكان، وكان لابد من العمل على تطويقه على أكثر من محور، فإذا كان الأفغاني قد قدم نموذجا فذا وبرنامجا صالحا وتحليلا موضوعيا لأسباب تخلف المسلمين، وإذا كانت كل حركات الرجل وبرامجه وتحليلاته تنطلق من الإسلام فلابد من إلقاء شبهات حول الرجل داخل الحركة الإسلامية باعتبارها الوعاء الطبيعي لتلك الأفكار، ولابد أيضًا من تشويه الإسلامية الناضجة والإيجابية التي قدمها الرجل، وهكذا التقط عملاء الاستعمار الخيط وقالوا أن الأفغاني رائدا للقومية العربية !!

ولم يكن هذا الكلام مقدم إلى القوميين بالطبع ولكنه كان مقدما إلى الإسلاميين لينفروا من الرجل، فالقوميون العرب لا يمتون للرجل بصلة وهو أيضًا لا يمت لهم بصلة على مستوى المبادئ بل وعلى مستوى الجنسية ذاتها، وحركة الرجل اشتملت على النضال في أكثر من مكان مثل أفغانستان وإيران ومصر وتركيا، وهناك أيضًا من يقول إنه رائد القومية المصرية، والرجل بالطبع لم يخطر بباله شيئًا من هذا، وكل جهود ه وتحليلاته ومواقفه كانت من أجل الشعوب الإسلامية عموما ومصر من ضمنها، وإذا كان لمصر خصوصية عند الرجل فبسبب ثقلها الإسلامي وأمله أن تكون نواة للنهضة الإسلامية المرتقبة، وهناك من يقول أنه كان نصيرا للمستضعفين وكانت ثورته وحركته طبقية، وبديهي أن الإسلام ينتصر للمستضعفين، وكون الأفغاني كان نصيرا للمستضعفين فهذا يؤكد إسلاميته ويؤكد فهمه الصحيح للإسلام وفي الحقيقة فإن مثل هذا الكلام عن الأفغاني يجعلنا نزداد تمسكا به

كرمز إسلامي صحيح، فلو لم يكن الرجل عظيما لما تمسح به دعاة القومية المصرية أو القومية العربية أو دعاة اليسار، وبعيدا عن الغرض المشبوه الذي يستهدفونه "وهو تنفير الإسلاميين منه" فإننا نفهم المسألة ببساطة؛ لأن حركة الثورة الإسلامية تفيد بالقطع مصر والعرب ولكن لا تقتصر الفائدة على مصر والعرب بل على المسلمين جميعا وعلى كل المستضعفين في الأرض، بل إننا نؤكد أنه لا سبيل لنهضة مصر والعرب إلا بالإسلام ولا أمل في نصرة المستضعفين ألا بالإسلام أيضًا، وإذا كان الجميع قد تمسح بجمال الدين ،فهناك موقفان يستحقان التأمل ،الأول هو هجوم لويس عوض عليه وإلصاق كل ما هو سيء ومريب بالرجل، وإذا كان لويس عوض يكره كل ما هو إسلامي أو عربي أو مصري، بحكم أنه ربيب إرساليات التبشير الصليبي وأكبر دعاة الاستعمار في مصر والمنطقة كامتداد لسلامة موسي وأستاذا لغالي شكري، والثلاثة معا يشكلون الجهاز الإعلامي للاستعمار الصليبي في المنطقة، فإن هجوم لويس عوض على السيد جمال الدين يدل دلالة قاطعة على مد الحقد الصليبي على جمال الدين والموقف الثاني الذي يستحق التأمل والأسف هو موقف بعض الإسلاميين الأغبياء من جمال الدين بدعوى انتمائه للماسونية دون مناقشة المسألة في إطارها الزمني.

وبداية فإننا نقرر أن الماسونية حركة مشبوهة ومعادية للإسلام ومرفوضة جملة وتفصيلا وذات صلة وثيقة بالصهيونية ولكن متي عرفنا هذا واكتشفنا هذا،و لنوضح المسألة أكثر فإن هناك الآن في طول العالم وعرضه حركات الدفاع عن حقوق الإنسان ومنظمات للدفاع عن حقوق الإنسان

وبديهي أن من المرغوب فيه الاستفادة من تلك المنظمات والحركات لوقف أو تقليل عمليات القمع والتعذيب وانتهاك حقوق الإنسان التي تقع على المجاهدين المسلمين في كثير من البلاد والمواقع، وبديهي أيضًا أن من المرغوب فيه أن ينضم إلى تلك المنظمات عدد من المفكرين أو الزعماء المسلمين أو ينشئوا فروعا لها في بلادهم، ولأن المجاهدين المسلمين هم الأكثر تعرضا؛ لانتهاك حقوق الإنسان؛ ولأن الإسلام يؤكد على تلك الحقوق ويدعو المسلمين للانتصار لها في بلادهم وفي غير بلادهم بل ويدعو إلى نصرة غير المسلمين الذين يتعرضون لانتهاك حقوق الإنسان في بلادهم على يد حكامهم أو مستعمريهم، فمن البديهي أن دعم هذه المنظمات واجب إسلامي ولكن إذا ما ثبت فيما بعد أن تلك المنظمات المهتمة بحقوق الإنسان لم تكن في الحقيقة ألا قفازا في يد الصهيونية أو الأمريكان أو غيرهم هل ندين كل من أنضم إليها من المسلمين أو دعمها أو استفاد بدعمها في تحسين في ظروف جهاده، بالطبع لا، وسيظل موقف هؤلاء مشروعا ومرغوبا طالما لم نكتشف أن تلك المنظمات ذات صلات مريبة بدوائر الاستكبار العالمي، وهذا هو بالضبط موقف السيد جمال الدين، فقد كانت الماسونية في تلك الفترة ترفع شعار الدفاع عن الحريات، حريات الشعوب والأفراد وتدعو إلى الإخاء والمساواة وحاول السيد جمال الدين الاستفادة منها دون أن يفرط في دينه أو عقيدته، فلما أكتشف عدم جدوى ذلك نفض يده منها ولم تحاول هي أن تتمسك به أو تغريه بالبقاء فيها؛ لأنها كانت تعرف أنه غير قابل للتطويع، وليس هذا فحسب بل واستفاد جمال الدين من أساليبها في التنظيم والدعاية وهذا طبعا

مشروع ومرغوب وهو من باب الاستفادة مثلا من أساليب عمـــل أو كفـــاح الشعب الفيتنامي ضد أمريكا أو المنظمات اليسارية أو اليمينية أو القومية في أي مكان من العالم، وعملية التنظيم ووسائل الدعاية مـــن العلـــوم الواجـــب تحصيلها شرعا وعقلا.

لعله من الأمور الحيوية للحركة الإســـلامية المعاصـــرة فـــي العـــالم الإسلامي عموما، وفي مصر خصوصا دراسة حركة جمال الدين الأفغـــاني على مستوى الفكر والتكتيك السياسي، ولعله مـــن الحيـــوي أن تكـــون تلـــك الدراسة شديدة الموضوعية لأن أي خطأ فيها يمس مستقبل الحركة الإسلامية وبالتالي مستقبل الأمة والمستضعفين في العالم ،وما يتم عمل هذه الدراسة فإن كثيرا من الوقت سيضيع وكثيرا من القضايا ستظل بلا حسم وكل هذا يعطل ويؤخر مسيرة العمل الإسلامي، وإذا حاولنا أن نستخلص البرنامج السياســـي لجمال الدين الأفغاني من خلال أقواله ومقالاته نجد أنه كان يرى أن المسلمين قد فسدوا بالجهل، ولابد من ثورة للإصلاح الإسلامي وإلا هلك المسلمون ،أن آفة المسلمين هي حكامهم الطغاة المتناحرون الذين باعوا دار الإسلام لأوروبا أو مهدوا بطغيانهم وخلافاتهم وجشـــعهم للأوروبيـــين أن يتغلغلـــوا فـــي دار الإسلام، وأن يسيطروا عليها، أن الحل يكمن في العودة إلى الإسلام الأصـــيل في نقائه الأول أيام حكم الخلفاء الراشدين قبل أن تفسدها الخلافات الدنيويـــة المتعاقبة ، أن الإسلام دين يدعو إلى التحرر من الجهل والخرافـــة والكســـل ويفتح الباب واسعا أمام العلم الذي به يكون تقدم المسلمين إذا أرادوا الخروج من تخلفهم وانحطاطهم، وأن الإسلام دين عمل وسعي وليس دين تعود وتنبلة

تحت ستار التعبد، أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وعلى هـذا فإن خلاص المسلمين مرتبط بمبادرتهم وأعمالهم ، أن الإسلام يعطـي حـق الثورة للمسلمين على حكامهم الطغاة الفاسدين حتى لا ينتشر طغيانهم وفسادهم كالغرغرينه في أوصال أمة الإسلام، أن الإسلام أمة واحدة رغـم اخـتلاف أجناسها ولغاتها، وهذه هي العروة الوثقى، وهذه كانت حالة أمة الإسلام أيـام مجدها ثم تفتت بالانحطاط والتخلف والاستبداد ومنازعات حكامها الفاسـدين الطغاة، وعليها أن تعمل لاسترداد وحدتها الضـائعة، فبهـذا يمكـن للعـالم الإسلامي أن يثبت أمام أوروبا، وإذا تأملنا التحليل السابق نجد أن الأفغـاني أستطاع أن يحلل واقع المسلمين في ذلك الوقت تحليلا دقيقا وشجاعا ويحـدد الطريق الصحيح لعلاج هذا الواقع وتحقيق النهضة، وإذا كنا قد اتفقنا على أن تقييم أي شخص أو موقف يتوقف على موقفه من ثلاثة أشياء هـي الحريـة، الجهاد، الوحدة.

فمن كان مع هذه الثلاثة أشياء فهو يعمل لصالح الإسـلام والمسـلمين والعكس صحيح تماما فإن الأفغاني كان ولا شك أكبر دعاة الحرية بل ويعتبر الاستبداد هو أساس الفساد والتخلف وسبب نكبة المسلمين، وهو أيضًا يـدعو إلى الجهاد وترك القيود والتنبلة والكسل، وهو أكبر دعاة الوحدة الإسـلامية، بل هو يقدم موقفا ناضجا ومسئولا في هذا الأمر فهو مع الوحدة ومع الخلافة ولكن ذلك لا يمنع من التصدي لعوامل الفسـاد والاسـتبداد داخـل الخلافـة العثمانية مدركا أن نضاله هذا إنما يقوى الخلافة ولا يضعفها؛ لأن ما يضعفها حقا هو السكوت على الفساد والاستبداد بداخلها، وكان جمال الدين يعرف من

هم حلفاء الإسلام الطبيعيين ومن هم أعداؤه الطبيعيين أيضًا، وكان يعرف على من يعتمد أساسًا، كان يعرف أن الفلاح المصري هو خزان الإسلام الثوري الذي لا ينضب وكان يعرف أن أعداء الإسلام هم أوروبا الاستعمارية، والأسرة الخديوية والمتعاونين معها من الأرستقراطية الزراعية التي نشأت نتيجة للتكتيكات الاستعمارية والممارسات السياسية والاقتصادية للأسرة الحاكمة وللنفوذ الاقتصادي الأوروبي في مصر.

وهكذا لم يكن عجيبا أن يهتم الأفغاني اهتماما شديدا بالفلاح بل ويحرضه هو شخصيا على الثورة قائلا " أيها الفلاح يا من تشق الأرض بفأسك لماذا لا تشق رأس ظالميك " ولم يكن عجيبا أن يهتم تلاميذ الأفغاني بتوعية الفلاحين وتحريضهم فها هو عبد الله النديم يجوب قري مصر قرية ويجند معه كثير من علماء الأزهر الصغار والمتوسطين لتوعية الفلاحين وحشدهم في أتون المعركة عن طريق الخطابة والصحافة والعلاقات الشخصية، وإذا كان الأفغاني قد أعتبر الفلاح المصري هو خزان الثورة الإسلامية الأساسي فإن ذلك لم يمنع الأفغاني أيضًا من حشد فقراء المدن من الصناع والحرفيين ولم يمنعه أيضًا من حشد الموظفين والتجار؛ لأن كل هؤلاء كانوا خارج المعسكر الاستعماري؛ لأن الاستعمار لم يكن يريد ولا يرغب في ظهور قوة صناعية أو تجارية مصرية بل أهتم دائما بضرب تلك الثورة وأصر على أن تكون الصناعة بيد الأجانب والتجارة بيد الأجانب، وهكذا أستطاع الأفغاني أن يحشد كل القوى التي تقف خارج المعسكر الاستعماري في مواجهة كل القوى الاستعمارية أو المرتبطة بالاستعمار أو

المتحالفة معه، ولم يكن عجيبا أن تجد أن دروس الأفغاني يحضرها الفلاح والعامل والموظف والتاجر، بل أن كبير تجار القاهرة كان من أهم وأكبر تلاميذ الأفغاني وهو السيد موسي العقاد ثم نجله السيد حسن موسي العقاد الذي كانت تبلغ أمواله السائلة ١٠ ألف جنيه عدا الأطيان والعقارات التي تبلغ أضعاف هذا المبلغ،وقد أنفق كل هذه الأموال على الثورة العرابية وأنتهي به الأمر فقيرا منفيا ، كان الأفغاني قادرا على حشد كل القوى الشريفة والموالية للإسلام وكان قادرا حتى على الاستفادة من الإصلاحيين مثل الشيخ محمد عبده فقد استفاد الأفغاني بقلمه وعقله وعلمه ووضع كل ذلك في خدمة قضية الإسلام والثورة، ليس هذا فحسب بل أن الأفغاني أستطاع أن يقدم صيغة عظيمة لحشد كل من ينتمي إلى الحضارة الإسلامية في مواجهة التحدي الحضاري الأوروبي، حتى ولو لم يكن مسلما، ولم يكن عجيبا أن نجد في معسكر الثورة الإسلامية الكثير من الأقباط المصريين والمسيحيين الشوام أو غيرهم وحتى بعض اليهود مثل يعقوب صنوع، ولا شك أن قدرة الأفغاني على تقديم صيغة نضال إسلامي تحشد كل من ينتمي إلى الحضارة الإسلامية يعد عملا عظيما ورائعا يحتاج إلى الدراسة والاستفادة منه ، نعم لقد كان الأفغاني ثائرا إسلاميا فذا، وكان إجابة صحيحة وعلمية على التحديات التي يواجهها المسلمون في عصره، واستطاع أن يحدد الداء والدواء وأن يفرز القوى في معسكر الإسلام والقوى التي تقف في معسكر الأعداء، واستطاع أن يحشد تلك القوى بل ويضم إليها كل من ينتمي إلى الحضارة الإسلامية من غير المسلمين.

وبسبب هذا كان الأفغاني موضع احترام كافة المؤرخين من مختلف المدارس والاتجاهات السياسية اللهم ألا لويس عوض ربيب الاستعمار الصليبي ولعل موقف لويس عوض هذا يؤكد عظمة الأفغاني، يقول رفعت السعيد مثلا "وإذا كان بإمكان فرد واحدا أن يصبح عنصرا فعالا في حياة أمه، فإن هذا الفرد هو الأفغاني، فقد كان شخصية ثائرة مفكرة شجاعة واعية، واستطاع أن يعبئ كل القوى الساخطة خلفه" (٧).

ويقول الرافعي: "إن الأمم الشرقية جمعاء مدينة بنهضتها السياسية والفكرية إلى الزعيم الكبير والفيلسوف الشهير السيد جمال الدين الأفغاني" (٨).

ويقولَ أيضًا "إن الأفغاني أدي المهمة التي قام بها في أوروبا فلاسفة الفكر أمثال جان جاك روسو ومونتسكيو وغيرهما، فعمل على إنارة البصائر وتوجيه الأفكار إلى البحث عن الحقائق وتحرير العقول من قيود الجمود والتقليد " (٩)، "وأنه من الوجهة السياسية استنهض الهمم وأستثار في النفوس روح العزة والكرامة والتطلع إلى الحرية وغرس بذور الحركات الوطنية في مختلف البلاد الشرقية وقام بمثل العمل الذي قام به زعماء النهضات السياسية في الغرب كواشنطن وغاريبالدى ومازيني " (١٠)، "وأنه من الناحية الدينية أدي مهمة الإصلاح والتجديد التي أدي مثلها مارتن لوثر للمسيحية" (١١).

وبالطبع فإننا وإن كنا نقدر لكل من رفعت السعيد والرافعي بإشادتهما بالسيد جمال الدين، إلا أننا نؤكد أنه بالنسبة لأقوال الرافعي فإن الظرف الديني والسياسي والفكري والتاريخي الخاص بجمال الدين يختلف عن هؤلاء الذين شبه الرافعي جمال الدين بهم.

وبالنسبة لرفعت السعيد فإننا نختلف معه في إغفال الظروف الموضوعية التي جعلت الأفغاني يحقق كل هذا الأثر، فلو لم تكن هذه الظروف الموضوعية مواتية لما كان للأفغاني قد حقق كل هذا الأثر، وفي الحقيقة فإن علينا الآن أن نعطي التقييم الصحيح والموضوعي للسيد جمال الدين، فمما لاشك فيه أنه كان يتمتع بصفات شخصية فريدة من ذكاء وحماس، وقدره على الإقناع وسعة علمه، وقدرة على الحشد السياسي والجماهيري ونزاهة وتجرد للحق وغيرها من الصفات.

ومما لاشك فيه أنه قدم تحليلا شجاعا وافيا لأحوال المسلمين في تلك الفترة، ومما لا شك فيه أنه أستطاع أن يحشد كل القوى الإسلامية أو المنتمية إلى الحضارة الإسلامية في مواجهة المعسكر المعادي للإسلام، ولكن مما لا شك فيه أيضًا أن الأفغاني لم يخترع كل هذا ولم يأت به من فراغ، ولكنه كان حلقة من حلقات الكفاح الإسلامي الطويل والممتد في الزمان والمكان، وأنه في عصر الأفغاني وبالتحديد في مصر كانت هناك حركة عقلية واسعة في الأزهر، وكانت هناك حركة تعليمية يقوم بها علماء الأزهر الصغار والمتوسطين في الريف المصري والمدن بدليل أن عرابي يؤكد في مذكراته أن أكثر من نصف أهل قريته كانوا من المتعلمين وكانت هناك أيضًا نهضة أدبية وعلمية تعمل رغم أنف الاستبداد والاختراق الأوروبي، وعلينا أن نتأكد دائما أن كفاح أمة الإسلام لم ينقطع يوما مهما كانت الظروف، وأن هذه الأمة لم تمت، ولن تموت بإذن الله، وأن أحدا كائنا من كان لم يبعث هذه الأمة من الموات ولكن زعماء الإسلام الثوريين كانوا دائما ضميرا لهذه الحركة، ولم

يكونوا أبدا مخترعيها، وأن جمال الدين ومن بعده، ومن قبله لم يعملوا في أمة ميتة، بل كانوا مجرد تعبير عن حركة الكفاح الإسلامي، وأنهم أعطوا تلك الحركة من صفاتهم الشخصية ما جعلها تزداد اتقادا وتأججا.

ثقافة الجماهير وثقافة السلطة

والنموذج الأول يتمثل في عبد الله النديم، والنموذج الثاني يتمثل في رفاعة الطهطاوي، وبين النموذجين فرق كبير، هو الفرق بين الجماهير المسلمة وبين السلطة المستبدة الظالمة، الأول يعيش مجاهدا ويموت فقيرا والثاني مرتبط بالسلطة أشد الارتباط يبشر بأفكارها ويدافع عنها ويبرر لها ولا مانع أن يبحث في التراث عن نصوص تعطي الشرعية لهذه الأفكار والمواقف، أليس المطلوب هو تمريرها وإقناع الناس بها؟!

وهكذا نجد الطهطاوي ينشر الأفكار الاشتراكية ويسوغ ملكية الدولة لوسائل الإنتاج وينقل من التجارب الأوروبية كل ما يفيده في هذا الموضوع ويحاول أن يجد لها سندا شرعيا وذلك كله في ظل حكم محمد علي الذي احتكر الصناعة والتجارة وهيمن على كل وسائل الإنتاج، وتأتي مؤلفات الطهطاوي في ظل حكم محمد علي كنوع من التسويغ والتبرير والدعاية لممارسات الباشا محمد علي الاقتصادية، ويغفل بالطبع الحديث عن الحرية والدستور، وغيرها من المبادئ والأفكار التي تلائم حكْم محمد علي المستبد، وهو يبرر أيضًا الانفتاح على الغرب على طريقة محمد علي، فإذا ما ذهب محمد علي وجاء عباس، الذي حاول أن تقليص النفوذ الأجنبي تجد السلطة أنها ليست بحاجة إلى الطهطاوي، فيتم نقله إلى السودان، فإذا هو صامت لا

يقول شيئًا اللهم إلا إرسال الاستعطافات؛ حتى ترضى السلطة عنه، ويعود إلى مصر؛ فإذا ذهب عباس وجاء سعيد وإسماعيل وكان الوقت وقت الحديث عن الليبرالية الاقتصادية والسياسية والانفتاح الثقافي على الغرب كان الطهطاوي جاهزا للحديث عن الدستور والحرية في المجتمع الأوروبي، وهو الأمر الذي يتفق مع ما يريده الخديوي إسماعيل، ولم يعد هناك حاجة إلى الحـــديث عـــن ملكية الدولة لوسائل الإنتاج، وبالتالي لم يتحدث الطهطـــاوي عـــن الأفكـــار الاشتراكية في أوروبا في عصر إسماعيل؛ لأن السلطة لا تحتاج إلى ذلـــك، وهكذا كان فكر وثقافة الطهطاوي في خدمة السلطة وحسب هواها، وبـــالطبع كان الطهطاوي يحصل في مقابل ذلك على الإنعامات، بحيث أنه مات، وقـــد ترك إرثا ماليا كبيرا يتمثل في ٢٥٠٠ فدان غير العمائر والمباني، وقد حصل عليها كالتالي: ٢٥٠فدان من إنعامات محمد علي ٢٠٠ من إنعامات الخديوي سعيد و ٢٥٠ فدانا من إنعامات الخديوي إسماعيل ويشتري بالإضافة إلى ذلك ٩٠٠ فدان وهو المنحدر من أسرة فقيرة ولم يكن يملك شيئًا قبل التحاقه بقطار السلطة وعمله لديها وتطويع ثقافته من اجل تبرير سياستها، وبالطبع فإن أفكار الطهطاوي المتناقضة لم تكن تجد أي صدى لدى الجماهير، ولـــم تشـــكل أي شكل من أشكال التأثير على الجماهير في ذلك العصر أو فيما بعده، فالجماهير المسلمة في مصر كانت ترفض ثقافة السلطة التي ترفع راية الاشتراكية عندما تريد احتكار الثروة مثل محمد علي أو الليبرالية الاقتصادية والسياســـية فـــي عصر إسماعيل أو زرع فكرة القومية المصرية والإشادة بمجـــد المصـــريين القدماء "الفراعنة" عندما يكون هناك صراع مع الخليفة العثماني ســـواء فـــي

عهد محمد علي أو في عهد إسماعيل حول زيادة السلطة المتاحة للباشا أو للخديوي في مصر وزيادة هامش الاستقلال القانوني والفعلي للسلطة في مصر عن الدولة العثمانية، وكان الطهطاوي جاهزا في كل مرة ليدافع عن الاحتكار ثم ليدافع عن نقيضه "الليبرالية السياسية والاقتصادية" أو للإشادة بمجد المصريين القدماء وزرع فكرة القومية المصرية، ومن العجيب أن ينبري بعض دعاة اليمين واليسار للإشادة بالطهطاوي واعتباره رائدا للاشتراكية أو رائدا لليبرالية أو رائدا للقومية المصرية، فهل يصح أن يكون رائدا لكل المتناقضات! وهل يصح أن تصبح الثقافة المرتبطة بالسلطة المستبدة هي جذورنا الثقافية!، وهي التي لم تتعد أسوار القصور ودوائر الحكومة !!

أما عبد الله النديم فلم يستغل مواهبه من أجل جمع المال أو شراء الأراضي، بل قدم هذه المواهب الفذة لخدمة قضايا الجماهير كان النديم يتمتع بذكاء متقد، وقدرة فائقة على الخطابة وقلما ناريا، وقدرة فذة على الكتابة والتأليف القصصي والمسرحي، وأنشأ العديد من الصحف وجاب مصر قرية قرية ومدينة مدينة ليخطب في الناس ويقدم للجماهير الوعي ويستجيب لثورتها ويتبنى مطالبها المشروعة في العدل والحرية، وهكذا ظلت ثقافة النديم هي السائدة وماتت ثقافة الطهطاوي؛ لأن ثقافة الجماهير في مواجهة القصر والسلطة، والنفوذ الأجنبي، ولأن ثقافة النديم كانت ثقافة مستمدة من وجدان الجماهير وتعتمد على الحس الإسلامي للجماهير ولم يقل يوما شيئا ثم يقول في الغد عكس هذا الشيء مبررا هذا وذاك كما لو كان بهلوانا كما فعل الطهطاوي، كان النديم إذن هو ضمير الشعب وهو الوعاء الذي أحتوي على

ثقافة الشعب ووجـ كان النديم بلا أدنى مبالغة هو الزعيم الحقيقي للثـورة العرابية، وكان قادر ـما على حشد الجماهير وتعبئتهـا وكانـت اسـتجابة الجماهير له رائعة دائما بعكس الطهطاوي الذي لم يعرف الجماهير ولم تعرفه الجماهير كان النديم هو النموذج الفذ لمدرسة الأفغاني وامتدادا عضويا لتلـك المدرسة ، واستطاع أن يكون الجسر الذي تنتقل من خلاله تلك الأفكار إلـى حركة الكفاح الشعبي في حلقة أخرى من حلقات الكفاح الشعبي فـي مصـر وهي تجربة الحزب الوطني مصطفى كامل، ومحمد فريد، وعبـد العزيـز جاويش ولم يكن عجيبا ولا غريبا أن تقوم الجماهير بإخفاء وحماية النديم أثناء هروبه من مطاردة السلطة لأكثر من تسع سنوات برغم المكافأة الضخمة جدًّا التي رصدتها الحكومة لمن يقدم أي معلومات أو يرشد عن النديم، وكان هـذا موقفا يؤكد عظمة الشعب ويؤكد أن الجماهير تتفانى في حماية من يعمل من أجلها، نعم كان النديم هو تلك الأسطورة و تلك الملحمة من النضال الشـعبي في مصر، وهو الذي حمل جذور الثورة بعيدا عن عين السلطة، ورعاها حتى لا تنطفئ بعد هزيمة الثورة ودخول جيوش الاحتلال إلى مصر إلى أن سلمها للجيل التالي.. جيل مصطفى كامل ومحمد فريـد وعبـد العزيـز جـاويش، واستمرت ثقافة النديم من خلال الحركـات الجماهيريـة، وانطفـأت ثقافـة الطهطاوي، وظلت قاصرة على مثقفي السلطة المسـتبدة ومثقفـي القصـور والدوائر الحكومية والمدارس الفكرية التي تعمل لخدمة الاستعمار بـوعي أو بدون وعـي؛ ولأن ثقافة النديم كانت ثقافة الجماهير فإنها كانت تنطلق مـن الإسلام شكلا ومضمونا.

يقول صابونجي في رسالة إلى بلنت في ٢٧ يوليو سنة ١٨٨٢:" إن النديم يتحصن في مناقشاته دائما بالدعوى الدينية حتى لتشعر أنه أشد غيرة على الدين من شيخ الإسلام نفسه" (١٢) .

والنديم لا يفتأ يكرر قول أستاذه جمال الدين " أن الإنسانية الفاضلة وأن الصراط المستقيم للسعادة لا يتحققان بغير ""القرآن الكريم"" ولأن النديم يعرف أن جماهير الإسلام الحقيقية هم الفقراء الذين لم تفسدهم السلطة ولا الثروة تراه يقول " لم أجد طريقا إلا بعصبية أكونها من الفقراء .(١٣)

والنديم هنا لم يكن إلا مستوعبا وفاهما للإسلام الصحيح فالله -تعالى- يقول في كتابه الكريم في سورة هود ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾(سورة هود :٢٧)

وهذه الآية توضح أن قوم نوح عليه السلام قالوا له: إنه لا يتبعه إلا الأراذل أي الفقراء والمستضعفين، وهي أيضًا توضح أن الفقراء والمستضعفين هم جماهير الإسلام الصلبة التي لا تسقط في منتصف الطريق بل تقاتل حتى النهاية،وقد كان النديم هنا يستند في تحليله إلى التراث الإسلامي، ويعرف أن الفقراء هم جماهير الثورة الحقيقية وبالفعل ثبت فيما بعد صحة تحليل النديم فلم يقف خلف الثورة العرابية حتى النهاية إلا الفقراء والمستضعفين، وإن كان هذا لم يمنع من صمود عدد من الأغنياء مع الثورة إلا أنهم انفقوا أموالهم على الثورة وخرجوا منها فقراء مثل السيد حسن موسي العقاد كبير تجار القاهرة في حين أن معظم الأغنياء والوجهاء ترددوا أو

خانوا الثورة في مراحل مختلفة والنديم يهاجم حياة البذخ قـائلا " أن الـذين ينعمون بثياب العز ويتمتعون بأسباب المتعة وينعمون بالمراقص والغانيـات والمغنيات وينفقون الأموال عن اليمين والشمال، وما هي في الحقيقة إلا أموال الفلاحين الفقراء الذين هم أساس النعمة والإنتاج يحققونها بعـرقهم ودمـائهم ليأخذها الأغنياء ويبعثرونها على ملاذهم ومتاعهم".

والنديم هنا ينطق من التراث الإسلامي فنفس المعنى قاله الأمام علي – رضي الله عنه– ما متع غني إلا بما حرم منه فقير " وقوله أيضًا:" ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع " ويمضي النديم في الـدفاع عـن الفلاح واصفا حاله البائس فطعامه من السن ولباسه الثوب المهلـل، بـل أن النديم يصل إلى قمة الوعي عندما يطالب أن يكون البرلمان ممثلا للأغنيـاء والفقراء وليس الأغنياء وحدهم ويطالب بتغير نظام الانتخاب لتحقيـق ذلـك والنديم يعرف أن الثروة إحدى الوسائل إلى الاستبداد والاستعباد اللهم إلا إذا أنفقت في خدمة الشعب فهاهو يقول "إن ابن الغني مولع بالاستعباد فهو يميل إلى استخدام الفقراء بلا مقابل وضرب الضعفاء من غيـر أن يعـارض أو يحاكم وهذا بعينه هو الاستبداد المضر بالشعب " (١٥).

والنديم يؤكد على ضرورة الحرية مع العدل قائلا " نعـم أن الحريـة لازمة للشعب، وهو يحتملها ويحفظها ويسير بها في طريق العـز، ولكـن بشرط عدم تسلط الطبقية على مجلس النواب بل تشكيله من جميع الطبقـات نبهاء ومثقفين أغنياء وفقراء وعلماء وعمال وأعيـان " (١٦) أي لا تقتصـر الحرية على الأغنياء والأعيان، والنديم أيضًا يهاجم النفوذ الأوروبي ويهاجم

المرابين الأوروبيين الذين انتشروا كالجرب في ريف مصر يمتصون عرق الفلاحين عن طريق إقراضهم بالربا، كما يهاجم هؤلاء الذين راحوا يقلدون السلوك الأوروبي والأخلاق الأوروبية والتفكير الأوروبي، وكل ذلك في صورة هزلية ساخرة أو بطريقة هجومية ناقده عن طريق المقال الصحفي، والخطب السياسية، والمسرحية والزجل والشعر وغيرها، وقد آلف النديم العديد من التمثيليات والمسرحيات في هذا الصدد مثل (الوطن وطالع التوفيق)،(العرب) كما أصدر أو شارك في إصدار أو تحرير العديد من الصحف مثل (التنكيت والتبكيت) (اللطائف) (الأستاذ)، وقد عبرت تلك الصحف والأعمال الفنية التي قدمها النديم عن مفاهيم النديم الإسلامية وثقافته الجماهيرية، وأستخدمها في توعية الشعب وتحريضه على الثورة والدفاع عن المستضعفين، وهكذا لم يكن غريبا أن تكون استجابة الجماهير للنديم قوية جدًّا لدرجة أنه كان وراء حشد تلك الجماهير في التوقيع على العرائض، أو مساندة الجيش في مظاهره ٩ سبتمبر(١٨٨١)، أو غيرها من المظاهرات وكذلك تقديم الدعم المادي والبشري للجيش في نضاله مع الإنجليز، وإذا كان النديم ينطلق في فهمه للعلاقات الاجتماعية وتحليلها واتخاذ موقف منها من التراث الإسلامي، فانه أيضًا كان يستند إلى فهم الأفغاني أيضًا للتراث الإسلامي في هذا الصدد، أليس الأفغاني هو القائل " إن العدالة الاجتماعية لابد أن تسود العالم يومًا ما؛ لأن جميع الناس من طين واحد وأن التفاضل أنما يكون بالأنفع في السعي للمجموع " وهو أيضًا القائل " إن العدالة الاجتماعية ملتحمة في الدين الإسلامي ملتصقة في خلق أهله "

" وإن أول من عمل بها هم الرسول – صلى الله عليه وسلم– ثم أكابر الصحابة رضوان الله عليهم جميعا " وهو القائل أيضًا" لولا الزرع ولولا الضرع لما كان سرف الأغنياء ولا ترف الأمراء".

وهو هنا يتفق مع النديم في نفس الرؤية، التي هي ذاتها مستمدة من قول الإمام على – رضي الله عنه–، والأفغاني أيضًا يقول " إن الفناء يكون في خلق الله وليس في الله كما يقول الصوفية " وذلك في معرض اعتراضه على الخرافات التي يروجها بعض أدعياء التصوف، والأفغاني هنا يدعو إلى دور اجتماعي واضح لكل مسلم عن طريق خدمة ومساعدة خلق الله والعطف عليهم والعمل من أجلهم، والمفاهيم التي عبر عنها الأفغاني والنديم حول العدل والحرية مستمدة – كما قلنا من الإسلام، وهي وإن اتفقت في بعض فروعها مع بعض المذاهب اليسارية فإن ذلك من قبيل تشابه لون العيون في شخصين مختلفين تماما، وليس هناك شك في أن الإسلام نظام متكامل ومختلف في الأحوال والقواعد والأسلوب عن أي مذهب اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي ظهر أو سيظهر فيما بعد حتى ولو تشابهت بعض الجزيئات، وقد يحلو للبعض قطع الأفغاني والنديم عن جذورهما وعن مناخهما الطبيعي وهو الإسلام ويدعي هذا البعض أن كل منهما أو أحدهما كان اشتراكيا أو يساريا أو ماركسيا أو غيرها من المصطلحات!!.

وهذا طبعا أمر لا يستحق عناء الرد عليه، فالأفغاني والنديم كانا ينطلقان من الإسلام جملة وتفصيلا، وإذا كان الإسلام كما فهمه كل منهما ينحاز هذا الانحياز إلى العدالة الاجتماعية ويدافع هذا الدفاع عن المستضعفين

فمن المفروض أن يتبني كل المنادين بحقوق الفقراء والمستضعفين النهج الإسلامي في هذا الصدد ولا يعادونه إن كانت دعوتهم حقا من أجل الفقراء، خاصة، وقد انهارت الشيوعية في بلادها ولم يبق هناك أمل في إنقاذ المستضعفين في العالم إلا باستلهام روح الإسلام والعمل وفق مبادئه وأساليبه وعلى كل حال فإسلامية الأفغاني والنديم أكبر من أن ينكرها أحد فهاهو رفعت السعيد يعترف بذلك صراحة بقوله " بأن كل من الأفغاني والنديم كانا زعيمين إسلاميين، في تفكيرهما وفي أساليبهما وفي جماهيرهما " (١٧).

الأسد يبدأ في قطع الشباك

حاولت أوروبا المتربصة بأمة الإسلام، احتلال مصر مرتين، مرة في سنة ١٧٩٨ (المحاولة الفرنسية) ومرة في ١٨٠٧ " المحاولة الإنجليزية " وفي المرتين فشلت أوروبا الصليبية؛ لأن الجماهير المسلمة كانت مطلقة السراح، فقاومت ودافعت عن مصر وهزمت المحاولتين الأوروبيتين في أقل من عشر أعوام، وأدركت أوروبا أنه طالما ظل الأسد طليقا فلا فائدة، كان لابد من غزل الشباك الكثيفة حول ذلك الأسد،حتى يمكن السيطرة علي مصر ،وبدأت أوروبا تغزل شباكها حول الأسد، أغرت محمد علي بالصدام مع السلطان العثماني لإضعاف قوة الطرفين، وأغرته بنظام الاحتكار، لضرب إمكانيات نشأة صناعة مصرية مستقلة تستند إلى الجماهير؛ ومن أجل ذلك سمحت له بإنشاء الصناعات حتى إذا ما اطمأنت إلى أن الصناعة المصرية المرتبطة بالشعب قد تم القضاء عليها، جاءت هي وقضت علي

صناعة محمد علي المرتبطة بنظامه عن طريق تصفية هذا النظام، وأجبرت محمد علي، على فتح أسواق مصر أمامها، وأصبحت مصر عمليا بلا صناعة فالصناعة المرتبطة بالشعب قد ماتت بفعل نظام الاحتكار، والصناعة المرتبطة بالنظام تم تصفيتها عن طريق تصفية النظام ذاته، وأصبحت السوق المصرية مفتوحة على مصراعيها أمام الصناعة الأوروبية، وأكملت أوروبا الحلقات والشباك حول الأسد فمن ناحية كان محمد علي قد ضرب أهم مؤسسة شعبية قادرة على قيادة الجماهير في مقاومة الاستعمار وهي الأزهر، وضرب أيضًا زعماء الشعب مثل السيد عمر مكرم وأفسد البعض الآخر بالرشوة والوظائف، ومن ناحية أخرى جاءت موجات الغزو السياسي والاقتصادي الأوروبي الصليبي لمصر متمثلا في إرساليات التبشير، ومتمثلا في البنوك، ومتمثلا في آلاف المرابين الذين دخلوا إلى كل مكان حتى الريف المصري، ومتمثلا في دعم تكوين أرستقراطية زراعية تستند إلى القصر وتعادي الشعب، متمثلا في إغراق الخديوي إسماعيل بالديون التي انتهت إلى التدخل المباشر عن طريق فرض الرقابة الثنائية أو وجود وزيرين أوروبيين لمراقبة مالية مصر، كانت أسرة محمد علي تمتلك وحدها قرابة المليون فدان، فإذا أضفنا إليها ممتلكات الأجانب وبعض المرتبطين بالخديوي وصلت الملكية إلى أكثر من ٢,٢ مليون فدان أي حوالي ٤٤% من مساحة الأرض الزراعية في مصر؛ أي أن هناك أرستقراطية زراعية تتشكل من أفراد الأسرة الخديوية وعدد من الأجانب وبعض المرتبطين بهذه الأسرة وتمتلك تلك الأرستقراطية – التي لا تمثل سوى ١,٣ من الملاك – أكثر من ٤٤%

من الأراضي الزراعية، بينما يمتلك ٨٣,٣ % من الملاك ٢١,٧% من الأراضي " ٧٦٠ ألف مالك يملكون ١,١ مليون فدان بينما ١١٩٠٠ مالك يملكون ٢,٢٤ مليون فدان "[١٨]، وهؤلاء الملاك الكبار يرتبطون عضويا وفكريا بالمصالح الاستعمارية ويزداد جشعهم للأرض بصورة متزايدة بتشجيع من الاستعمار الذي يريد تحويل مصر إلى مزرعة للقطن والمواد الخام لسد حاجات مصانعه، وكانت هذه الأرستقراطية الزراعية عبئا على مصر حتى عندما أرتفع سعر القطن إبان الحرب الأمريكية ١٨٦٠ ــ ١٨٦٩ كان على الفقراء أن يدفعوا ثمن التضخم وثمن ارتفاع أسعار المحاصيل الغذائية التي لم تعد هناك رغبة في زراعتها بسبب ارتفاع أسعار القطن، أي أن ارتفاع أسعار القطن ملأ جيوب الخديوي والأجانب والأرستقراطية الزراعية عموما بالمال وتسبب في شقاء الفقراء في نفس الوقت.

يقول دافيد؛ لاندز:" إن مصر التي كانت دائما مصدرا للبقول والحبوب أصبحت في وضع يحتم عليها استيراد الأغذية من الخارج، وارتفعت الأسعار بسرعة فأصبح ثمن القمح ثلاثة أو أربعة أمثال ،وتضاعف ثمن الزيت والخضراوات ثلاثة مرات، وارتفعت أسعار البقول وخاصة الفول بنسبة ٤٠٠% وارتفعت أسعار لحم الضأن، وهو الغذاء الثابت للمسلمين من ٤ بنس إلى شلن في الرطل، وكان الذين أثروا بسبب رواج القطن سببا في ارتفاع الأسعار بإفراطهم في الكماليات) [١٩].

وكان بالطبع يتم إنشاء مشروعات الري والصرف واستصلاح الأراضي وشق الترع وإقامة الطرق وخطوط السكك الحديدية لخدمة هذا

الشكل الإنتاجي الذي يحقق عائدا للأرستقراطية الزراعية، ويحقق مصـــلحة القوى الاستعمارية في نفس الوقت، وكانت الشركات الزراعيـــة والتجاريـــة التي تكونت لإدارة الاقتصاد المصري عموما يشكل الأجانب في رأس مالها حوالي ٩٦ % والباقي موزع بين الخديوي وحاشيته وأفراد أســـرته)، [٢٠] وكان عدد الموظفين الأجانب يتزايد باستمرار وخاصة في الوظائف الكبرى بحيث يقتطعون أكبر جزء ممكن المرتبات الأميرية، كما تزايد عدد الأجانب العاملين في الشركات والبنوك الأجنبية التي غطت مصر كلها حتى أصـــغر قرية، وإذا كان عدد الأجانب لم يتجاوز مائه أجنبي عندما جاء بونابرت إلى مصر سنة ١٧٩٨، وكانوا يعاملون معاملة قاسية ويعيشون في أحياء مغلقة، ولا يخرجون من حارتهم إلا في ملابس خاصة مميزة، فأن هذا العدد أخـــذ يتزايد بحيث أنه دخل البلاد في الفترة من ١٨٥٧ ــ ١٨٦١ أكثر من ١٢٠ ألف أجنبي بمعدل ٣٠ ألف كل عام وكلهم من حثالات أوروبا والمغـــامرين والأفاقين [٢١]، وبالطبع استمر العدد يتزايد ووصل إلى أرقام كبيرة جدًّا فـــي عصر إسماعيل بحكم زيادة النفوذ الأجنبي وزيادة حجم النهب الاقتصـــادي لمصر في ذلك الوقت وعلى الجانب الآخر كانت هناك خطة متعمدة لإفلاس التجارة والصناعة المصرية عن طريق فرض الضـــرائب المتزايـــدة علـــى التجار والصناع والحرفيين وصغار الفلاحين، فعلى ســـبيل المثـــال هنـــاك ضرائب على عربات الكارو، وعلى الحمير والخيل والجمال وكـــل وســـائل النقل، ويقول روزنشتين :" أن الأجانب رغما عن أعمالهم المالية والتجارية الواسعة أعفوا من الضرائب في حين أن التجار المصريين كانوا يدفعون في

العام الواحد ٤٣٠ ألف جنية [٢٢] أي أن المسائلة برمتها تتمثل في صياغة الاقتصاد المصري بصورة تجعله تابعا للنفوذ الأجنبي وبصورة تجعل نهبه عملية مستمرة، فكل الأعمال الصناعية والتجارية في يد الأجانب ومعظم الأراضي الزراعية في يد الأسرة الحاكمة أو حاشيتها أو مع الأجانب، وفي نفس الوقت يسمح بزيادة الرقعة الزراعية لزيادة أنتاج الخامات وخاصة القطن، كما يسمح ببناء مرافق وطرق لخدمة هذا النهب المنظم، وبالطبع هناك عمليات خنق مستمرة لأي شكل من أشكال الصناعة والتجارة أو الزراعة التي يمتلكها المصريون أو المسلمون، وبديهي أن هذه هي الخطة والوسيلة التقليدية للاستعمار لمنع أي نمو اقتصادي في مصر أو غيرها ولتظل دائما تحت هيمنة النفوذ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للقوى الاستعمارية، ولكن كان هناك أيضًا حركة تحت السطح، ترصد هذا كله وتحلله وتعمل من أجل الإطاحة به، كان هناك الأزهر يعمل رغم الضربات المتلاحقة يعمل لتأكيد هوية الأمة وذاتيتها ويعمل من أجل نشر العلوم الدينية والطبيعية ويعمل في قاع الريف والمدن لنشر التعليم والقراءة والكتابة وكان هناك زعماء ثوريون كالأفغاني والنديم يستجيبون للمد الشعبي المتصاعد ويحاولون حشد قوى الجماهير وتعبئتها تمهيدا للمعركة مع هذا الوضع الجائر، وكانت الحركة تتصاعد جماهيريا وتنظيميا عن طريق الصحافة والنضال البرلماني وعن طريق الخطب وعن طريق الندوات والدروس وعن طريق تكوين وتشكيل الجمعيات والمنظمات السرية المختلفة، وكانت تلك الحركة أيضًا تعرف عدوها وتعرف قوته، وقد حددت مطالبها في إزاحة

النفوذ الأجنبي وحكم محمد علي ونشر العلوم والصناعة، وكان معنى هذا أن هناك نارا عملاقة تحت الرماد وأن الأسد المحبوس خلف الشباك بدأ يقطع هذه الشباك وكانت تلك الحركة تستفيد من وجود عدد كبير من المتعلمين في الداخل وعن طريق البعثات وهم الذين كانوا قد سمح لهم بالتعليم لدعم الجهاز الإداري للنظام، ولكنهم وضعوا خبراتهم في معسكر الجماهير وكانت تلك الخبرات كافية لإقامة نهضة صناعية وعلمية خاصة وأن عدد كبير من التجار الأثرياء مثل السيد حسن موسي العقاد كانوا منحازين لحركة الشعب، بل وأنفقوا كل أموالهم عليها، وكان حسن العقاد من كبار المعارضين في البرلمان ضد الخديوي إسماعيل كما كان معارضا للنفوذ الأجنبي وكان أحد تلاميذ الأفغاني المخلصين وظل مخلصا للثورة حتى النهاية، وقد تمت محاكمته مع زعماء الثورة العرابية ونفي إلى السودان لمدة عشرين عامًا، وكان الاستعمار والقوى المرتبطة به تعرف وتحس بهذا كله، وقد بدأت ترتجف من إمكانية حدوث هذا؛ لأن معناه ببساطة أن هناك شعب ثائر وزعماء أكفاء ومتعلمين في كافة التخصصات وتجار أثرياء، والمحصلة الإطاحة بالأسرة الحاكمة وبالنفوذ الأجنبي والاستفادة من وجود بنية أساسية أقامها القصر و الاستعمار خدمة لمصالحه، ويمكن أن تكون هي ذاتها قاعدة صالحه لبناء نهضة اقتصادية وعلمية.

أي ظهور مصر كقوة إسلامية كبري، ربما تكون نواه لخلافة إسلامية شابه أو تكون تدعيما للخلافة التي بدأت في الانهيار أو في أقل الأحوال تكون قاعدة للنضال الإسلامي في شمال أفريقيا بحيث يصبح من المستحيل

على الاستعمار المتربص أن يظل في المنطقة، لكل هـذه الأسـباب كـان الاستعمار يشعر بالرعب وكان مستعدا لعمل كل شيء للقضاء علـى تلـك النهضة التي بدأت تظهر من تحت التراب، وكانت هناك حادثة هامـة وذات دلالة جعلت الاستعمار يسارع بالتدخل المباشر والسافر كانت تلك الحادثـة هي (حادثة ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩)، وهي حادثـة هامـة بـرغم مـرور المؤرخين عليها سريعا، حيث أنها كانت سببا رئيسيا في لفت نظـر قـوى الاستعمار المتربص إلى قوة حركة الجماهير في مصر وخطرها على ذلـك الاستعمار المتربص وبالتالي بدأ الاستعمار في أتحاذ تدابير سافرة وعنيفة في محاولة للقضاء على حركة الجماهير قبل أن تصبح خطرا ، وتتلخص تلـك الحادثة أن عددا من الضباط (حوالي ٦٠٠) ومعهم عدد آخر مـن طلبـة المدرسة الحربية ونحو ألفي جندي قد غادروا ثكناتهم العسكرية وتجمهـروا أمام المباني الحكومية وساروا في مظاهرة وعندما وصلوا إلى مقربـة مـن وزارة المالية لمحوا نوبار باشا رئيس الوزراء خارجا منها فأحـاطوا بـه، وانهالوا عليه ضربا ثم انهالوا ضربا على الوزير الأوروبي ريفرز ولسون ، وقاموا بالقبض عليهما(أي نوبار وويلسـن) و احتجزوهمـا فـي سـراي الوزارة، كما قام المتظـاهرون بـاحتلال الـوزارة واحتجـاز المـوظفين الأوروبيين، واستمرت الحال على هذا الأمر إلى أن تدخل الخديوي إسماعيل بنفسه بناء على طلب القناصل ووصل الخديوي إلى مكان المظاهرة وحاول فضها بنفسه ألا أنه حدث هرج ومرج وأطلقت بعض الرصاصات وجـرح التشريفاتي الخديوي وفي النهاية أستطاع الخديوي أن يصرف المظاهرة بعد

أن وعد بدفع الرواتب المتأخرة إذا فلم تعد المسألة مجرد خطب ومقالات ونضال برلماني بل وصلت إلى حد التمرد وفي الجيش ذاته الذي من المفروض أنه جهاز قمع السلطة الحاكمة، ووصل التمرد إلى حد احتجاز رئيس الوزارة الأوروبي، والهياج أمام الخديوي ذاته وعدم طاعة وعوده بسهولة — وكل هذا كان يعني أن الأسد بدأ في قطع الشباك، وإذا كانت الأمور قد هدأت هذه المرة فمن يضمن المرات القادمة.

وإذا كان السبب المباشر للتمرد هو تأخر الرواتب فهذا ليس إلا جزءا من الموضوع والحقيقة أن الرواتب كثيرا ما كانت تتأخر ولم يحدث شيء، وإذا حدث فانه يكون بوسائل أخرى وعبر قنوات أخرى أما أن يصل التذمر الشعبي والوعي الشعبي إلى هذا الحد أي حد اعتقال رئيس الوزراء والوزير الأوروبي والاعتداء على تشريفاتي الخديوي فإن الأمر يبدو خطيرا وبالفعل تحركت قوى الاستعمار بسرعة لامتصاص المد الشعبي ومحاولة تطويقه، فتم عزل الخديوي إسماعيل بضغوط أوروبية مباشرة على السلطان العثماني.

وتم تعيين الخديوي توفيق مكانه وذلك كمحاولة لتقديم كبش فداء، وتنفيس الضغط الشعبي وذلك بعد المظاهرة بأقل من أربعة أشهر وبالتحديد في ٢٦ يونيو ١٩٧٩، كما تم نفي السيد جمال الدين الأفغاني باعتباره فيلسوف الثورة وزعيمها في ٢٤ أغسطس سنة ١٩٧٩، أي بعد أقل من شهرين من تنصيب الخديوي توفيق، ودلالة التواريخ والزمن هنا لا تخطئ، أليس حدوث المظاهرة وعزل إسماعيل ونفي السيد جمال الدين ثم في أقل من ستة أشهر، أليست هذه دلالة واضحة على الرعب الذي أصاب أوروبا

من انطلاق حركة جماهيرية إسلامية في مصر لدرجة أن تخلع أوروبا قفازها الحريري وتعمل مباشرة على خلع خديوي وتنصيب آخر، يكون أول ما يفعله نفي زعيم الثورة ليس هذا فحسب بل أن الخديوي توفيق كان يعرف أنه جاء إلي الحكم لمهمة محددة هي إعادة الأسد إلى الشباك والقضاء على الثورة المرتقبة والالتفاف عليها، وأن أباه الخديوي إسماعيل قد فقد عرشه عندما أصبح غير قادر على أداء المهمة التقليدية له وهي ضرب الثورة الإسلامية وتطويق حركة الجماهير وبالتالي جاءت قرارات توفيق السريعة التي حاول فيها أن يقلل من هامش الحرية المتاح وأن يلغى مجلس النظار، وأن يعطل مجلس النواب، وأن يقلل من الحرية المتاحة للصحف، ولكن كانت قوى الثورة أكبر من ذلك كثيرا، وكان الأسد قد بدأ في الزئير وأنطلق من الشباك ولم يكن هناك بد أمام الاستعمار إلا التدخل بجيوشه وهكذا جاء الغزو الإنجليزي لمصر سنة ١٨٨٢ للقضاء على ثورة الشعب المسلم بعد أن فشل النظام الحاكم في ذلك.

الثورة العرابية

يخطئ من يظن أن الثورة العرابية كانت مجرد هوجة عسكرية أو مغامرة قام بها بعض العسكر، فلقد كانت الثورة العرابية هي ذروة الأحداث والشكل الأخير الذي تمخضت عنه حركة الجماهير المسلمة في مصر بفعل الكثير من العوامل التي سبق مناقشتها، أي أن الثورة كانت حلقة من حلقات الكفاح الشعبي الإسلامي في مصر الذي لم ينقطع يوما رغم كل الظروف ومختلف العوامل، كانت الثورة هي النتيجة الطبيعية لحركة الكفاح ضد

الخديوي إسماعيل ثم توفيق وضد النفوذ الأجنبي أساسًا، وإذا أدركنا أن النفوذ الأوروبي في مصر كان كبيرا لدرجة فرض الوزراء وخلع الخديوي وإحلال آخر مكانه، وأن الاقتصاد المصري كان يتعرض لعمليات تدمير متعددة على يد الأجانب وكذلك يتعرض لعملية نهب مستمر، وإذا أدركنا أن الأجانب كانوا قد سطوا على كل شيء في مصر اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وخاصة في نهاية حكم الخديوي توفيق، لأدركنا على الفور أن تلك الثورة كانت محاولة إسلامية صحيحة للتخلص من النفوذ الأجنبي، ولم تكن سببا في الاحتلال، بل إن الاحتلال كان قد وقع بالفعل قبل مدة وبالتحديد في نهاية السبعينات، وأن الغزو العسكري لمصر لم يكن إلا محاولة لتثبيت هذا الاحتلال وذاك النفوذ الأوروبي بقوة العسكرية الإنجليزية، بعد أن أصبح هذا النفوذ في موضع الخطر بفعل الثورة المتصاعدة.

ولعل هذا يوضح إلى أي مدى تكون جريمة من يقول:" إن الاحتلال الإنجليزي لمصر جاء بسبب أو نتيجة للثورة العرابية " بل الصحيح أن هذا الاحتلال كان قائما بالفعل وأن الثورة العرابية كانت محاولة إسلامية للتخلص منه، وكانت من القوة بحيث أن النظام الحاكم لم يعد قادرا على تطويعها فأصبح من الضروري استدعاء المدافع الإنجليزية لتذبح تلك الثورة التي بدأت مع الحلقات الأولى لدروس الأفغاني وانتهت عندما دخل الإنجليز القاهرة.

أحداث الثورة العرابية

كانت مظاهرة الضباط والجنود أمام وزارة المالية في ١٨ فبراير ١٨٧٩) وعملية احتجاز رئيس الوزراء والوزير الإنجليزي وغيرها من الأحداث التي تمت في ذلك اليوم " ١٨ فبراير ١٨٧٩ " ذات دلالة هامة وخطيرة كما سبق أن أوضحنا فالأسد بدأ يقطع الشباك، وكان من الطبيعي أن تتحرك القوى الاستعمارية لتطويق الثورة وإعادة الأسد إلى الشباك.

فقامت الدول الأوروبية بخلع إسماعيل؛ لأنه لم يصبح قادرا على كبح جماح حركة الجماهير من ناحية وتحقيق نوع من التنفيس لتلك الحركة من ناحية أخرى حيث أن إسماعيل كشخص كان موضع انتقاد وهجوم دائمين من زعماء حركة الجماهير كالأفغاني وغيره، بل كان هناك أحيانا تفكير في اغتياله، وكان من الطبيعي أيضًا أن تستمر القوى الاستعمارية في عملية تطويق الثورة ومحاولة إجهاضها، فقام الخديوي توفيق بعد أقل من شهر واحد من تنصيبه بنفي السيد جمال الدين الأفغاني، ليحرم الثورة من الأب الروحي، وحاول الخديوي توفيق أيضًا إلغاء مجلس الوزراء والإمساك بكل عناصر السلطة في يده فشكل بنفسه حكومة جعل الوزراء فيها مجرد سكرتارية له،أي أنه أراد أن يسقط مسئولية مجلس الوزراء أمام البرلمان، وكان من الطبيعي أيضًا أن تبحث القوى الاستعمارية بحماس عن عناصر الثورة وقواها داخل المجتمع المصري بهدف تصفيتها، وإذا كانت الثورة تتكون من كل جماهير الفلاحين والحرفين والتجار والموظفين بقيادة كل من الأفغاني والنديم، وإذا كانت تمتلك العديد من وسائل التحريض الجماهيري مثل الصحف، وإذا كانت

منتشرة في الأزهر والمدارس، فإن أخطر مواقعها كان المنظمة السرية التي شكلها وقادها عبد الله النديم وضم إليها العديد من العسكريين مثل علي الروبي وأحمد عرابي وعلي فهمي وعبد العال حلمي،وقد تأسست تلك المنظمة السرية عام ١٨٧٦، وكانت تسمي جمعية مصر الفتاة كما كانت جريدة (أبو نضارة) التي يحررها يعقوب صنوع هي لسان حال تلك المنظمة والمعبرة عن أهدافها .[٢٣]

ومن الطبيعي جدًّا أن تحاول القوى الاستعمارية البدء بتصفية هذه المنظمة؛ لأنها أول منظمة سرية؛ ولأنها أساسًا تضم مجموعة من العسكريين، وهكذا كانت المحاولة التي قام بها رياض باشا في أول فبراير (١٨٨١) فقد قام باستدعاء كل من عرابي وعبد العال حلمي وعلى فهمي وتم القبض عليهم بمبني وزارة الحربية وتقرر محاكمتهم في نفس اليوم (١ فبراير ١٨٨١) وعقدت لذلك محاكمة برئاسة الجنرال أستون، إلا أن الفرقة الأولى مشاة بقيادة البكباشي محمد عبيد اقتحمت مبني الوزارة وسيطرت عليه وأطلقت سراح الضباط الثلاثة ثم سار الجميع في مظاهرة إلى قصر الخديوي مطالبين بعزل وزير الحربية، وأضطر الخديوي إلى قبول طلباتهم؛ لأنه لم يكن يملك سوى الرضوخ وتمت إقالة وزير الحربية، ولم ينس الخديوي بالطبع أن ينبه العسكريين بعدم الاشتغال بالسياسة والتمسك بطاعة القوانين العسكرية و أهمها بالطبع الولاء للخديوي وتمت عملية ترقية للضباط الثلاثة إلى رتبة فريق بعد أن كانوا قبل قليل عرضة للمحاكمة والتأديب كما تم تعيين محمود سامي البارودي وزيرا للحربية.

وإذا حاولنا التأمل في تلك الأحداث نجد أن القوى المعادية للشعب والتي كانت تخطط لضرب الثورة قد قررت التخلص من أهم مراكز الثورة وأخطرها وهو القطاع العسكري فيها، فتم تدبير عملية محاكمة واعتقال لقادة العسكري للثورة وهم أحمد عرابي وعبد العال حلمي وعلى فهمي، إلا أن قوى الثورة كانت أقوى فاستطاع الضابط محمد عبيد أن يقود خلية ثورية أخرى وهي الفرقة الأولى مشاة وأن يطلق سراح الضباط الثلاثة، وأن يفسد التدبير الذي بيته أعداء الشعب، ونلاحظ هنا أن ترتيب محاكمة الضباط تم بين نوبار باشا رئيس الوزراء، ووزير الحربية، والضابط الإنجليزي أستون وكل هذا بموافقة ومباركة الخديوي توفيق، أي أن التدبير شارك فيه كل القوى الخائفة من الثورة وهي النفوذ الأوروبي ممثلا في أستون باشا، والخديوي ووزير حربيته ورئيس وزارته، أي القوى الحاكمة في مصر وقتها، وكانت هذه القوى تعرف أن الخلايا الثورية قد امتدت إلى الجيش وهذا يشكل في نظرهم خطر كبير وبالتالي قرروا تصفية هذا النفوذ عن طريق التخلص من العناصر الأساسية التي تقود الثورة في الجيش وهم كل من عرابي وعبد العال حلمي وعلى فهمي، ولكن الثورة كانت أقوى من ذلك ولم تكن عملية تصفيتها بهذه البساطة وأستطاع محمد عبيد أن يحرر الضباط المعتقلين، وأن تتطور العملية فيقوم الجناح الثوري العسكري بفرض مطالبه على الخديوي، وكان الخديوي يدرك قوة الثورة في القطاع المدني والعسكري معا، فحاول أن يعزل ويفصل هذين القطاعين حتى ينفرد بالقطاع المدني وتصرف بالطريقة التقليدية لكل المستبدين فاستجاب لكل المطالب الجزئية للعسكريين، وهي عزل وزير

الحربية وفتح باب الترقي أمام الضباط ليس هذا فحسب بل قام بترقية الضباط الثلاثة الذين كانوا بالأمس عرضه للتنكيل والمحاكمة وقام أيضًا باختيار وزير حربية يميل إلى هؤلاء الثوريين على أساس أن يكون قادرا على امتصاص غضبهم، وكل هذا بشرط واحد هو ألا يتدخل العسكر في السياسة وأن يطيعوا القوانين العسكرية وأهمها الولاء للخديوي، كما نبه الخديوي من ناحية أخرى على وزير الحربية الجديد (محمود سامي البارودي) بأن يتصرف بطريقة تقلص نفوذ قيادات الثورة داخل الجيش، وطالما كان من المعروف أن محمود سامي البارودي متعاطف معهم - في رأي الخديوي- وأقدر من يقوم بذلك الأمر استناد على ثقة هؤلاء الضباط فيه، والخديوي والذين خططوا له تصرفوا هنا بمنتهى الذكاء، ولكنه الذكاء التقليدي للمستبدين، وهو الاستفادة من العناصر المعتدلة شيئًا ما مثل البارودي في كبح جماح العناصر المتطرفة، ومحاولة كسب ود الجميع بالترقيات والاستجابة للمطالب الجزئية والمهنية لهم بهدف عزلهم من محيط الثورة العام، ولكن مرة أخرى كانت الثورة أكثر اتساعا وعمقا من أن يؤثر معها هذا الأسلوب، فمما لاشك فيه أن الخديوي الذي استجاب للمطالب، كان يخطط للإطاحة بالجميع والالتفاف حول تلك الحركة، بل وتصفيتها كأقسى ما تكون التصفية عندما تلوح الفرصة.

كانت قيادة الثورة تدرك هذا وتعرفه، وكانت من الوعي والذكاء بحيث أنها قامت بالرد الصحيح والمباشر على خطة أعداء الثورة، فإذا كانت المرونة التي أظهرها توفيق أو أضطر إليها كانت بهدف عزل القطاع العسكري للثورة عن محيطه العام، فليكن الرد هو المزيد من التلاحم بين

القطاع العسكري للثورة والشعب، فقام عبد الله النديم الزعيم الحقيقي للثورة أو قل الزعيم السياسي للثورة وعقلها المفكر بإقناع عرابي بأن يصبح ممثلا لكل الشعب وليس مجرد قائدا للقطاع العسكري في الثورة، وبهـذا نقطـع خـط الرجعة على الخديوي وأعداء الثورة ونحبط خططهم على حد قول النديم.

وقام النديم بطباعة منشور يطلب فيه من الشعب كله أن ينيب عرابي في المطالبة بحقوق الأمة والتحدث باسمها فيما يتعـلق بشئـون الـبلاد، وقـام النديم ورجاله بتوزيع المنشور في كافة أنحاء البلاد وأخـذ يجـوب القـرى والمدن داعيا الشعب لتوقيع هذا المنشور والترويج للمبادئ الثورية في العدل والحرية استنادا إلى الإسلام، وأستطاع النديم ورجاله أن يجمعوا توقيعات كل فئات الأمة على هذا المنشور، بل أن الجماهير ذاتها بـدأت تزحـف علـى القاهرة من كافة أرجاء مصر لمبايعة عرابي زعيما لها ومتحـدثا باسـمها، وكان عرابي يستقبل هذه الوفود في منزله الذي اكتظ بهـا فـي كـل الليـل والنهار.

ولما أحست القوى المعادية للثورة أن خطتها في التطويق قد فشلت كان من الطبيعي أن تحاول من جديد استخدام العصا بعد أن فشلت فـي اسـتخدام الجزرة، فقام الخديوي بإقالة البارودي من وزارة الحربية في ١٣ أغسـطس ١٨٨١، وتم تعيين داود يكن وزيرا للحربية وهو صهر الخديوي، فقام هـذا الوزير الجديد بفرض الرقابة على عناصر الثورة فـي الجـيش وملاحقتهـا بالجواسيس كما حاول تشتيت شمل تلك العناصر فأصدر أوامره بنقل الفرقـة الثالثة المشاة التي يقودها عرابي من القاهرة إلى الإسكندرية والآلاي السوداني

الذي يقوده عبد العال حلمي إلى السودان، وكان من الطبيعي أن ترفض قيادة الثورة ذلك الأمر الذي يستهدف تشتيت قوى الثورة تمهيدا لتصفيتها، ورفض عرابي وزملاؤه تلك الأوامر، وكانوا يستندون في ذلك الرفض على أن كـل الجيش وكل الشعب معهم، بل أن عرابي قال لوزير الحربية أنه، أي وزيـر الحربية لن يجد أي فرقة عسكرية تطيع أوامره، وكان عرابي محقا في ذلـك فقد كانت كل الفرق قد انحازت إلى الشعب والجيش بقيادة عرابي حتي تلـك الفرق المكلفة بحراسة الخديوي، ولم تكتف قيادة الثورة برفض تلك الأوامـر، بل قررت أن تبادر إلى العمل.

وهكذا قام عرابي في ٩ سبتمبر (١٨٨١) بمظاهرة عسكرية قوامها ٤ آلاف ضابط وجندي تصحبهم فرسانهم ومدفعياتهم، وفي نفس الوقت قام عبد الله النديم بحشد جماهير الشعب خلف الفرق العسكرية في ميـدان عابـدين، وهكذا كانت تلك المظاهرة، تعبيرا عن ثورة شعب بأكمله ضد أعداء الشعب، ولعل هذا يتضح أولا في المطالب التي تقدم بها عرابي وهـي عـزل وزارة رياض وتشكيل مجلس نواب حقيقي وزيادة عدد الجيش إلى ١٨ ألف جندي.

ويتضح ثانيا في رد عرابي على الخديوي عندما قال له الخديوي :(إن هذه المطالب ليست من اختصاص رجال الجيش) فكان رد عرابـي عليـه " لست أطلب ذلك بصفتي عسكريا بل بصفتي نائبا عن كل الأمة الواقفة خلفي " وفي الحقيقة فإن مجرد التأمل البسيط في تلك الأحداث وهذه المطالب يرى أن ثورة شعب بأكمله، وليست هوجة عسكرية أو مجرد تمرد عسكري من أجـل مطالب فئوية محدودة، فعرابي قد حدد موقعه باعتباره قائدا وزعيما لثورة أمة

بأسرها، والجيش إذا كان خلفه فهناك أيضًا جماهير الشعب قد احتشدت في ميدان عابدين،أي أن الجيش هو ذراع الأمة وليس ذراع الحاكم كما هو المعروف عادة،أي أن قادة الثورة أصروا على اصطحاب الجيش معهم حتى يفرضوا مطالبهم وهي مطالب الشعب وجيش الشعب، وإذا نظرنا إلى المطالب ذاتها نجدها مطالب ثورة شعبيه وجماهيرية وليست مطالب فئة من الضباط حول الترقيات أو غيرها فعزل الوزارة مثلا هو مطلب ثوري عام وكذلك إنشاء مجلس نواب، أما مطلب زيادة عدد الجيش إلى ١٨ ألف جندي فهو مطلب سياسي وجماهيري أيضًا، بل يؤكد أن المسألة كانت ثورة شاملة تدرك ما حولها وليست هوجة عسكرية فقيادة الثورة تعرف أن هناك نفوذا أجنبيا وهناك قوى أجنبية تتربص بمصر وبالتالي فتقوية الجيش أمر مطلوب لمواجهة تلك القوة المتربصة.

وعلى أي حال فمن الطبيعي أن مثقفي المدرسة الاستعمارية لا يكرهون شيئا أكثر من كراهيتهم للثورات الشعبية، ولابد دائما، أن يشوهونها ويلقون حولها الشكوك، وهذه مهمتهم التقليدية التي كلفهم بها الاستعمار، وبالطبع فهم لا يريدون أن تكون الثورة العرابية ثورة أمة وشعب يريد التخلص من النفوذ الاستعماري واستبداد أسرة محمد علي؛ لأن كونها ثورة إسلامية شعبية يعطي الثقة للجماهير في نفسها ومحاولة تكرار الثورة على الاستعمار، وهم لا يريدون هذا طبعا، وهكذا كان لابد من تقليص حجم هذه الثورة إلى أقصي مدي، إذا فبدلا من أن تكون ثورة إسلامية شعبية شاملة، فهي مجرد هوجة عسكرية أو تمرد مجموعة من الضباط المصريين على

الضباط الشراكسة أو غيرها من الأمور، وإذا كانت مبادئ الثورة ومطالبها الكبرى لا تحقق لهم هذا الفرض، فلابد من التركيز على أحد المطالب الجانبية والهامشية في المسألة وجعله هو المطلب الأول والأخير، ألا وهو مطلب فتح باب الترقي أمام الضباط المصريين، وبديهي أن هذا المطلب مطلب مشروع ومطلوب وهو من باب تحقيق العدل الذي تحرص عليه، أي ثورة أو حركة ولكنهم يخرجون المسألة من إطارها ويحصرون الثورة في هذا المطلب، ولكن حتى الوقائع الخاصة بتلك المسألة تثبت عكس ما أرادوا، فحركة الثورة لم تتحرك بدافع الحقد بل بدافع تحقيق العدل في مسألة الترقيات بصرف النظر عن الجنسية، فذا تأملنا مطالب الثورة في الجناح العسكري نجد أن قادة الثورة دائما أصروا على أن يكون وزير الحربية هو محمود سامي البارودي وهو أيضًا شركسي، فكيف يستبدلون شركسيا بشركسي، المسألة لم تكن كذلك، بل كان المطلب استبدال قيادة الجيش الفاسدة والموالية للقصر و الاستعمار بقيادة وطنية وإسلامية حتى ولو كانت شركسية أيضًا، ومن ناحية ثانية فالإصرار على عزل رياض باشا كان مطلب ثابت للثورة، ورياض باشا مصري ولم يكن شركسيا، أي المسألة لم تكن مرتبطة بموضوع مصري وشركسي، بل مسألة الموقف من النفوذ الأوروبي والموقف من استبداد الخديوي وحاشيته.

كان انتصار إرادة الشعب في ٩ سبتمبر ١٨٨١، يعني أن هناك ملامح ظهور نظام إسلامي شاب في مصر، يمكن أن يقطع دابر النفوذ الأجنبي، وتعميم دولة فنية ناهضة عسكريا وسياسيا و اقتصاديا، خاصة وأن الشعب كله

مع تلك الثورة ومتحمس لها، بل والجيش أيضًا،أي أن من المؤكد نجاح تلك الحركة، فإذا كان الجيش وهو أداة القمع الأساسية في يد النظام المستبد قد أصبح جزءا لا يتجزأ من ثورة الشعب، بل في طليعتها، فإن معنى هذا أن الأمور ستفلت حتما، ومعنى هذا أن هناك خطرا على المشروع الاستعماري بكامله في المنطقة، وهناك أيضًا خطر قيام نواه لوحدة إسلامية شاملة تكون مصر بداية لها خاصة وأن النظام العثماني كان ينهار في ذلك الوقت، وكان لابد - والحالة هذه- أن تتحرك القوى الاستعمارية بسرعة لتطويق هذا الأمر، وعندما يصبح الأمر بهذه الخطورة، فإن التناقضات الثانوية بين قوى المعسكر الاستعماري تختفي فجأة ويعمل الجميع بتنسيق كامل.

عقب حادثة ٩ سبتمبر، أدركت القوى الاستعمارية مدى أتساع وعمق وقوة الثورة، وكان عليها أن تناور الثورة لتطويقها، وهي خطة استعمارية تقليدية،أي أن تقبل تلك القوى المطالب الشكلية للثورة في سبيل ضرب الثورة وإلهائها عن مطالبها الجوهرية، والمطلوب الجوهري للثورة كان تصفية النفوذ الأجنبي، وهذا بالضبط ما تحاول القوى الاستعمارية الاحتفاظ به بأي ثمن، ومادام مد الثورة قد أصبح عاليا جدًا، فلابد من تقديم حكومة وطنية ولكن غير ثورية،أي تقديم حكومة لا يرفضها الثوار ولكنها حكومة عاجزة عن إدارة الصراع مع النفوذ الأجنبي بالأسلوب الثوري، أي بالأسلوب القادر على إنهاء ذلك النفوذ وهكذا جاءت وزارة شريف باشا، وشريف باشا يمثل قطاع من الوجهاء يؤمن بالحياة النيابية ويؤمن بالدستور ويحاول أن يحقق نوعا من الاستقلال ولكن عن طريق المناورات السياسية والنضال القانوني

واللعب على التناقضات الدولية، وإذا كانت القوى الاستعمارية بداهة لم ترد ولن تريد للشعوب المسلمة أو المستضعفة شيئًا من الحرية ولا الحياة النيابية، فإنها في ظروف المد الثوري يمكن أن تقبل بهذه الأشياء بهدف كسب الوقت وتهدئة الثورة تمهيدا لتصفيتها فيما بعد، وكانت وزارة شريف هي النموذج الأمثل لهذا الأمر في ذلك الوقت، وهذا الأسلوب كان هو الشيء الوحيد المتاح لإيقاف عجلة الثورة، وهكذا جاءت وزارة شريف، جاءت وزارة شريف ووعدت بالحياة البرلمانية ولكنها وعدت في نفس الوقت بالمحافظة على المصالح والنفوذ الأجنبي يقول الرافعي معلقا على خطاب شريف باشا بقبول الوزارة: " إن شريف باشا وضع في كتابه ما يطمئن الدول والجاليات الأجنبية على مصالحها بالتزامه احترام نظام الرقابة الثنائية ". [٢٤]

كان شريف باشا هنا هو نقطة التوازن بين جميع القوى فهو أولا يمثل طائفة من الوجهاء والمثقفين لا ترتبط بمصالح مع الشعب الثائر، وهي أيضًا أوروبية الثقافة والأساليب وهي ثالثا لا تملك ولا ترغب في إثارة الجماهير ودفعها للثورة أو حتى المشاركة في الحياة السياسية وهي رابعا بحكم ما لها من رصيد وطني أقدر على تطويق الثورة ثم هي خامسا يسهل فيما بعد تصفيتها أو رشوتها بحكم مالها من مصالح، وهكذا نجد مثلا أن جميع القوى رحبت بها، القوى الثورية رحبت بها على أساس أنها أفضل من وزارة رياض المرتبطة بالأجانب جملة وتفصيلا، والخديوي رحب بها على أساس أنها الأقدر على تخليصه من عرابي وقوى الثورة، والجاليات الأجنبية وقناصل الدول رحبت بها؛ لأنها تعرف أنها لا خطر منها ثم هي أيضًا الأقدر

في هذا الظرف على تطويق الثورة، يقول الرافعي واصفا حالة الترحيب التي قوبلت بها وزارة شريف باشا " أن القناصل والأجانب قد اعترفوا بأن شريف أفضل من رياض "[٢٥] ويقول أيضًا " أن الخديوي توفيق كان مسرورا أيضًا وأنه كان واثقا أن شريف لابد أن يخلصه عاجلا أو آجلا من عرابي"[٢٦] .

وفي الحقيقة فإن هذا درس يجب أن تعيه قوى الثورة الإسلامية الآن وفي المستقبل؛ لأنها خطة استعمارية تقليدية، وقد تكررت كثيرًا فيما بعد وخاصة مع الوفد، الذي كان الاستعمار يأتي به كلما تكررت هذه الظروف، أي كلما أصبح المد الجماهيري عاليا ولم يعد القمع المباشر قادرا على تصفيته، وعلى قوي الثورة الإسلامية أن تدرك دائما أن هناك تناقضات ثانوية بين القوي الاستعمارية وقوى الاستبداد الداخلي، وبين هذه الأخيرة وقطاعات من الوجهاء والمثقفين، وبين هؤلاء جميعا، ولكن هذه التناقضات الثانوية لا ترقي بحال من الأحوال أن تصل إلى التناقض الجوهري بين قوى الجماهير المسلمة وطليعتها الواعية، وبين مختلف تلك القوى ولا مانع من الاستفادة بتلك التناقضات الثانوية بشرط أن ندرك أنها تناقضات ثانوية وبشرط إلا نسمح لتلك التناقضات الثانوية بالقفز على التناقضات الجوهرية، وبشرط أن نعرف دائما أن قوانا الحقيقية هي الجماهير وحركتها ووعيها، وليس البرلمان أو القوانين المتسامحة أو غيرها، نعم نحن نريد برلمانا حقيقيا وقوانينا تتيح الحريات ولكن ليس على حساب حركة الجماهير، فإذا ما سكنت حركة الجماهير فما أسهل على القوى الاستعمارية أن تطوي أوراق البرلمان والقوانين أو تحرقها، ولن نمل من تكرار هذه الحقيقة، وهو أن الكفاح من

أجل الدستور، والبرلمان، والقوانين، وغيرها أمر مرغوب فيــه، وعلينـــا أن ندعم القوى الداعية إلى ذلك ولكن علينا أن نعرف أن ذلك لا يكــون علـــى حساب النضال الجماهيري الواسع وعلى حساب حركـــة الجمـــاهير وعلـــى حساب التحديات الكبرى، وهي وجود النفوذ الأجنبي في بلادنا، الذي مـــازال موجودا حتى الآن، وطالما كان هذا النفوذ موجودا، فـــإن حســـاب الكســـب والخسارة والتقدم والتراجع يكمن ويدور حول هذا النفوذ فكل ما يؤدي إلـــى تقليص هذا النفوذ والتخلص منه مقدم على غيره مقدم حتى على أداء الصلاة، وأن أي مكسب برلماني أو قانوني في ظل النفوذ الأجنبي هو حبر على ورق.

بدأ شريف عمله الوزاري بالتنبيه على الجيش بألا يشترك في السياسة، وهذه خطة خبيثة ومقولة غريبة على حضارتنا وتراثنا، فـــالجيش الإســـلامي كان دائما جيشا عقائديا، ومادام هناك رسالة لامتنا فالجميع مطالب بالمشاركة في السياسة ورفض كل ما يخالف أداء تلك الرسالة، فما بالك إذا كان هنـــاك نفوذا أجنبيا وسلطة مستبدة وقوي تتربص بنا، نعم نحن نرفض احتكار الجيش للسياسة والسلطة، ولكننا نؤمن بأن من واجب كل مسلم أو منتمي إلى الإسلام، سواء كان مدنيا أو عسكريا أن يشارك في السياسة، ولنا أن يتصور أن يأمر أحد الحكام الآن مثلا أن يقوم الجيش بمساعدة إسرائيل ضد الفلسطينيين هل يلتزم الجيش بالطاعة بدعوى عدم مشاركته في السياسة، أو حتى إذا أصـــدر أحد الحكام في المنطقة أوامره لجيشه بأن يكف عن قتال إسرائيل، هل يطيـــع هذا الجيش الأوامر، أو حتى إذا طلب من هذا الجيش قمع المواطنين هل يطيع هذا الجيش تلك الأوامر، علينا أن نؤكد أن العمل السياسي فرض عين علـــى

كل مسلم ومسلمة وواجب على كل الطوائف والفئات بما فيها الجيش، وبالطبع هناك فرق بين العمل السياسي وبين الانضباط العسكري، ويجب ألا نخلط بينهما.

أراد شريف إذا أن يقلص نفوذ الثورة في الجيش، فكان إصراره على توجيه الجيش إلى عدم الاشتراك في السياسة، كما قام بإصدار أوامره بنقل عبد العال حلمي إلى دمياط و عرابي إلى الشرقية، وقد أطاع عرابي وحلمي الأوامر وتم تنفيذها، إلا أنهما من ناحية أخرى قاما بزيادة الأواصر مع الجماهير في تلك الجهات واستفادا من وجودهما في بث أفكار الثورة والدعاية لها بين جماهير تلك البلاد بعيدا عن أعين السلطة المستبدة والقوى المرتبطة بها،وقد أدركت القوى المعادية للثورة ذلك وخاصة أن الأهالي في تلك الأقاليم قد نظموا المظاهرات تحية لهذين القائدين عرابي وحلمي، كما أن زعيم الثورة السياسي عبد الله النديم بذكائه المعروف أراد أن يفوت الفرصة على شريف باشا فاستغل فرصة سفر الفرقتين وحشد الجماهير للوداع وألقى الخطب التي تؤكد الارتباط بين الشعب والجيش وتؤكد تمسك الشعب بأن يظل الجيش دعامة لحماية الشعب وفارسا له لا عليه، وقد بدأ النديم إحدى خطبه في محطة القاهرة موجها كلامه إلى الضباط والجنود قائلا " يا حماة البلاد وفرسانها ".

ودعا إلى استمرار التلاحم قائلا " اجعلوا عروة الود وثيقة ولا تحلوا حبل الاتحاد "، وقد رد عليه عبد العال حلمي مؤكدا على ذلك قائلا " أن كلمة الوطنية تجمعنا، فاجعلوا حبل المواصلة بيننا ممدودا، وأعلموا إننا إذا لم نحفظ

أنفسنا بالاتحاد هلكنا "، وقد سافر عبد الله النديم مع فرقة عبد العال حلمي إلى دمياط، وأحتشد الأهالي لتحية تلك الفرقة وقائدها وخطب فيهم عبد الله النديم خطابا بليغا مدح فيه اتحاد الشعب والجيش، وعاد النديم إلى القاهرة ليكرر ما فعله مع فرقة عبد العال حلمي، حيث رافق عرابي في تنقلاته بفرقته داخل شوارع القاهرة حيث أحتشد الناس لتحية عرابي، وكان عرابي قد أصر على الذهاب مع ضباطه وجنوده إلى مسجد الحسين -رضي الله عنه-، واصطف جنود الفرقة أمام المشهد الحسيني وأدروا بيرق الآلاي على الضريح، ثم قطع عرابي شوارع القاهرة المزدحمة مارًا بالموسكي وشارع البوستة فشارع كلوت بك وكانت القاهرة عن بكرة أبيها في وداعه، وفي محطة القاهرة أكد عرابي والنديم على تلاحم الجيش والشعب وسافر النديم مع عرابي وفرقته إلى الشرقية وفي كل قرية ومدينة يمر بها القطار كانت المؤتمرات والمظاهرات والخطب تتكرر وتؤكد نفس المعنى:

" وبهذه الطريقة الفذة أستطاع النديم أن يبطل ما أراده شريف باشا من نقل عرابي وحلمي خارج القاهرة، بل كما قلنا كانت فرصة لمزيد من التحام الشعب والجيش ولمزيد من الدعاية والتحريض والاتصالات في الشرقية ودمياط مما أضطر القوى التي خططت لفصل الثورة عن ذراعها القوى وهو الجيش أن تعود عن خطتها وتستدعي عرابي للعمل كوكيل لوزارة الحربية في القاهرة، أي أن يصبح تحت عينها وذلك بعد ثلاثة أشهر من نقله إلى الشرقية.

كان من الطبيعي أن يقدم شريف باشا عدد من المنجزات يستند إليها في تحقيق نوع من الالتفاف الشعبي حوله، ويحقق بها نوع من الاسترخاء

السياسي لدى الجماهير، ويستطيع بها أن يمضي قدما في تصفية مراكز الثورة الحيوية، وكان شريف باشا في إصلاحاته وإنجازاته مخلصا ولم يكن عميلا، وهذا بالضبط ما كان يريده كل أعداء الثورة في ذلك الوقت وكان شريف باشا أيضًا مقتنعا ومخلصا في محاولته تصفية الثورة وخاصة مراكزها الحيوية، وكان هذا أيضًا ما يريده أعداء الثورة بالضبط، أي أن أعداء الثورة كانوا يريدون هنا إنجازات حقيقية حتى تقنع الجماهير بالاحتشاد خلف شريف باشا أو على الأقل إضعاف حماسها للثورة وقيادتها، وكانوا يريدون شخصا مخلصا له أسبابه الخاصة في تصفية الثورة حتى لا يصطدم بمعارضة جماهيرية أو ثورية في تلك التصفية، كان أعداء الثورة من أجانب ومستعمرين وخديوي وحاشية فاسدة، يعرفون أن قوة الثورة الحقيقية هي نفوذها في الجيش، وامتلاكها لعدد من الصحف القوية التي تعبر عن أفكار الثورة، وكان هؤلاء الأعداء يدركون أيضًا أنه في سبيل تحقيق الهدف يجب تقديم شيئا من الإنجازات لترضية، الجماهير، وهكذا قام شريف باشا بتقديم عدد من الإصلاحات الإدارية والقانونية والقضائية والوظيفية وأطلق سراح عدد كبير من المعتقلين بدون أحكام، وأعاد الكثير من المنفيين في السودان، كما نجح في استصدار قرار من الخديوي، الذي كان قد عطل مجلس الشورى منذ سنتين، ، أي منذ توليه الحكم، بأجراء انتخابات لمجلس شورى النواب على أساس القانون القديم وهو القانون الذي يجعل هذا المجلس استشاريا ينتخب أعضاؤه بواسطة عمد البلاد ومشايخها لمدة ثلاث سنوات ويجتمع

شهرين في كل سنة وجلساته سرية وليس له رأي نافذ فيما يعرض عليه من الشئون (٢٧).

كما قام في الوقت نفسه بمحاولة ضرب الثورة وخلاياها في الجيش كما سبق أن وضحنا، وكذلك ضرب جهازها الإعلامي عن طريق إصدار قانون المطبوعات، ولعل صدور هذا القانون المشبوه يؤكد رأينا في شريف باشا و يجعل هؤلاء الذين يدافعون عن شريف أما مغفلين أو عملاء، فلو كان ليبراليا ودستوريا حقا .ا فعل ذلك، وإذا كان الرافعي المعجب بشريف باشا عن غفلة طبعا، فنحن نثق في نزاهة الرافعي ألا أننا نعرف أن الرافعي لا يؤمن بالثورة ولا يحب دعاتها ويؤمن بالعمل الدستوري والقانوني وهذه براءة زغفلة طبعا ففي ظل نفوذ أجنبي ونظام حكم مستبد فإنه لا سبيل؛ لانتزاع حقوق الشعب ألا بالثورة، على كل حال فإن الرافعي يبدو متعجبا من صدور هذا القانون قائلا " لا شك أنه قانون مقيد لحرية الصحافة، ولا ندري ماذا كان الباعث على صدوره، ومن الذي أوعز بوضعه، وهل كانت الحكومة وقتئذ تخشى إطلاق الحرية للصحف فوضعت لها القانون " (٢٨).

وهكذا يصبح شريف باشا وهو الذي يصفه الرافعي بالذكاء والدهاء والحنكة السياسية و استقلال الرأي وعدم قبول الضغوط وغيرها من الصفات، يصبح فجاه عبيطًا يضحك عليه أحدهم فيصدر مثل هذا القانون.

وبالطبع لم يكن شريف باشا عبيطًا، ولكنه كان يعرف ما يريد فهو بالتحديد حاول إضعاف مركز الثورة بضربها في أهم عناصر قوتها وهي علاقة الشعب بالجيش أو النفوذ الثوري داخل الجيش وفي جهازها الإعلامي

عن طريق تقييد الصحافة، فذا ما تم ضرب هذين المركزين الحيويين للثورة، فماذا يبقي لها؟!

على أن الرافعي يقدم التفسير دون أن يدري قائلا " اشتدت لهجة الصحف متأثرة بانتصار الثورة العرابية وإجابة مطالب العرابيين فوجهت حملاتها إلى الأجانب والدول الأجنبية " (٢٩).

إذا فقد كان شريف يعرف ويريد، يعرف أن الثورة تريد تصفية النفوذ الأجنبي بل إن هذا هو هدفها الجوهري، ويريد أن يحرف الثورة عن ذلك باتجاه أهداف جزئية أخرى، فإذا لم تنصرف ضرب صحافتها التي تفعل ذلك، ألم يكن هذا ما يريده الأجانب والدول الأوروبية المتربصة بمصر بالضبط ! وهكذا ليس غريبا أن يقول الميسيو سنكفكس المعتمد الفرنسي والقنصل الفرنسي العام في مصر في هذا الصدد :" مضي وقت طويل لم تتمتع فيه مصر بما يسودها الآن من الهدوء في ظل وزارة شريف باشا،وقد أفضي إلى السير إدوارد مالت بهذه الملاحظة أيضًا في حديث لي معه (٣٠) - السير إدوارد مالت هو قنصل إنجلترا في مصر - أي أن كل من فرنسا وإنجلترا كانتا راضيتين عن شريف باشا، فلماذا كان هذا الرضا! هل حبا في هدوء مصر واستقرارها؟!.

وخلاصة المسألة أن شريف باشا قدم بعض الإنجازات أو استجاب لبعض مطالب الثورة في مقابل تطويق الثورة في مراكزها الحيوية، ولكن في الجانب الأخر، كانت الثورة تمتلك قيادة سياسية شديدة الذكاء والوعي والإيجابية والقدرة على الاستفادة من كافة الأوضاع لتدعيم مراكز الثورة

وتلك القيادة السياسية تمثلت في عبد الله النـديم وهـو أعظـم الشخصـيات الإسلامية التي أنجبتها مصر على الإطلاق، ولقد أستطاع ذلك القائد السياسي الفذ أن يقلب تخطيط شريف ومن وراء شريف على رأس القـوى المعاديـة للثورة،وقد رأينا كيف تم إحباط مخطط نقل الزعماء العسكريين إلى الأقاليم بل كيف تمت الاستفادة من هذا الأمر في زيادة عمق وأتساع الثورة، وعلينا الآن أن ندرس كيف استفادت قوى الثورة من إقرار الحكومـة بمجلـس شـورى النواب وأجراء انتخابات هذه المجلس واستئنافه للعمل بعد سنتين من تعطيله، فمما لاشك فيه أن الحياة البرلمانية السليمة كانت أحد المطالب التي طالبت بها حركة الثورة،وقد مارست الثورة ضغوطًا شديدة من أجل إرساء هذا المكسب، ولكنها كانت تعرف دائما أن هذا المكسب لا ينسيها هدفها الأول وهو إنهـاء النفوذ الأجنبي في مصر، وهكذا كانت الثورة تحشد الوفود للذهاب إلى القاهرة للضغط على شريف باشا لإصدار القرار الخاص بإجراء انتخابـات مجلـس الشورى إلى أن تحقق لها هذا وتمت الانتخابات وانعقـد المجلـس فـي ٢٦ ديسمبر ١٨٨١، ولكن على أساس القانون القديم، أي على أسـاس أن يكـون المجلس استشاريا، وليس إلزاميا، وليس له رأي نافـذ - علـى حـد تعبيـر الرافعي- كما سبق أن وضحنا.

واستطاعت قوى الثورة أن تؤثر على انتخابات المجلس بحيث يفـوز المرشحون الموالون للثورة رغم أنف قانون الانتخابات الذي يقصر الانتخاب على العمد والمشايخ، كما استطاعت الأجواء الثورية نفسها أن تحول البرلمان المنتخب إلى أداة حقيقية من أدوات التغيير رغم القانون الذي يحد من سلطات

هذا المجلس، وهكذا كانت أولي الأعمال التي ينظر فيها المجلس هو إصدار دستور جديد يجعل لهذا المجلس سلطة حقيقية في إقرار القوانين وتقرير الميزانية والرقابة على أعمال الحكومة وموظفيها وإلزامها بعدم فرض أي ضريبة أو إصدار أي قانون أو لائحة ألا بعد تصديق المجلس، وكان معنى هذا أن الثورة نجحت في جعل هذا المجلس أداة حقيقية من أدوات دعم حركة الجماهير وليس تطويقا لها، أن وأن عهدا جديدا من الحرية والحياة البرلمانية السليمة ينتظر مصر، وأن الثورة تكسب الجولة بعد الجولة على طريق التحرر الكامل وإنهاء النفوذ الأجنبي وإلغاء الحكم الاستبدادي.

وبالطبع فإن شيئًا من هذا لم يكن يروق للقوى الاستعمارية المتربصة بمصر والتي تعرف وتدرك أنه إذا كانت السلطة في يد الشعب فإن نفوذها يصبح في خطر ومخططاتها تصبح في مهب الريح.

وهكذا تحركت القوى الاستعمارية سريعًا، فتقدمت فرنسا وإنجلترا بمذكرة إلى مصر في ٧ يناير سنة ١٨٨٢، تحرض فيها الخديوي على الديكتاتورية وإلغاء الحياة البرلمانية وتحذر فيها من أجواء الحرية وقيام نظام برلماني حقيقي في مصر، وهكذا كشفت الدولتان عن كراهيتهما لقيام نظام دستوري وبرلماني حقيقي في مصر، ورغبتهما في استرداد الخديوي لسلطته المطلقة والعبث بالنظام الدستوري، وهذا أمر طبيعي فالقوى الاستعمارية دائمًا وأبداً لا ترتاح ولا تقبل أن تصبح السلطة كليًا أو جزئيًا بيد الشعب؛ لأن معنى هذا أن نفوذها في خطر، ويعلق الرافعي على هذا قائلا " إن جامبتا رئيس وزراء فرنسا، كان يكره الحرية للشعوب الشرقية ويدعو إلى استعبادها قاطبة

" [٣١]، وبالطبع لم يكن جامبتا وحده ولكن معـــه جلادســـتون رئـــيس وزراء بريطانيا وكان معه كل القوى الاستعمارية _ والعجيب هنا أن جلادستون الذي وقع على تلك المذكرة بالاتفاق مع فرنسا كان شيخ الأحرار في إنجلتـــرا، أي أن كراهية الحرية للشعوب الشرقية "الإسلامية" كان سلوكا تقليديا؛ لانجلتـــرا وفرنسا وغيرهما، وكذلك للمحافظين والأحرار على حد سواء فالجميع أمـــام قضايا الشعوب الإسلامية يفقدون نزاهتهم تمامًا.

ولم تكتف الدولتان بذلك بل قامتا بتقديم طلب عن طريق قنصليهما إلى شريف باشا رئيس وزراء مصر بألا يخول مجلس النواب حق تقرير الميزانية وذلك بتاريخ ٢٦ يناير ١٨٨٢، أي أن الدولتان لا تريدان الحريـــة لمصـــر، وبالتحديد لا تريدان لتلك الحرية أن تكون أداة لتقليص النفوذ الأجنبـــي فـــي مصر أو بإنهائه، ويعلق الرافعي على هذا قائلا في شيء من البراءة " ما شأن إنجلترا وفرنسا بنظام مجلس النواب المصري!

وأي قانون أو عرف دولي يخولهما حق التدخل في وضـــع الدســـتور والمطالبة بحرمان المجلس حق تقرير الميزانية!

وبديهي أن شأن إنجلترا وفرنسا هو شأن الاســـتعمار الصـــليبي فـــي مواجهة شعب مسلم يريد التحرر من النفوذ الأجنبـــي والاســـتبداد الـــداخلي وبالطبع فإن شريف باشا وفقا لتركيبته ورؤيته قد وافق على مطلب الـــدولتين بحرمان المجلس من حق نظر الميزانية، وبالطبع فإن قوى الثورة قد رفضت ذلك بصورة قاطعة، إذ ما قيمة الدستور والبرلمان إذا لم تكن لهذا البرلمـــان هيمنة على ميزانية البلاد، ولماذا كان كل هذا العمل الثوري والتضـــحيات إذا

ظلت مالية البلاد في أيدي الأجانب، والثورة ذاتها ما قامت إلا لتطهير البلاد من النفوذ الأجنبي أولا وثانيًا وأخيرًا.

وانتصرت إرادة الثورة، واستقال شريف باشا، وتم تشكيل مجلس وزراء من عناصر الثورة، كما تم إعلان الدستور وصدق عليه مجلس النواب في ١٧ فبراير ١٨٨٢، وكان دستورا يعطي كل السلطات للشعب والنواب بما فيها حق نظر الميزانية برغم اعتراض إنجلترا وفرنسا، وكان هذا انتصارا حاسما لقوى الثورة، وعمت البلاد موجة من الفرح والسرور (في حين استقبلت الدوائر السياسية الإنجليزية والفرنسية إعلان الدستور بالسخط والاستياء) [٣٢]، وبالطبع أخذت تبيت أمرًا بليل.

ما أن استلمت حكومة الثورة برئاسة البارودي زمام السلطة، حتى بدأت بالتعاون مع مجلس النواب في تحقيق الإصلاحات والبرامج التي قامت الثورة من أجلها فمن ناحية ظهر اهتمام واضح بمسألة التعليم واتخذت القرارات الوزارية لنشر المدارس الأولية في كل مكان وخصص البرلمان العديد من الجلسات لمناقشة مسألة التعليم، بل تعهد النواب بأن يقوم كل منهم بإنشاء مدرسة على نفقته الخاصة نشرًا للتعليم ومن ناحية أخرى ظهر الاهتمام واضحًا بمسألة إخضاع العلاقات الخارجية والمعاهدات لرقابة وسيطرة مجلس النواب، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك اهتمام بترقية أحوال الموظفين والمعاشات ومشروعات الري والصرف ومنع استخدام الفلاحين في أراضي الأسرة المالكة، والأكثر أهمية من كل هذا أن النائب أمين الشمسي(وهو تاجر ثري من الشرقية) تقدم باقتراح إلى مجلس النواب بمنع اتفاق التجار على رفع

أسعار السلع، وكذلك منع تصدير الغلال للخارج، وقام البعض باقتراح إنشاء خزان في أسوان وفي الاحتفالات التي أقامتها جمعية المقاصد الخيرية، طالب مصطفى أفندي ماهر بالاجتهاد في تحصيل العلوم والفنون، وأستحث ذوي الخبرة بإنشاء بنك وطني أهلي يستغني به الأهلون عن الاقتراض من المرابين بالفوائد الفاحشة (٣٣).

وكان الحديث يدور أيضًا علنًا وهمسًا بين قادة الثورة والجماهير عن الإطاحة بالخديوي توفيق، بل بأسرة محمد علي كلها وكان هناك حديث عن إقامة نظام جمهوري بديل، وتعديل نظام انتخاب مجلس النواب ليمثل قاعدة شعبية أكثر اتساعًا، وتعد كلمات المستر سنكفكس القنصل الفرنسي في مصر عند أبرق لحكومته محذرًا قائلًا:" والخلاصة إننا بإزاء حكومة ثورية وأن خلع الخديوي أصبح أمرًا محتومًا).

وقال في برقية أخرى في اليوم ذاته (عندما تكلم بعضهم مع عرابي عن الأمير حليم باشا صرح غاضبًا بأنه من الواجب التخلص من أسرة محمد علي كلها) (٣٤) ، وتعد هذه الكلمات تلخيصًا بالفعل للحالة كلها، حالة الثورة وحالة القوى المعادية للثورة، فالقوى المعادية أصبحت في حالة ذعر حقيقي لدرجة أن يبرق القنصل الفرنسي لحكومته برقيتين في يوم واحد محذرا ومنبها، كانت القوي الاستعمارية تعرف وترصد كل شيء حتى ما يفكر فيه الثوار، وكانت متيقنة من أن خلع الخديوي بات مسألة وقت لا أكثر، فكلمات سنكفكس تتكلم عن هذا بلفظ أن عزل الخديوي أصبح محتومًا، كانت القوى الاستعمارية تعرف أن اهتمام حكومة الثورة بالتعليم معناه زيادة رقعة الوعي

والثورة والقدرة على موجهة الاستعمار والقدرة على البناء الـداخلي أيضًـا، وكانت تعرف أن الدعوة إلى إنشاء بنك أهلي وطني معناه بداية الطريق لقيام نهضة صناعية تعتمد على تمويل وطني ومعناه أيضًا القضاء علـى النفـوذ الأجنبي، خاصة وأن كبار التجار أظهروا روحا وطنية وإسلامية عالية مثـل السيد حسن موسي العقاد والسيد أمين الشمسي، بل هـؤلاء التجـار تحديـدا وغيرهم كانوا من كبار الثوريين وأنفقوا أموالهم في سبيل الثورة فـي كافـة مراحلها، فالسيد حسن موسي العقاد كان من كبار معارضي إسماعيل حتى لقد تمت محاكمته ونفيه إلى السودان أثناء حكم إسماعيل ثم عاد من المنفي إبـان الثورة، وهو أيضًا من الذين حكم عليهم بعد هزيمة الثورة على يد الإنجليـز بعشرين عاما من النفي، وكذلك السيد أمين بك الشمسي كان من تجار الشرقية الأثرياء، ومن كبار المتحمسين للثورة والداعين لها، وقد تمت محاكمته أيضًا بعد دخول الإنجليز.

ليس هذا فحسب بل إن الثورة أظهرت وعيا وفهما دقيقا عندما أقتـرح أمين بك الشمسي على مجلس النواب (منع تصدير الغلال إلى الخارج)، أي تحرير الاقتصاد المصري من التبعية، فإذا كانت حاجة الأهالي إلـى الغـلال والرغبة في عدم غلاء أسعارها مبررا لمنع تصديرها فمعنى هذا أن هنـاك تفكيرا في إنتاج ما تحتاجه البلاد وليس ما تحتاجه مصانع أوروبا من خامات وهذا عمل اقتصادي شديد الخطورة على الاستعمار؛ لأنـه ببسـاطة يحـرم الاستعمار من أهم أهدافه وغاياته في النهب وفي ربـط الاقتصـاد المحلـي بالسوق العالمية كان معنى هذا كله تعليم، بنك أهلي _ منع تصدير الغـلال،

تجار ثوريون، دعوة إلى العلوم والفنون، أن هناك نهضة صناعية مرتقبة وخطر كبير على الاستعمار خاصة وأن تلك النهضة سوف تستند على شعب في حالة ثورة وعلى زعماء عظماء مثل النديم، فماذا يحدث لو تمت الخطوة الأخيرة وأطاحت الثورة بأخر مراكز القوى المضادة وهو الخديوي أو الأسرة العلوية بكاملها، معنى هذا أن تظهر قوة إقليمية فتية تبشر بنهضة صناعية وحضارية ويمكن أن تكون نواة إسلامية تقف عقبة في وجه مشروعات الاستعمار في المنطقة.

وكان من الطبيعي والحالة هذه أن تعمل القوى الاستعمارية على التدخل السريع ولو بالجيوش لتقليم أظافر الأسد وخلع أنيابه و إعادته إلى داخل الشباك، ولما كانت حالة الثورة قد وصلت إلى هذا المدى من القوة والوعي والخطر فإن التناقضات الثانوية بين القوى المختلفة في معسكر أعداء الثورة اختفت فجاه وتعاون الجميع في سبيل القضاء على تلك الثورة، وهكذا جاءت أساطيل كل من إنجلترا وفرنسا إلى مياه الإسكندرية في ١٧ مايو ١٨٨٢، بل وجاءت أيضًا سفينتان حربيتان يونانيتان وجاءت أيضًا بارجة أمريكية، أي مظاهرة أوروبية وأمريكية، أي استعمارية صليبية، أي أن الاستعمار الصليبي تناسي تناقضاته الثانوية وقام بعمل مشترك مادام هناك خطر إسلامي في الأفق، وكان الهدف من تلك المظاهرة البحرية العسكرية منع الثورة من الإطاحة بالخديوي، وإرباكها مؤقتا إلى أن تدبر أوروبا أمورها وتتفق على صيغة نهائية لذبح الثورة، وفي مايو سنة ١٨٨٢ قدمت كل من إنجلترا وفرنسا مذكرة تطالبان فيها بالمطالب الآتية بنفس الترتيب:

١ـ إبعاد عرابي عن مصر.

٢ـ نفي كل من على فهمي وعبد العال حلمي إلىٰ داخل مصر.

٣ ـ استقالة وزارة البارودي.

أي أن الهدف هو حرمان الثورة من ذراعها العسكري وحرمانها أيضًا من السلطة،وقد جاء ترتيب حرمان الثورة من ذراعها العسكرية متقدما علـى حرمانها من السلطة (الوزارة)؛ لأنها مثلا لـو أكتفـت بإقالـة الـوزارة، واستمرت الذراع العسكري للثورة، لأمكن للثورة مثلا أن تستعيد ما فقدته، ثم إن هدفها لم يكن معاقبة وزارة أو إقالتها، بل هي تستهدف طبعا ذبح الثـورة، هذا الخطر الإسلامي الذي يلوح في الأفق مهـددا المشـروع الاسـتعماري الغربي بكامله.

وكان من البديهي أن يسارع الخديوي توفيق بقبـول المـذكرة، أي أن يحدث التحالف العلني بين قوى الاستعمار، وقـوى الاسـتبداد، وكـان مـن الطبيعي أيضًا أن قوى الثورة أعلنت رفضها القاطع لتلك المطالـب؛ لأنهـا كانت تعرف أن المطلوب رأس الثورة ولـيس رأس عرابـي أو البـارودي، وأعلن الشعب بكل فئاته وقوفه صفا واحد خلف قيادة الثورة، فانهالت البرقيات تأييدا لعرابي، وانهالت وفود الشعب إلى القـاهرة تأييـدا لعرابـي، وأعلـن الفلاحون، والحرفيون والتجار والأعيان وضباط الجيش وجنـوده، وعلمـاء الأزهر تأييدهم لعرابي، لدرجة أن الخديوي توفيق عنـدما جمـع الأعيـان والعلماء والضباط في سراي الإسماعيلية يوم ٢٧ مايو ١٨٨٢، وعرض على الكثيرين منهم الوزارة رفضوها جميعا، وكذلك قال له الحاضرون أنه لا حق

للدولتين في مطالبهما، وأن هذا ليس ألا شـأنا داخليـا، بـل تركـه معظـم الحاضرين وانصرفوا دون استئذان.

وهكذا كان الأمر واضحا، والمعسكران متمايزان، معسكر الثورة يضم الجيش، العلماء، التجار، الأعيان، الفلاحين، الحرفيين، أصحاب الرتب وكبار الموظفين وصغارهم، ومعسكر أعداء الثورة الذي يضم الخـديوي والخونـة والمترددين استنادا إلى قوى الاستعمار الـذي أرسـل أسـاطيله إلـى ميـاه الإسكندرية.

ومع أن الأمر كان بهذا الوضوح نجد الرافعي، بحسن نية يكتب ببراءة: " لو أن عرابي قبل هذه المقترحات وغادر البلاد لكان ذلك تضحية منه فـي سبيل إنقاذها من التدخل الأجنبي " (٣٥).

وكان هؤلاء الأجانب قد حركوا أساطيلهم لخلاف شخص بينهم وبـين عرابي، فهل كان هؤلاء حقا يريدون الإطاحة بشخص عرابـي ؟ أم كـانوا يريدون الإطاحة به كرمز للثورة ويريدون الإطاحة معه بكل مكاسب الثـورة ومراكز قواتها، ويطيحون بأي ملامح مشروع بناء قوة لمصر تعرقل مشاريع الاستعمار في المنطقة أو تصلح نواه لتجمع إسـلامي شـاب واعـد، كـان المطلوب دائمًا وأبدًا نهب واغتصاب مصر والعالم العربي والإسلامي والعالم المستضعف كله وكل ما يعرقل هذا يتعرض للتصفية حتـى ولـو بالتـدخل المسلح، وهكذا اتخذت الثورة موقفا شريفا برفض مطالب الدولتين.

وصحيح أن الجيش الإنجليزي قد ذبح الثورة بعد ذلك، ولكن هذا أفضل من جميع الوجوه من قيام أبناء الثـورة بـذبحها بأنفسـهم لمجـرد التلـويح

بالأساطيل، وفي جميع الحالات، فإن مصر سواء نجحت ثورتها بيد أبنائها كنصيحة الرافعي، أو بيد الجيش الإنجليزي كما حدث، فإن مصر كانت ستحتل سلميًا أو عسكريًا، بل هي بالفعل كانت قد احتلت سلميًا، وكانت الثورة العرابية ثورة ضد هذا الاحتلال.

الاحتلال الإنجليزي لمصر

كانت الثورة قد استعصت على الذبح وتمسكت بأهدافها حتى الآن فلقد استمرت الثورة رغم كل المحاولات، استمرت رغم محاولة تطويقها بتقديم كبش فداء، وهو الخديوي إسماعيل، استمرت رغم نفي الأب الروحي للثورة، وهو السيد جمال الدين الأفغاني، استمرت رغم عمليات القمع والتآمر والاستبداد على يد الخديوي توفيق وعلى يد وزارة رياض باشا، استمرت رغم محاولة إلهائها بمكاسب جزئية في مقابل التنازل عن أهدافها الجوهرية على يد شريف باشا، استمرت رغم المظاهرات العسكرية البحرية الأوروبية المتكررة ورغم مذكرات إنجلترا وفرنسا أكثر من مرة، استمرت الثورة وخرجت في كل مرة أكثر التحاما بالجماهير، وأكثر عمقا وأتساعا في الواقع الشعبي، استمرت الثورة وبدأت في تحقيق بعض أهدافها مثل تقليص النفوذ الأجنبي تمهيدا لإنهائه عن طريق الإصرار على عدم السماح بتوقيع المعاهدات مع الدول أو إبرام الاتفاقات أو التخاطب مع القناصل ألا عن طريق وزارة الخارجية وبشرط موافقة النواب.

ومثل منع تصدير الغلال حتى لا ترتفع أسعارها، أي النظر إلى المسألة الإنتاجية والسلعية نظرة وطنية يمكن أن تتطور في النهاية إلى تحقيق

استقلال اقتصادي وقطع خيوط التبعية للاقتصاد العالمي الذي يريد مصر مزرعة للخامات وسوقا لتصدير المنتجات، ومثل الدعوة إلى التعليم ونشره والاجتهاد في طلب العلوم والفنون، أي خلق قاعدة علمية للصناعة خصوصا والنهضة عموما، ومثل تقوية الجيش وزيادة عدد أفراده، مثل التفكير والتحريض على خلع الخديوي كمؤسسة مستبدة، بل وكانت الثورة تمتلك قيادات واعية وقادرة على حشد الجماهير مثل عبد الله النديم وكانت تمتلك وسائل اتصال جماهيري عالية الكفاءة من خلال الصحافة والخطابة والجمعيات الخيرية وغيرها، فإذا أضفت إلى ذلك ثقل مصر الإسلامي والسكاني وما تمتلكه من طاقات بشرية وعلمية وثروات طبيعية، بل وبنية أساسية ضخمة من طرق وسكك حديدية ومشروعات ري وصرف كان نظام الحكم قد نفذها لمصلحته أو لمصلحة التجارة مع أوروبا، فكانت النتيجة الحتمية لكل هذا قيام نهضة حضارية تستند إلى الإسلام في مصر، نهضة تمتلك قاعدة صناعية، وتمتلك أيدلوجية إسلامية قادرة على حشد الشعب كله خلفها بل والشعوب الإسلامية كلها بحيث تصبح خطرا على المشروع الاستعماري في المنطقة، بل ربما على أوروبا كلها ككيان استكباري استعماري صليبي.

وكان لابد والحالة هذه أن تسارع أوروبا مجتمعة أو توكل عنها إنجلترا لذبح الثورة، وهكذا تم الأعداد للغزو الإنجليزي لمصر.

وبدأت إنجلترا تعد لهذا الغزو قبل تنفيذه بفترة طويلة فوفقا لبلنت[٣٧] فإن وزارة الحربية والبحرية في إنجلترا عقدتا النية منذ أوائل سنة ١٨٨٢ على

مهاجمة مصر من ناحية قناة السويس " وكان لابد من افتعال حادثة تصلح كذريعة للغزو فكانت مذبحة الإسكندرية في ١١ يونيه التي أجمع كل المؤرخين على أنها كانت بتدبير القنصل الإنجليزي في مصر، ولم يختلف المؤرخون ألا في تورط الخديوي فيها أو عدم تورطه، فعلى حين يرى العرابيون تورطه فيها بالاتفاق مع الإنجليز يرى الآخرون عدم تورطه واقتصارها على تدبير القنصل الإنجليزي، وعلى كل حال فبعد الحادثة بيومين لا غير سافر الخديوي إلى الإسكندرية(١٣ يونية ١٨٨٢) وأنحاز شيئا فشيئا إلى الإنجليز، إلى أن وصل إلى حد الخيانة، مما دفع جميع طوائف الشعب من علماء دين وتجار وأعيان وضباط وغيرهم إلى إعلان خيانته شرعًا، واستصدار فتوى شرعية بذلك من علماء الإسلام.

وبدأ الأسطول الإنجليزي في ضرب الإسكندرية في ١١ يوليو ١٨٨٢ وبدأت المعارك بين الفريقين إلى أن انتهت بسقوط القاهرة في ١٥ سبتمبر ١٨٨٢).

تناقضات بين حضارتين

التناقض الجوهري هو التناقض بين الحضارة الإسلامية بما تمثله من حق وعدل وحرية وإعلان لكرامة الإنسان ودفاع عن المستضعفين تلك الحضارة التي تقاوم الظلم والاستبداد والقهر الفردي والجماعي على كل مستوى، وبين الحضارة الأوروبية الصليبية وهي حضارة وثنية إغريقية ذات قشرة مسيحية، وهي الحضارة التي تقوم على القهر والاستعباد والظلم والنهب.

وقد شهد الصراع بين تلك الحضارتين فترات طويلة من المد والجـزر وأنتهي بمحاولة الحضارة الغربية السيطرة على العـالم الإسـلامي وعـالم المستضعفين فيما يسمي بالاستعمار، وكان الاستعمار يستهدف في ذلك الوقت عددا من الأهداف الخطيرة، أولها تفكيك الخلافة العثمانية بما أنهـا الخلافـة الجامعة والموحدة للمسلمين، وكان يستهدف أيضًا السيطرة على أقطار العالم الإسلامي والعالم المستضعف، ومنع ظهور، أي شكل من أشـكال النهضـة وخاصة الصناعية منها وفي سبيل ذلك كان هناك العديد من أشكال الاختراق السياسي والاجتماعي والاقتصادي للعالم الإسلامي، وفي حالة مصـر فـإن الخطة الاستعمارية تمثلت في محاولتين للاحـتلال العسـكري فـي ١٧٩٨، ١٨٠٧ إلا أن المقاومة الشعبية الإسلامية كانت حائلا دون ذلك، وهنا قررت قوى الاستعمار تدمير البنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي تسمح لمصر بمثل هذه المقاومة الشعبية.

وكان محمد علي هو المنفذ لذلك بغير وعي للأسـف، فقـام بضـرب المؤسسات القادرة على حشد الجماهير مثل الأزهر، ثم قام بتصـفية قواعـد الإنتاج المصري الزراعي والصناعي والتجاري المرتبط بالمبادرة الشـعبية وأنشأ نظام الاحتكار، أي ربط كل شيء بالدولة وربط الدولة به شخصـيا، وحقق إنجازات اقتصادية وعسكرية كبيرة إلا أنه أسـتخدمها فـي الطريـق الخطأ، وهو الصدام مع الخلافة العثمانية وكانت النتيجة إضعاف قوة الخلافة العثمانية وإضعاف قوة مصر أو ضياع طاقاتها الضخمة التي ترتبـت علـى نجاحها في صد غزوتين استعماريتين في أقل من عشر سنوات وكانت تلـك

الطاقة كفيلة بقيام نهضة صناعية وحضارية وعسكرية كبيرة لو سارت في طريقها الطبيعي، وبعد أن أكمل محمد علي مهمته في استنفاذ تلك الطاقة وفي إضعاف الخلافة العثمانية وفي ضرب أشكال الإنتاج الشعبية كان من السهل تصفية إنجازاته الاقتصادية والعسكرية بالقضاء على جيشه أو بالقضاء عليه شخصيا مادام كل شيء مرتبط به، وهذا خطة استعمارية تقليدية تكررت كثيرًا.

وعقب ذلك تم احتلال مصر سلميا بدءا من ١٨٤٠، فلما حاول عباس باشا التصدي لذلك الغزو، تم التخلص منه أيضًا عن طريق اغتياله، وبدأ الاحتلال الأوروبي لمصر يأتي في صورة قروض، مرابين بنوك، مشروعات استعمارية أجنبية، إرساليات تبشير، بناء ودعم مؤسسة استبدادية متمثلة في الخديوي والحاشية، تشجيع ظهور أرستقراطية زراعية تحقق إنتاجا زراعيا متزايدا من الخامات اللازمة لمصانع الغرب، وتحقق في نفس الوقت امتصاص أي فائض مالي إلى قطاع الزراعة بعيدا عن القطاع الصناعي، وبالطبع كان الاستعمار يسمح ببناء الطرق والسدود ومشروعات الري والسكك الحديدية؛ لأن هذا كله يخدم عملية النهب ويسهلها، وكانت الدولة العثمانية خارج الحلبة عمليا بعد أن تعرضت لعمليات ضرب وإضعاف متوالية من قوى الاستعمار، واكتفت بمحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه عن طريق اللعب على التناقضات الدولية الثانوية، وهو أمر لا يحقق شيئا؛ لأن تلك التناقضات الثانوية بين قوى الاستعمار تختفي تماما في حالة الصراع مع الحضارة الإسلامية.

وفي حين سمحت أوروبا لليونان مثلا بالاستقلال بسوقها المحلية، حرصت على تدمير وضرب، أي محاولة للاستقلال بالسوق في بلاد العالم الإسلامي، وأرغمت الخلافة العثمانية إرغاما على فتح تلك السوق أمام أوروبا، وكانت الثورة العرابية محاولة إسلامية للتصدي لهذا كله، وهكذا تعرضت للتآمر الاستعماري بأكثر من طريقة وأكثر من وسيلة، إلى أن انتهت المسألة بالتدخل العسكري الإنجليزي لذبح الثورة في مصر.

وهنا قد يبرز سؤال حول التناقضات الثانوية بين إنجلترا وفرنسا مثلا، ونحن ندرك أن القوى الاستعمارية بينها الكثير من التناقضات الثانوية، ولكنها كما قلنا ثانوية أولا، وتختفي ثانيا مع ظهور التناقض الجوهري، أي مع ظهور الخطر الإسلامي.

كانت فرنسا وإنجلترا في حالة سباق محموم للسيطرة على مصر فالأولى حاولت في ١٧٩٨ والثانية في ١٨٠٧ والاثنان معًا مشتركان أو منفردان عن طريق الشركات الصناعية وبنوك المال والمرابين وإرساليات التبشير، والقروض والرقابة الثنائية، والوزرين الأوروبيين، ثم في المذكرات أو المظاهرات البحرية التي جاءت فيها أساطيل الدولتين لتهديد الثورة في مصر، وإلى هنا ظلت الدولتان كفرسي رهان ولكن لماذا سمحت فرنسا لإنجلترا باحتلال مصر منفردة سنة ١٨٨٢؟

وهذا السؤال يجيب عليه رئيس جمهورية فرنسا بنفسه " المسيو جريفي قائلا:" إنه يتمني فوز الجيش البريطاني على الثورة لا لمصلحة الإنجليز فقط ولكن لمصلحة فرنسا أيضًا –؛ لأن الجامعة الإسلامية ستكون عاملا خطيرا

في المستقبل – وأنه يعتقد أن المسلمين سيستطيعون يوما ما مقاومة أوروبا في ساحة القتال " (٣٨) ، أي أن رئيس وزراء فرنسا يفضل انفراد إنجلترا باحتلال مصر على ظهور خطر إسلامي، أي أن التناقض الثانوي يختفي إذا ما ظهر التناقض الجوهري.

وهذا القول الذي قاله الرئيس الفرنسي للسفير الإنجليزي لتشجيعه على عملية الاحتلال يكشف أيضًا عن حقيقة أخرى هامة، وهي أن الثورة العرابية كانت ثورة إسلامية تشكل خطرا على الغرب كله.

وهنا قد يثور سؤال آخر، وهو لماذا لم تشارك فرنسا في الاحتلال، أي القيام بعمل مشترك لذبح الثورة، خاصة وأن الأسطول الفرنسي كان موجودا أمام الإسكندرية في نفس الوقت، ولكنه أنسحب تاركا المهمة للجيش الإنجليزي.

وهذا السؤال هام جدًا، يكشف أيضًا مدي عمق الثورة وقوتها ، فالغرب الاستعماري كان يدرك أن الثورة عميقة جدًّا في الوجدان الشعبي، وأنها لا تحتاج إلى مجرد عملية ذبح سريع ثم العودة، ولكنها تحتاج إلى جيش احتلال دائم ومستقر يقوم بعملية الذبح ثم يستمر طويلا في البحث عن جذور الثورة لاجتثاثها، وهذا لا يتحقق ألا بجيش احتلال واحد؛ لأنه لو قامت فرنسا وإنجلترا بعمل مشترك لذبح الثورة، لكان عليهما أن يخرجا من مصر بعد أداء المهمة؛ لأن التوازنات الدولية لا تسمح بقيام احتلال مشترك من دولتين معًا فهذا يعقد المسألة، وبناء على ذلك فإن فكرة القيام بعمل عسكري مشترك لذبح الثورة والعودة، سيجعل من المؤكد اندلاع الثورة مرة أخرى بعد انسحاب

قوات الدولتين، وهكذا فالأفضل لمصلحة أوروبا وفرنسا أن تضحي فرنسا بمصر لصالح إنجلترا أفضل من ظهور خطر إسلامي على أوروبا كلها.

وفي الحقيقة فإن هذه الحقيقة كانت ومازالت من الوضوح بحيث لا يستطيع تجاهلها، أي مؤرخ أو دارس لتلك الفترة وهذه الأحداث، حتى أن صلاح عيسي وهو ماركسي ولا يمكن بحال من الأحوال أن ينحاز إلى التفسير الإسلامي للتاريخ أو لأي حادثه فيه يقول " أما فرنسا فقد رأت في ذلك الموقف خطرا شديدا ، ذلك أن انتصار الثورة لا يعرض مصالحها المباشرة في مصر للخطر فحسب بل يفجر احتمالات الثورة ضدها في مستعمراتها الأفريقية، وكانت تجابه إذ ذاك بمقاومة في تونس التي احتلتها سنة ١٨٨١) مما يجعلها تزداد خوفا من الثورة المصرية أن تؤدي إلى بروز فكرة الجامعة الإسلامية مما يعرض مستعمراتها في الشمال الأفريقي (الجزائر وتونس) للخطر " (٣٩).

هل كانت الثورة العرابية سببًا في الاحتلال الإنجليزي لمصر؟

فرق كبير بين الافتراء على الثورة العرابية، وبين ذكر أخطاء الثورة أو تقديم نقدً موضوعي لها، وبداية فليس هناك أحد معصوم من الخطأ ألا الرسول صلي الله عليه وسلم، وكذلك فإن النقد والنقد الذاتي يقوم به المسلم خمس مرات على الأقل في اليوم الواحد " بعدد الصلوات التي يطلب فيها الإنسان المغفرة من الله تعالى على أخطائه وخطاياه " وطلب المغفرة من الله تعالى يعني بداية الاعتراف بالخطأ ومحاسبة النفس عليه، والتوبة الجماعية أيضًا شكلا من أشكال النقد الذاتي الجماعي، والجماعة المسلمة تمارس تلك

التوبة كل أسبوع على الأقل في صلاة الجمعة، والمحاسبة وتحديد الأخطاء عمل إسلامي مطلوب ومرغوب، بل إن الله – تعالى– قد أشار في القرآن الكريم إلى أخطاء المسلمين في موقعة أحد، ولم يكن هذا ألا درسا وتشريعا وفرضا لعملية النقد ، والحديث الشريف يرشدنا إلى ضرورة النقد، أليس المسلم مرآة أخيه، والنقد التاريخي، أو نقد تجارب الأسلاف عمل شرعي وفريضة إسلامية للعظة والاستفادة، والقرآن الكريم يحتوي على مساحة واسعة من تجارب الأمم السابقة وخاصة الإسلامية منها، باعتبار الإسلام هو الدين الحق منذ بدء الخليقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، تلك التجارب والدروس المستفادة منها، وعندما أخطأ المسلمون في سلوكهم مع أسرى بدر نزل القرآن الكريم يوضح هذا الخطأ، ويؤيد رأي عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– المختلف والمعارض لرأي الجماعة المسلمة في ذلك الوقت –، وكذلك عندما أخطأ المسلمون في موقعة حنين جاء القرآن ليرصد الخطأ ويصحح ويرشد.

والمسلم ينتقد الخليفة في اجتماع عام، في صلاة الجمعة أمام الناس جميعا، كما حدث مع عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– بل والمرأة تمارس هذا الدور وتنتقد رأيًا لعمر بن الخطاب ولا يجد عمر في ذلك حرجًا، ويقر بالخطأ ويقول أصابت امرأة وأخطأ عمر، والآثار الدالة على كون النقد فريضة إسلامية أكثر من أن تحصى.

وهكذا فإن المطلوب والمرغوب توجيه النقد إلى الثورة العرابية وتحديد أخطائها ولكن هناك فرق بين النقد وبين الافتراء.

ومن قبيل الأخطاء التي وقعت فيها الثورة العرابية، في رأينا، أنها تأخرت كثيرا في الإطاحة بالخديوي، فلو كانت قد أطاحت به مبكرا وكانت تمتلك ذلك وتقدر عليه، لحرمت القوى الاستعمارية من مؤسسة هامة استفادت بها ولعبت بها وخاصة في الأوقات الحاسمة، لو أطاحت به مبكرا لحرمت الخونة والمترددين من نواة يتجمعون حولها وعلى الأغلب أنها لو فعلت لك لكان المترددون قد التحقوا بذيل الثورة، وما كان للخونة أن يفعلوا ما فعلوه.

كان على الثورة أن تجعل الإطاحة بالخديوي من الأشياء ذات الأولوية والأسبقية حتى على المطالبة ببرلمان ودستور؛ لأن البرلمان في ظل وجود مؤسسة الخديوي المستبدة وبحكم تركيبته كان من الطبيعي أن تظهر فيه عوامل الخيانة والتردد، والمفروض أن الحياة النيابية السليمة لا تتم ألا بعد الإطاحة بمؤسسات الاستبداد وليس في وجودها.

ومن أخطاء الثورة أيضًا أنها لم تسلح للجماهير، واكتفت بوجود الجيش كقوة عسكرية في معسكر الثورة، وكان هذا أكبر وأفدح الأخطاء فلو تم تسليح الجماهير، لكان من الصعب أن تنتصر جيوش الاحتلال، بل كان من الصعب أن تفكر حتى في الغزو، وعملية تسليح الجماهير كانت متاحة بل وسهلة جدا، فإذا كان الجيش مع الثورة منذ وقت مبكر جدا، فإن تسليح الجماهير يصبح سهلا، ولن يجد من يقدر على منعه؛ لأن نظام الحكم المستبد لن يجد أداه للقمع للحيلولة دون ذلك، أليس الجيش مع الثورة ؟! فما بالك، وقد نجحت الثورة في أن تحتفظ بوزارة الحربية فترة طويلة، بل وبرئاسة الوزارة، ألم تكن تلك الفترة كافية لتسليح الجماهير، أضف إلى هذا أن الثورة

كانت تمتلك قيادات جماهيرية قادرة على تحقيق ذلك مثـل عبـد الله النـديم وعلماء الأزهر بكافة درجاتهم وأعمارهم وكانت تمتلك مؤسسات وجمعيـات سرية وعلنية قادرة أيضًا على تحقيق هذا الهدف والجماهير بـالطبع كانـت شديدة الحماس للثورة ومستعدة لذلك، بل وقامت بالعديد من الأعمال والأحداث التي تؤكد استعدادها لذلك، وقدرتها عليه ورغبتها فيه.

ومن أخطاء الثورة أيضًا أن قيادتها لم تقرر استمرار الكفـاح الشـعبي المسلح بعد هزيمة الجيش، وكان من المفروض ألا يستسلم عرابـي، بـل أن يقوم بقيادة حركة مقاومة شعبية مسلحة، وكانت الجماهير أيضًا مستعدة لذلك وقادرة عليه بل وحاولت أن تقوم بتلك المقاومة ومنعها محافظ القاهرة، أكثـر من هذا أن تلك الجماهير استطاعت أن تخفي النديم وتحميه تسع سنوات رغم وجود جيش الاحتلال ورغم رصد المكافآت الضخمة لمن يدل عليه.

وبالطبع المجال مفتوح للدراسة وتحديد الأخطاء بهدف العظة والعبرة والاستفادة، أما الافتراء على الثورة فهذا أمر آخر، وأكبر المفتريـات علـى الثورة هذا القول الذي يرى أن الثورة العرابية كانت سببًا في الغزو الإنجليزي والاحتلال الإنجليزي، وهذا القول شديد الخطورة وشديد الخطأ وشديد الخبث أيضًا، حتى ولو كان قائله هو الرافعي أو غيره من المنتمـين إلـى مدرسـة الحزب الوطني، فهم وأن كانوا وطنيين ولا شبهة في إخلاصهم إلا أنهم بحسن نية ودون أن يدروا يخدمون قوى الاستعمار خدمة كبرى، لـيس فـي إدانـة الثورة العرابية فقط ولكن في إدانة، أي عمل ثوري لاحق، فهذا القول يرى أن الثورة نوع من الفتنة وأنها أعطت الذريعة للاحتلال، أي بطريقة غير مباشرة

توجيه للجماهير بأنه لا داعي للثورة؛ لأنها لا تؤدي إلى ألا الخراب وتعطــي قوى الاستعمار المبرر للتدخل، وإذا كان لابد مــن مقاومـــة فلـــتكن ســـلمية وبوسائل قانونية مثل سلوك شريف باشا مثلا وبالطبع هذه براءة أكثـــر مـــن اللازم، فإذا كان الاستعمار ومؤسسات الاستبداد هي التي وضعت القـــوانين، أليست تلك القوانين لتكريس الواقع الاستعماري وحمايته، بل وحتى النضـــال السلمي لتغيير هذا الواقع وتلك القوانين هل يصلح ؟ هـــل يصـــلح النضـــال السلمي في مواجهة جيش احتلال لا يتورع عن ارتكاب أبشع الجرائم لقمـــع هذا النضال السلمي ذاته، نعم النضال السلمي مطلوب ولكن كأحـــد الوســـائل وليس الوسيلة الوحيدة، فلم يعرف التاريخ وربما لن يعرف استعمارا قد خرج بدون كفاح مسلح وكذلك لم يعرف التاريخ ولن يعرف مؤسسة مستبدة سلمت للشعب بحقوقه ألا عبر بحار من الدم والسجون والقمع.

ولنعود إلى مناقشة قول الرافعي وغيره في أن الثورة العرابيـــة كانـــت سببا للاحتلال، فالحقيقة أن هذا القول يتجاهل عددا مـــن الوقـــائع والحقـــائق فجيش الاحتلال مثلا لا يأتي للاستمتاع بشمس الشرق الســـاطعة، ولا تقـــوم الدول الاستعمارية بالأنفاق على الحملات العسكرية لتحقيق الاستقرار مثلا أو حماية الخديوي أو قطع رقبة عرابي كشخص، والاحتلال ذاته مـــاذا يعنـــي، أليس يعني السيطرة على السوق، وصياغة الاقتصاد بطريقة تجعلـــه قـــابلا للنهب الإستعماري، ألم يتحقق ذلك منذ ١٨٤٠، وأستمر في التوسع تـــدريجيا إلى أن وصل إلى وجود رقابة ثنائية على مالية البلاد، بل وزيرين أوروبيين لإدارة اقتصاد البلاد، ألم تصل هذه الأمور إلى درجة أن فرنســـا وإنجلتـــرا

رفضتا أن يناقش مجلس النواب الميزانية، ألم تكن مصر غارقة في الديون، ألم تكن بيوت المال الأوروبية والبنوك تمارس النهب بأقصى درجاته، ألم تكن الشركات الأجنبية تمتلك ٩٦% من المشروعات في مصر، ألم يصل المرابون إلى أعماق الريف المصري لمص عرق الفلاح عن طريق الربا، ألم تكن مصر مزرعة للقطن لسد حاجات المصانع الإنجليزية وخاصة إبان الحرب الأهلية الأمريكية، ألم تكن مصر تكتظ بحثالات الأوروبيين من أفاقين ومغامرين ورجال بنوك وسيطر هؤلاء على الإنتاج في مصر عموما وامتلكوا الأرض واحتكروا التجارة ووصل كثير منهم إلى مراكز سياسية وظيفية ممتازة في الجهاز الإداري للدولة سواء في الجيش أو في القطاع المدني.

وإذا كان الاحتلال يعني السيطرة على نظام الحكم أو القرار السياسي، ألم تكن السلطة الحقيقية في يد القوى الاستعمارية، ألم تقم هذه القوى بخلع رأس النظام ذاته (الخديوي إسماعيل) عندما أرادت، ألم تكن هي التي تفرض رؤساء الوزارات مثل رياض باشا، ألم تعترض هذه القوى على إقامة البرلمان وحرضت الخديوي توفيق على مصادرة الحريات وإعادة السلطة بكاملها إلى يديه، ألم تعترض هذه القوى على نظر مجلس النواب على الميزانية وهددت بالتدخل المسلح؟

ألم تكن تملك بمقتضي اتفاقية ١٨٤٠، منع أي قرار سياسي بالاستقلال بالسوق المصرية، ألم تصل درجة السيطرة على جهاز الحكم إلى درجة طلب نفي عرابي أو عبد العال حلمي أو إقالة وزارة البارودي؟

ألم تكن السلطة الحقيقية في يد القناصل والمستشارين الأوروبيين وخاصة الإنجليز والفرنسيين حتى أنه لم يكن يصدر قرار داخلي أو خارجي عن الخديوي إلا بعد أخذ الموافقة منهم؟

ألم تكن السيادة التشريعية والقانونية غائبة تماما، وكان الأجانب يتمتعون بنظام قضائي مستقل داخل مصر ومجحف أيضًا ويطلق يدهم في النهب والعربدة بل وارتكاب ما شاءوا من الجنح والجنايات والجرائم، بل وحق إصدار الصحف دون الخضوع للسلطة المصرية؟!.

ألم يكن هذا احتلالا ؟ إذن فالثورة العرابية لم تكن ألا ثورة على هذا الاحتلال السلمي التدريجي، وليست سببا للاحتلال كما يحلو للبعض أن يردد بحسن نية أو بسوء نية، بل أنه لما قامت الثورة وأصبحت خطرا على المشروع الاستعماري القائم بالفعل قررت إنجلترا إنفاق الأموال وتحريك الجيوش، لذبح تلك الثورة.

ومن ناحية أخرى، أليس من الخطأ أن ننظر للمسألة المصرية بمعزل عن مجمل الظروف السائدة وقتها في العالم؟

ألم تكن جزءا لا يتجزأ من المسألة الإسلامية عموما التي يسميها المؤرخون المسألة الشرقية ؟

ألم يكن هدف أوروبا من قبل أن يظهر عرابي السيطرة على المستعمرات بما فيها مصر وتدمير الخلافة العثمانية ومنع، أي تطور أو نهضة إسلامية وخاصة الصناعية منها؟

ألم تكن مصر هي أهم المراكز في المسألة الشرقية باعتبارها مركزا هاما من مراكز الإسلام والثقل العلمي والسكاني وامتلاك الثروات؟

ألم تحاول فرنسا احتلال مصر سنة ١٧٩٨، أي قبل عرابي بثمانين عاما وربما قبل أن يولد؟

ألم تحاول إنجلترا الشيء نفسه سنة ١٨٠٧؟

ألم تكن إنجلترا تلتهم كل يوم المزيد من المستعمرات في العالم الإسلامي، وكذلك فرنسا قبل وأثناء وبعد الثورة العرابية؟

ولعل قول السير أوكلند كلفن يؤكد هذه الحقيقة فهو يقول : (إن الثورة تشكل خطرا علي التغلغل الأجنبي في مصر)[٤٠] ، أي أنها كانت خطرا على الاحتلال الموجود فعلا وليست سببا أو مبررا للتفكير فيه فهو سابق عليها وهي خطر عليه.

وقد استعصت على الترويض والتصفية بكافة الوسائل فلم يكن هناك بد لاستمرار هذا الاحتلال ألا بالغزو العسكري.

مبدئيون وواقعيون

أما الموقف المبدئي... فهو موقف علماء الأزهر من الثورة ومن الخديوي، وأما الموقف الواقعي فهو موقف السلطان العثماني، والفرق بين الموقف المبدئي والموقف الواقعي هو الفرق بين رجل المبادئ ورجل السياسة القائمة على التكتيك والمناورة والاستفادة من توازنات القوى، وليس معنى هذا أن المواقف المبدئية تتجاهل تلك الحسابات والتوازنات ولكنها لا تجعلها مقدمة على المبادئ بل خاضعة لها،ومسألة المبدئية والواقعية مسألة مثارة دائما بين القوى الثورية وخاصة الإسلامية منها،وقد كانت تلك المسألة ومازالت من أعقد المسائل ومازالت من أعقد المسائل التي تواجه الحركات الإسلامية ويدور النقاش حولها كثيرًا، يدور حول حدود الواقعية ومساحتها، حول الاستراتيجية والتكتيك، الهدف والوسائل؛ ولأن الإسلام دين يقوم على الأخلاق

والشرف والقيم فلا مناص من أن يكون المسلم مبدئيا في وسـائله وأهدافـه وليس في أهدافه فقط، حتى ولو كان الثمن هو الخسارة الجزئية والآنية؛ لأن خسارة معركة بشرف أفضل من خسارة التاريخ والمسـتقبل وخسـارة روح الحضارة الإسلامية.

وقف علماء الأزهر موقفا مبدئيا من الثورة، وكانوا في طليعتها ومـن كبار قادتها ودفعوا الثمن عندما انهزمت وسوف نناقش دورهم في الثورة في موضع لاحق، وتبدو مبدئية هؤلاء العلماء واضحة في ذلك الموقف العظـيم الذي أتخذه العلماء من الخديوي عندما أنحاز إلى الإنجليز حيث أفتي كل من الشيخ حسن العدوي والشيخ محمد عليش، والشيخ محمد أبو العلا الحلفـاوي فتوى شرعية فحواها : " إن الخديوي بانحيازه إلى العدو المحارب لبلاده يعد مارقًا عن الدين ويجب عزله " (٤١)

بل وقبل أن ينحاز الخديوي إلى الإنجليز علنًا نجد أن الشيخ عليش قد أفتي بأنه لا يصح أن يكون توفيق حاكمًا للمسلمين بعد أن باع مصـر للأجانب بإتباع ما يشير عليه به القنصلان (الإنجليزي والفرنسي) ولذلك وجب عزله (٤٢) ، أي أن الخديوي يستحق العزل شرعا لمجرد إتباع مـا يشير به الأجانب، ونجد أن الشيخ حسن العدوي يفتـي بشـرعية عصـيان الخديوي قائلا " أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأنه مادام الخديوي منحازًا للأجانب فأنه وفقًا لأمر الله ورسوله لن نطيع أوامره بل يجب أن نشن عليه وعلى الأجانب حربًا مقدسة " (٤٣).

وكان هؤلاء العلماء يعرفون أن هذه الفتاوى ربما تؤدي إلى محاكمتهم أو إعدامهم، خاصة وأن الإنجليز قد احتلوا الإسكندرية وأن هزيمة الثورة هو الاحتمال الأرجح أن لم يكن أمرا مؤكدا، ومع هذا نجدهم يأخذون الموقف المبدئي الذي يضر بمصالحهم الخاصة، ولو كان هؤلاء يبحثون عن مبرر للتقاعس لوجدوا دعاة الواقعية يقولون لهم، مادام الاحتلال هو الأرجح وهزيمة الثورة شبه مؤكدة فلنحافظ على مواقعنا ووظائفنا لنخدم بها المسلمين أو ننقذ ما يمكن إنقاذه وغيرها من التبريرات ولكن المبدئية هنا انتصرت وانتصر معها التاريخ والمستقبل معها التاريخ والمستقبل وظلت هذه الفتوى سيفا مسلطا على رقبة كل مستبد وكل خاضع للأجانب وحافزا قويا لاستمرار حركة المقاومة فيما بعد.

أما الموقف المتسم بالواقعية غير المبدئية فهو موقف السلطان العثماني ويجب علينا في البدء أن نقرر مجموعة من الحقائق، لنضع موقف السلطان في موقعه الصحيح.

إن الخلافة العثمانية الإسلامية قد جاءت في وقت حرج بالنسبة للحضارة الإسلامية التي كانت تتعرض لهجمة أوروبية صليبية حاقدة وأن تلك الخلافة العثمانية قد أعطت للأمة الإسلامية شبابا جديدًا، وحافظت على وحدتها بل ووجودها ذاته في وجه الحقد الصليبي الأوروبي، بل ووسعت رقعة الإسلام في قلب أوربا ذاتها، ولهذا السبب فإن الحقد على الخلافة العثمانية أمر صليبي وأوروبي تقليدي، وكذلك الهجوم الذي تتعرض له الخلافة العثمانية على يد مثقفي المدرسة الاستعمارية ليس بسبب أخطائها

ولكن بسبب حمايتها للإسلام في الوقت الحرج ونشره في أوروبا ذاتها، وعلينا أن نعلم أن الحروب الصليبية لم تتوقف يوما، فإذا كانت قد استمرت في الشرق الإسلامي قرنين ثم سكنت إلى أن تجددت مع مطلع الحقبة الاستعمارية فإنها ظلت مستمرة على بلاد المغرب العربي أكثر من ألف عام، وأن السلطان عبد الحميد ذاته هو الذي أتخذ الموقف المبدئي في رفض منح جزء من فلسطين لليهود أو السماح بالهجرة اليهودية إليها رغم الإغراءات المادية التي قدمت له على المستوى الشخصي وعلى مستوى دعم ميزانية الدولة التي كانت تعاني من الإفلاس،وقد دفع السلطان عبد الحميد الثمن في شخصه وفي الخلافة كلها نتيجة هذا الموقف أو على الأقل كان هذا الموقف من ضمن الأسباب التي أدت للتآمر على الخلافة.

إن أوروبا الصليبية لم تنقطع يوما عن محاربة الدولة العثمانية داخليا وخارجيا، وأن التحديات الأوروبية كانت شديدة جدًّا على الدولة العثمانية في ذلك الوقت.

إن الدولة العثمانية في ذلك الوقت كانت تعاني من الضعف والتفكك داخليا وخارجيا وأنها كانت تحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه عن طريق الاستفادة من التناقضات الثانوية بين الدول الاستعمارية بعد أن أصبحت عاجزة على هزيمة تلك القوى،

إن القوى الاستعمارية، كانت تعمل دائما على تدمير تلك الخلافة ولكن على مراحل بحيث يمكن هضم ما يتفكك منها سيئا فشيئا، وبحيث لا يكون

سقوطها المفاجئ سببا في ظهور انتفاضة إسلامية في بلاد المسلمين تعيد توحيد المسلمين حول محور آخر مثل مصر أو غيرها.

إن تلك الدول الاستعمارية كانت تعمل على خنق، أي نهضة علمية أو صناعية أو ثقافية في بلاد العالم الإسلامي، وكانت تدعم الاستبداد والجحود والاختراق والتغريب لمنع ظهور انتفاضة إسلامية تقوى الخلافة العثمانية أو تكون نواه لخلافة بديلة.

إن القوى الاستعمارية كانت قد نجحت بالفعل في اقتطاع أجزاء كبيرة من بلاد المسلمين مثل الهند، المغرب العربي " تونس، الجزائر"و بعض أجزاء الجزيرة العربية، كما كان نفوذها العسكري والثقافي والسياسي والاقتصادي قد وصل إلى معظم البلاد الإسلامية.

وهكذا فإن الدول الاستعمارية التي كان ترقب عن كثب أحوال الثورة في مصر كانت تعرقل، أي محاولة عثمانية للاستفادة بهذه الثورة أو تدعيم مركزها في مصر عن طريق هذه الثورة، بل كانت ترسل سفنها الحربية لمجرد وصول مندوب عثماني إلى مصر، التي من المفروض أنها كانت تابعة رسميا للخليفة العثماني، (مثل مجيء السفن الحربية الفرنسية والإنجليزية إلى مصر في خريف ١٨١٨) احتجاجًا على وصول بعثة عثمانية إليها، وطالبت الدولتان برحيل هذه البعثة في أقصر مدة ممكنة وبالطبع كانت سياسة الدولتان ترميان إلى عدم وجود نفوذ عثماني حقيقي في مصر حتى لا يؤثر ذلك على مخططاتهما وخاصة فيما يتعلق بالوجود الاستعماري في الجزائر وتونس اللتان كانتا تغليان بالمقاومة ضد الاحتلال الأجنبي الفرنسي وبديهي أن النفوذ

العثماني في مصر سوف يؤجج تلك المقاومة ومن ناحية الدولـــة العثمانيـــة، وهي التي كانت تدرك الأخطـــار المحيطـــة، ومـــدى ضـــعفها العســـكري والسياسي، كانت تريد الاستفادة من هذه الثورة إلى أقصي مدي، وكان الخط العام لسياسة الدولة العثمانية تجاه مصر عموما وأثناء الثورة خصوصا هـــي الوقوف ضد النفوذ الأجنبي الأوروبي فيها ومحاولة تقليص ودعم الثورة فـــي ذلك الاتجاه،وقد أرسل السلطان خطابين إلى عرابي عبر فيهما عـــن وجهـــة نظرة في المسألة مؤكدًا " أن جلالته لا يهمه شخص الخديوي، وإنما يهمه أن يكون حاكم مصر محافظا على ديانة البلاد وحقوقها وغير مفـــرط فيهـــا لأوروبا "(٤٤) ونصح عرابي " بالعمل على تقليص النفوذ الأجنبـــي وأن يتوقي كل ما من شأنه أن يجلب على البلاد الغـــزو الأوروبـــي، ومنـــع الأجانب من أحداث الفتنة " (٤٥).

وأوضح بأن يعمل العرابيون لتوثيق عري الاتحاد بين مصر والدولـــة العلية، وأن يعملوا على منع السبل التي تؤدي إلى خروج بلادهم من الدولـــة إلى أيدي الأجانب الطامعين فيها كما حدث في تونس " (٤٦)

وهاجم السلطان في رسالته لعرابي " الخديوي توفيق؛ لأنـــه ضـــعيف يجري وراء أهوائه وذكر أنه لا يثق بإسماعيل ولا بحليم ولا بتوفيق"(٤٧)،

" وإن المهمة الأساسية لعرابي كما يراها السلطان هي ألا يهمل فـــي اتخاذ جميع الوسائل والاحتياطيات التي يتطلبها زماننا الحاضر لمنع وقـــوع مصر في يد الأجانب" (٤٨).

" أكد السلطان في نهاية الرسالة " أنه يثق في الشخص الذي يفكر في مستقبل مصر ويعرف أساليب الدسائس الأوروبية ويحتاط لها ويقوى العلاقة بين مصر والدولة العلية " (٤٩).

ومعنى هذه الرسالة واضح في أن ما يهم الدولة العثمانية هو عدم وقوع مصر بيد الدول الأوروبية وأن السلطان في سبيل ذلك يؤيد كل من يستطيع هذا ويؤكد في الوقت نفسه أنه لا يثق لا بإسماعيل ولا بحليم ولا بتوفيق، أي لا يثق بالخديوي ولا بأي بديل من أسرة محمد علي ولا مانع لديه بالتالي أن يكون عرابي أو أحد قادة الثورة هو البديل مادام سيكون محتاطا للفتن الأوروبية وعاملا على منع وقوع مصر بيد الدول الأوروبية.

بل أن السلطان أحتج على تدخل فرنسا وإنجلترا في شئون مصر وانحيازهما ضد الثائرين (٥٠).

وبالطبع لم يكن السلطان يملك أكثر من الاحتجاج فقدمه إلى الدولتين (فرنسا وإنجلترا) وإلى كل الدول الأوروبية، وظل السلطان دائما يرفض إرسال جيش لقمع الثورة التي تهدد الخديوي برغم مناشدة الخديوي له أكثر من مرة وبرغم الضغوط الأوروبية عليه لتنفيذ هذا الأمر (٥١).

وفي نفس الوقت كان يرسل الرسائل أو المبعوثين بشكل سري إلى عرابي يؤكد له ثقته ودعمه للثورة مادامت ضد النفوذ الأوروبي بل وينعم على عرابي برتبة الباشوية ويظهر أنه مستعد لجعله حاكم مصر بدلا من توفيق، " وكان السلطان يقاوم دائما فكرة إرسال قوة تصطدم بالثورة ويؤثر أن يكون حامي هذا الشعب من وقوع عدوان عليه " ويمكننا أن نفهم بصورة أكبر

موقف الدولة العثمانية في ذلك الوقت حيث رفضت الاشتراك في المؤتمر الذي دعت إليه وعقدته الدول الأوروبية قبل غزو مصر في دار السفارة الإيطالية بالأستانة،وقد امتنعت كل من مصر وتركيا عن حضوره بينما حضرته كل من إنجلترا، فرنسا، ألمانيا، النمسا، المجر، روسيا، إيطاليا، وقد قرر هذا المؤتمر دعوة تركيا للتدخل في مصر بقوة كافية تمكن الخديوي من المحافظة على سلطانه، على أن يكون التدخل مشروطا بالحماية الأوروبية وأن يخمد الثورة العسكرية ويعيد إلى الخديوي سلطته وأن تكون مدة إقامة الحملة العثمانية ثلاثة أشهر فقط وأن تكون نفقة الحملة على الخزانة المصرية " (٥٣) .

ولعل مقررات هذا المؤتمر تؤكد كل ما سبق وأن أكدناه، في هذا الجزء أو فيما قبله، فالمطلوب ذبح الثورة ليس ألا، وإعادة الأمور إلى نصابها، أي استمرار الاحتلال السلمي والنهب الاستعماري لمصر عن طريق دوائر المال الأوروبية عموما والفرنسية والإنجليزية خصوصا، في ظل حكم مستبد ومرتبط بالأجانب هو حكم الخديوي توفيق، والأعجب من هذا كله أن يتم ذلك على يد القوات التركية المسلمة وبأموال مصرية، وهذا طبعا يحقق عدة أهداف في وقت واحد، فالقوات التركية المسلمة أكثر قدرة هنا على ذبح الثورة؛ حيث إن التعاطف الشعبي سيكون أقل كثيرا جدًّا مما لو تم ذبح الثورة على يد القوات الأوروبية، أضف إلى هذا أن ذلك سيوفر على أوروبا نفقات الحملة ودماء أبنائها، وثالثا سيعيد الأمور إلى نصابها وهي حالة الاحتلال الأوروبي السلمي لمصر، أي عدم انفراد دولة أو دولتين بالمسألة كلها.

وبالطبع كل ذلك تحت أشراف أوروبي كامل، وبشرط العودة في غضون ثلاثة شهور، أي ألا يسمح لتركيا بالاستفادة من ذلك في زيادة نفوذها في مصر فهذا خطر على المستعمرات الأوروبية في الشمال الأفريقي المسلم.

وكان من الطبيعي أن ترفض تركيا هذا الأمر، فهي لا ترغب في قتل الثورة بل هي تشجعها؛ لأن تركيا أصلا غير مرتاحة للخديوي توفيق، وقد تباطأت في منحه فرمان الحكم في مصر على غير المعتاد، وهي أيضًا غير مرتاحة لنفوذ أوروبا الذي يتزايد في ظل حكم توفيق، وهي أساسًا تشجع الثورة وتعطف عليها، ألم ترفض دائما التدخل لقمعها، ألم يراسل السلطان عرابي، ألم يمنح السلطان عرابي رتبة الباشوية والنيشان السلطاني المجيدي، ألم يصرح السلطان لعرابي: بأنه لا مانع من خلع توفيق بل والأسرة الخديوية كلها، ألم يلمح السلطان إلى موافقته على تعين عرابي نفسه حاكما لمصر؟.

ولما رفضت تركيا لم يكن أمام الدول الأوروبية ألا بأن تضحي بمصالحها كدول في مصر وتتنازل عن النفوذ لصالح بريطانيا، وأن تسمح لبريطانيا بالانفراد بذلك؛ لأن ذبح الثورة وسقوط مصر في قبضة إنجلترا أفضل من ظهور ثورة إسلامية شابه تكون خطر على المشروع الاستعماري الأوروبي بكامله.

إذن فمفتاح فهم موقف الخلافة العثمانية من الثورة العرابية هو رغبة الخلافة في تفادي احتلال مصر رسميا بعد احتلالها عمليا ومحاولة إزالة هذا الاحتلال السلمي بتشجيع الثورة على ضرب النفوذ الأجنبي، وهي في

الوقت ذاته تفعل ذلك عن طريق الوسائل التي لا تملك غيرها بعد أن أصبحت ضعيفة لا حول لها ولا قوة وأمامها تحديات ضخمة ومشـاكل فـي الـداخل والخارج ،أي بالاكتفاء بمنح قائد الثورة النياشين أو توصيل رسائل السلطان إليه لتشجيعه وتقديم النصائح إليه، وكان السلطان يري أن نجاح الثورة إذا لم يكن دعما جديدا للنفوذ العثماني في مصر، فهو سيكون على الأقل حائط صد أمام النفوذ الأوروبي في شمال أفريقيا

وفي الحقيقة فإن الموقف العثماني هذا، كان معروفا لجميع الأطـراف، أوروبا، الخديوي، العرابيين، و العرابيون من جهتهم حاولوا قدر الاسـتطاعة الاستفادة من هذا الموقف، وكان تحليل العرابيين للمسألة كالتالي، أن الـدول العثمانية في مراحل انهيارها، ولابد ظهور قوة إسلامية شابه وصـاعدة فـي مصر تكون دعما لتلك الخلافة أو بديلا إسلاميا وحدويا لها، وأن تتمسك تلك الثورة بالا تصل إليها أسباب الفساد والضعف الذي دب في الدولة العثمانيـة، وكذلك أن تكون الثورة ذات طابع ثوري مستمد من الإسلام، وأن تعمل الثورة على بناء نهضة إسلامية في مصر وأن تنهي النفوذ الأجنبـي فـي مصـر وتعرقل مشروعات الاستعمار في المنطقة عموما وفـي الشـمال الأفريقـي خصوصا.

وبديهي أن يعلن قادة الثورة في كل مناسبة ولاءهم للإسـلام وللخلافـة العثمانية فهذا لا يتعارض مع مبادئهم بل هذه هي بالضبط مبادئهم، وبديهي أن يسعى قادة الثورة إلى الاستفادة من تأييد السلطان؛ لأن لهذا التأييـد مـردود جماهيري قوي.

ولكن مع كل هذا لماذا أصدر السلطان منشور العصيان ؟ على خلاف كل مواقفه السابقة.

والإجابة على السؤال بسيطة جدا، وهي أن السلطان أراد أن يضحي بعرابي بعد أن تمت هزيمة الثورة فعلا، لعل وعسي أن يتيح له هذا المنشور بعض الأوراق للضغط على انجلترا لترحل عن مصر، وكان لسان حاله يقول: إذا كان أبني قد أخطأ فأنا أتبرأ منه، إذا تركوا لي بيتي، وكانت هذه لعبة سياسية على حساب المبادئ، ففقد السلطان السياسة والمبادئ معًا وأساء إلى التاريخ العظيم للدولة العثمانية وأساء أيضًا إلى المستقبل، وبالطبع لم يكن لهذا المنشور، أي قيمة ولم ترحل إنجلترا عن مصر بل ألغت السيادة العثمانية الشكلية على مصر بعد ذلك أبان الحرب العالمية الأولى، وهكذا فإن السلطان قد أخطأ في حق نفسه وحق عرابي وحق الثورة وحق التاريخ وحق المستقبل ولم يكسب شيئًا.

حاول السلطان أن ينقذ مصر من الاحتلال على حساب عرابي والثورة ففقد مصر وأساء إلى عرابي وإلى الثورة.

وفي الحقيقة فإن هذا المنشور وإن كان من الناحية المبدئية خطأ على كل مستوى، فانه من الناحية الواقعية لم يكن له، أي قيمة فقد جاء بعد أن انهزمت الثورة فعلا فلم يكن ليقدم أو يؤخر في النتيجة ولكن بالطبع هناك أعداء الإسلام وأعداء الخلافة العثمانية الذين يعادونها؛ لأنها إسلامية ولأنها دافعت عن الإسلام كثيرا، وبالطبع فإن هؤلاء سيثيرون الدنيا ويقيمونها ويقعدونها عن أثر هذا المنشور على الروح المعنوية للشعب والجيش وغيرها

إلا أن معظم المؤرخين من مختلف المدارس الفكرية لم يروا في هذا المنشور شيئا مهما أو مؤثرا في الأحداث، بل حتى هؤلاء الذين لا يمكــن أن يكونــوا متعاطفين مع الخلافة العثمانية قالوا شيئا من الحق مثل صلاح عيســي الماركسي يقول " برغم المجهود الذي بذله الباب العــالي لكــي يســاعد العرابيين إلا أنه اضطر تحت ضغط الدول الأوروبية إلى إصدار منشور العصيان " (٥٤) .

أي أن صلاح عيسي يقر بأن ذلك المنشور جــاء تحــت إكــراه- ولا منشور لمكره !!-، ويقر أيضًا أن السلطان كان حليفًا للعرابين وأنه قدم كثيرا من أجل ذلك، والآن هل تكفي هذه الشهادة ؟ بالطبع هي تكفي؛ لأنهــا مــن شخص لا يمكن أن يكون منحازا للسلطان، ومع هذا فعلينا أيضًا أن ننــاقش الظروف التي ظهر فيها المنشور، فمن الناحية الزمنية ظهر المنشور يــوم ٦ سبتمبر ١٨٨٢)، أي بعد العمليات العسكرية بـــ ٥٦ يوما كاملــة "، - بــدأ ضرب الإسكندرية في ١١ يوليو-، ومن الناحية العسكرية فإن المنشور قــد ظهر بعد أن أحتل الإنجليز الإسكندرية وبعد احتلال السويس والسيطرة على القناة واحتلال بــور ســعيد والإســماعيلية واحــتلال (نفيشــة والمحمســة والقصاصين)، أي بعد أن حقق الجيش الإنجليزي انتصارات حاســمة علــى جيش الثورة ولم تعد المسألة ألا مسألة وقت وهنا قرر السلطان الذي رفــض دائما الاشتراك في أي مؤتمر أو مفاوضات اعتمادا على قوة الثورة، قرر هنا أن يحاول منع الاحتلال بالوسائل الدبلوماسية بعد أن انهزمت الثــورة فعــلا فدخل في مفاوضات مع إنجلترا أتفق بمقتضاها أن يرسل جيش عثمانيا قــوام

ثلاثة آلاف جندي إلى بور سعيد في مقابل إعلان عصيان عرابي، وكان السلطان قد ناور أثناء تلك المفاوضات بهدف عدم إعلان العصيان والاكتفاء بنداء إلى عرابي يناشده فيه طاعة الخديوي إلا أن إنجلترا أصرت على صدور منشور العصيان، وكان السلطان يستهدف بحصوله على الموافقة الإنجليزية على إرسال ثلاثة آلاف جندي عثماني أن يكسب ورقة تحقق له بعد ذلك جلاء كل الجيوش عن مصر سواء الجيوش الإنجليزية أو العثمانية خصوصا أنه أشترط أيضًا في نفس الاتفاق على عدم استمرار القوات الإنجليزية في مصر ألا ثلاثة شهور، وكانت بريطانيا تستهدف من منشور العصيان قتل روح المقاومة الشعبية التي كانت تخشاها أكثر مما تخشى الجيش، وكانت تعرف صلابتها بدليل ما فعلته تلك المقاومة في ١٧٩٨، ١٨٠١ و ١٨٠٧، وبالطبع انخدع السلطان ونفذ الاتفاق وأصدر المنشور، ولم تسمح له إنجلترا بإرسال الجنود العثمانيين ولا نفذت وعدها بالانسحاب بعد ثلاثة اشهر بل لم تنسحب ألا بعد ٧٢ عاما بعد أن سلمت مصر للأمريكان قبل أن ترحل.

وهكذا دفع السلطان ثمنا غاليا من سمعته وسمعة الثورة في مقابل وعد لم ينفذ أبدا، وهكذا تكون أخطاء ما يسمي بالسياسة الواقعية التي تخسر المبادئ وتخسر الواقع أيضًا، ويجب أن يكون هذا درسًا للقادة المسلمين وللشعوب الإسلامية وللحركات الإسلامية، أن المبدئية مهما كانت نتائجها أفضل على المستوى العملي من الواقعية فضلا عن أنها سياسة أخلاقية تتفق مع حضارة الإسلام.

نعم كان السلطان مع الثورة وحليفا لها، ونعم كان السلطان يريد إنقاذ مصر من الاحتلال أو إنقاذ ما يمكن إنقاذه بهذا المنشور ولكن حتى إنقاذ مصر من الاحتلال لا يبرر إدانة عرابي وإعلان عصيانه، ولا يبرر اتخاذ هذا الموقف الغير مبدئي.

المعارك ـ الصمود ـ الخداع ـ الخيانة

لم تكن مهمة جيش الاحتلال الإنجليزي مهمة سهلة، ولم يكن احتلاله لمصر نزهة عسكرية، كانت هناك معارك حقيقية وكبيرة، وكانت هناك بطولات، وكان هناك جنود وضباط شجعان فعلوا كل ما في طاقتهم، وكان هناك شعب عظيم قدم كل ما يمكنه من الدعم.

كان الجيش الإنجليزي يتكون من ٥٠٦٠٠ جندي مسلحين بأحدث الأسلحة، وأسطول ضخم في مواجهة جيش مكون من ١٣ آلف جندي، وعدد من الاستحكامات والطوابي متخلفة عن العصر في تسليحها، وعدد من الخونة يعملون داخل صفوف الجيش لحساب الخديوي والإنجليز، ومع ذلك أو قل ورغم ذلك، صمد الجيش في حدود المستطاع.

ففي الإسكندرية، رغم الطوابي المستهلكة والتسليح الضعيف قاتل الجنود ببسالة حتى أن جون نينيه أعترف بذلك وكان شاهد عيان حيث يقول: " ومع ذلك، فما كان أبدع هذا المنظر، منظر الرماة المصريين الذين كانوا قائمين على مدافعهم، وهي مكشوفة في العراء، وكأنما هم في استعراض حربي لا يرهبون الموت الذي يكتنفهم إذ لم يكن لهم دروع واقية ولا متاريس وكانت معظم الحصون بلا ساتر، ومع ذلك فهؤلاء الشجعان كنا نلمحهم وسط الدخان

الكثيف كأنهم أرواح الأبطال في حومة الوغى سقطوا ثم بعثوا ليكافحوا العدو من جديد ويستهدفون لنيران مدافعه، وكان الأئمة يزورون الحصون ويشجعون المقاومة، وقام الجميع بواجبهم من جند ورجال ونساء وصغار وكبار ولم تكن ثمة أوسمة ولا مكافآت تستحث أولئك الفلاحون على أداء واجـبهم، بـل إن عاطفة الوطنية والثورة كانت تستثير الحماسة في صدورهم " (٥٥)

ويضيف " ومع أن المدافع المصرية كانت أقل عيـارا مـن المـدافع الإنجليزية فإن رماتها قد أدوا واجبهم على أكمل وجه بحيث أن سبع بـوارج إنجليزية أصيبت بعطوب بعضها جسيم وبعضها خفيف (٥٦).

ويقول الشيخ محمد عبده في هذا الصدد " كان الرجال والنسـاء تحـت مطر الكلل ونيران المدافع ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها، وكانوا يغنون بلعن الأميرال سيمور، ومن أرسله " (٥٧) .

ويقول عرابي " في أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنسـاء فـي خدمة المجاهدين ومساعدتهم في تقديم الذخائر الحربية وأعطائهم الماء وحمل الجرحي وتضميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات (٥٨).

وقال محمود فهمي " ورأيت في ذلك الوقت بعيني ما حصل من غيرة الأهالي بجهة رأس التين وأم كبية وطوابي باب العرب وهمتهم في مسـاعدة عساكر الطوبجية من جلبهم للمهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات هم ونسائهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الأهـالي صـار يعمـر المـدافع ويضربها على الأسطول " (٥٦) ويقول القومنـدان هنـت " لمـا وجـدت أن الحصون أقوى مما كان يظن وأن جنود المدفعيـة لا يسـتهان بهـم وأنهـم

يحكمون الضرب رأيت أن من الصواب أن القي المراسي لكي أحصل على المسافة اللازمة بدقة " [٦٠].

ويقول الماجور تلك من رجال المخابرات الإنجليزية " في اعتقادي أنه لا يستطيع إلا القليل من الناس أن يؤدوا واجبهم بمثل ما أدي أولئك الجنود، وليس في مقدور الإنسان أن يخفي دهشته وإعجابه من بسالة الجنود الذين كانوا يقاومون تحت وابل القنابل، بل ويحاولون أن يرفعوا أحد المدافع بعد أن سقط من مكانه " [٦١].

ويقول وكيل القنصل اليوناني بالإسكندرية " أنني لا املك سوى الإعجاب بما أبداه جنود المدفعية المصرية من البطولة والبسالة والثبات في مواقعهم، كانوا شجعان يصمدون لغارات جبارة وبالقرب من الإسكندرية كانت معارك صمد فيها الجيش المصري صمودا مذهلا" [٦٢]، ففي واقعة الرمل بالقرب من كفر الدوار صد المصريون ثلاثة هجمات إنجليزية يصفها الرافعي بقوله" وهجم المصريون على الإنجليز هجوما شديدا وأضطروهم إلى التقهقر إذ ولوا الأدبار منهزمين بعد أن دام القتال ثلاث ساعات ونصف " [٦٣].

وفي واقعة عزبة خورشيد " ٧ أغسطس ١٨٨٢ " صمد المصريون صمودا باسلا ودافعوا دفاعا مجيد " [٦٤].

وكانت خسائر الإنجليز أكثر عددا من خسائر المصريين وأضطر الإنجليز في النهاية إلى التقهقر بعد قتال أستمر أربع ساعات.

وفي أيام ١٩، ٢٠، ١٢، ٢٢ أغسطس ١٨٨٢ نجح المصريون في صد الهجمات الإنجليزية المتكررة وتكبيدهم أفدح الخسائر ويقول الرافعي

معلقًا على ذلك " وتعتبر معارك الميدان الغربي في جملتها فوزا للعـرابيين؛ لأن الإنجليز ارتدوا عن خطوط الدفاع المصرية في كفر الدوار "(٦٥) وهكـذا صمد الجيش المصري أما الغزو الإنجليزي، بل وأنزل بقوات الغـزو أفـدح الخسائر مما جعل الإنجليز يفكرون في تغيير مسار الغـزو، فقـرروا نقـل المعارك إلى منطقة قناة السويس، أي غزو مصر من الشرق، وهـو الأمـر الذي لم يكن أحد يفكر فيه بفضل وجود قناة السويس؛ لأن معنى الغزو عـن طريق القناة أن تحدث تعقيدات دولية شديدة، ولكن متي كانـت المعاهـدات والتعهدات حائلا أمام المستعمر فهذا المستعمر لا يرعى حرمـة ولا يحتـرم عهودا أو معاهدات على أن المسألة كانت أيضًا اكبر من مجـرد معاهـدات دولية كانت المسألة أن الغرب كل الغرب يدعم الاحتلال الإنجليزي لمصـر، ألم تقف الدول الأوروبية تتفرج على الغزو بل وتباركه ألـم يقـوم المسـيو دكلرك رئيس وزراء فرنسا بتهنئة السفير البريطاني في بـاريس قـائلا " إن انتصار الإنجليز على المسلمين في مصر ينتج ثمرة طيبة لفرنسا في تـونس والجزائر " (٦٦).

ألم يبادر الميسو تيسو سفير فرنسا بلندن إلى تهنئة اللورد جرانفيـل وزير خارجية إنجلترا قائلا:" إن انتصار الإنجليز هو انتصار أوروبي، ولـو انهزم الجيش الإنجليزي لكان ذلك كارثة على كل الدول التي تعمـل حسـابًا للإسلام "؟(٦٧).

وهكذا لم يكن غريبا على دليسبس الفرنسي أن يخـدع عرابـي ولكـن الغريب أن عرابي أنخدع، كان المجلس العسكري بقيادة عرابي قد أنعقد فـي

شهر يوليو للنظر في أمر القناة، وأجتمع رأي المجلس على وجوب تعطيلها بحيث لا يستطيع الجيش الإنجليزي اجتيازها والوصول إلى الشاطئ الغربي منها ولكن دليسبس أرسل إلى عرابي في أن يمتنع عن قطع القناة وأكد له " أن الإنجليز يستحيل أن يدخلوا القناة " ، وحتى بعد أن وصلت البوارج الإنجليزية إلى بورسعيد أستمر دليسبس في خداعه مؤكدا استحالة دخول الإنجليز للقناة، وأنه مسئول عن ذلك شخصيًا.

وإذا كان من الطبيعي أن يدعم الغرب والفرنسيين بالذات الاحتلال الإنجليزي لمصر لذبح الثورة، وإذا كان من الطبيعي أن يساهم دليسبس الفرنسي في تحقيق ذلك عن طريق الخداع ولو على حساب شرفه الشخصي، ففي مواجهة الإسلام فالجميع مستعد لعمل أي شيء، فإن الغريب أن عرابي قد أنخدع وكان هذا سببا من أسباب الهزيمة، فلو تم قطع القناة في وقت مبكر ،وقد كان الوقت يسمح حيث أنعقد المجلس العسكري المذكور في شهر يوليو "، أي قبل احتلال القناة بوقت كاف،- احتلت القناة في ٢٠ أغسطس ١٨٨٢ "-، لو تم قطع القناة لما أمكن للإنجليز احتلال مصر وليست هذه مبالغة فالرافعي ذاته يرى هذا الرأي حيث يقول " كان الخطأ في مسألة القناة هي العامل الأكبر إن لم يكن الوحيد؛ لانتصار الإنجليز [٦٨] .

ولا شك أن عرابي قد أخطأ، وليس هناك من هو معصوم من الخطأ، وهو كقائد عسكري أو سياسي يمكن أن تخطئ حساباته ويمكن أيضًا أن ينخدع ولا يقدح هذا في كفاءته ولا إخلاصه ،نعم عرابي أخطأ، ولكن هذا الخطأ كشف إلى أي حد يمكن أن يتواطأ الغرب ضد الإسلام وضد الثورة،

وتجمع كافة المصادر التاريخية، وكل من ناقش الثورة العرابية على أن قطع قناة السويس كان بلا شك سيؤثر حتما في نتيجة الحرب، حيث أن قطع القناة سيجعل على الإنجليز احتلال البلاد عن طريق الإسكندرية وهـذا محفـوف بالمخاطر وتجربة ١٧٩٨، ١٨٠٧ تثبت ذلـك، فهنـاك نقـل سـكاني مـن الإسكندرية إلى القاهرة يمكن أن يشكل مقاومة شعبية كبيرة كما حـدث فـي ١٧٩٨، ١٨٠٧، وكذلك هناك جسور يمكن قطعها.

وهناك وسائل لإغراق المنطقة بمياه النيل وجعـل حركـة الجـيش الإنجليزي فيها صعبة جدا، وإذا كان ولابد من غزو مصر من الشرق، مـع قطع القناة، كان على الإنجليز أن ينزلوا جيشهم في بور سعيد ثم السير إلـى القاهرة ومعاناة نفس المشاكل التي يمكن أن يعانوها في طريـق الإسـكندرية القاهرة، وإذا حاولوا غزو مصر عن طريق السويس مع قطع القناة فإن معنى هذا أن طرق مواصلات الحملة ستكون طويلة جدًا حيث يلزم الدوران حـول رأس الرجاء الصالح مادامت القناة مغلقة كما أن طريـق القـاهرة السـويس أطول ومكتظ أيضًا بالثقل السكاني وهكذا فليس عجيبـا أن تجمـع المراجـع التاريخية على أن خديعة دليسبس كانت من أهم العوامل التي حسمت نتيجـة المعركة.

واجه العرابيون موقفا صعبا بعد احـتلال قنـاة السـويس، فخططهـم الأساسية اعتمدت على حشد قوتهم في الميدان الغربي (الإسـكندرية، كفـر الدوار، رشيد) اعتمادا على احترام إنجلترا لحياد القنـاة ووعـود دليسـبس وتأكيداته وبرغم الصعاب، استمر الجيش المصري في القتال بشجاعة وبسالة

ولكن الخيانة لعبت دورا آخر في هزيمة الجيش، احتل الإنجليز بور سعيد والإسماعيلية يوم ٢٠أغسطس. وكان معنى هذا أن مصير الحرب قد تقرر، يقول نينيه " وبوصول الإنجليز إلى الإسماعيلية كانت نتيجة الحملة قد تقررت "[٦٩]، ثم واصل الإنجليز زحفهم فاحتلوا نفيشة، والمجفر، ودخلوا في معركة كبيرة مع الجيش المصري في واقعة المسخوطة انتهت بهزيمة الجيش المصري وأسر رئيس الأركان محمود باشا فهمي، وكان وقوع رئيس الأركان في الأسر ضربة حاسمة أصابت الجيش المصري وجعلت نتيجة الحرب أصبحت شبه مؤكدة، ثم أستولي الإنجليز على المحسمة والقصاصين وقام الجيش المصري بالهجوم على الإنجليز في القصاصين ودارت معركة كبيرة استمرت ثلاث ساعات ثم كادوا يوقعون بالجيش الإنجليزي فيها لولا أن الخطة تسربت عن طريق الخائن على خنفس، ويقول بلنت في هذا الصدد " أن الإنجليز فوجئوا بشجاعة المصريين في هذه المعركة، وكاد الدوق أوف كنوت يقع أسيرًا " [٧٠] .

ويقول عرابي:" إنها كانت معركة شديدة، وقد خسر فيها الجيشان خسارة كبري وأن هذه الواقعة كانت أشد حرب بيننا وبين الإنجليز "[٧١] ويقول نينيه " إن إصابة القائدين الباسلين راشد باشا حسني وعلى باشا فهمي تدل على مدى بسالة الجيش المصري في نفس الوقت " [٧٢].

ويعلق عرابي على تلك المعركة في مذكراته قائلا :" إنه لولا الخيانة التي قام بها كل من على خنفس الذي سلم الخطة للإنجليز، ومسعود الطحاوي الذي ضلل محمود سامي البارودي فمنع قواته من الوصول في الوقت

المناسب لكنا قد استطعنا أن ننزل بالإنجليز خسـارة ضـخمة " (٧٣) وكانـت معركة التل الكبير هي المعركة الأخيرة وبرغم هزيمة الجيش المصري فيهـا فإنها لم تخلو من بطولات عظيمة.

فقوات الأميرالاي محمد عبيد ظلت في مواقعها تدافع حتى آخر رجـل وسقط معظمها شهيدا بما فيهم قائدها الشجاع محمد عبيد، الذي ظـل اسـمه يرعب الإنجليز طويلا واستبسل أيضًا في القتال آلاي من البياده بقيادة احمد بك فرج، وآلاي عبد القادر عبد الصمد، وتميز المقاتل حسن رضـوان مـع رجاله في القتال إذ استطاع أن يصمد للهجوم وأخذت مدافعه تصلي الإنجليز نارا حاميه وكبدتهم خسائر جسيمه، وقد لعبت الخيانة أيضًا دورها في هـذه المعركة فعلى خنفس وأحمد عبد الغفار وغيرهم من الضباط الخونـة الـذين اشتراهم سلطان باشا لحساب الخديوي لعبوا دورا حقيرا في كشف دفاعـات الجيش المصري وتسببوا في هزيمته ويقول بلنـت فـي هـذا الصـدد " إن الأميرالاي عبد الرحمن بك حسن الذي كان معهودا إليه حراسة المقدمة بـدل في مواقع الحرس خصيصًا لكي يفتح الطريق للإنجليز، وأن أ ميرالا آخر هو على بك يوسف خنفس كان على قيادة خطوط الخنـادق المتوسـطة فارشـد الإنجليز المهاجمين بأن وضع المصابيح في نقطة من الاستحكامات أخلاهـا من جنودها لكي يهتدي بها الإنجليز " (٧٤).

إذا فلم تكن عملية الغزو نزهة عسكرية وبرغم التفوق الساحق لقـوات الغزو عددا وعدة، فإن الجيش المصري قاوم مقاومة باسلة واستطاع أن يصد هجمات الإنجليز في كفر الدوار أكثر من مرة، ولم ينجح الإنجليز أبـدا فـي

اختراقها، وفي الميدان الشرقي خاصة الجيش المصري معارك باسلة في القصاصين وغيرها، إلا أن الخيانة لعبت دورها في تحقيق انتصار إنجليزي رخيص،وقد لمعت في سماء المعركة عشرات البطولات وعشرات الأسماء مثل محمد عبيد الذي صمد مع جنوده حتى أستشهد وظل لسنوات عديدة شبحا يخيف الإنجليز هنا ظهر محمد عبيد، محمد عبيد في يافا، محمد عبيد يستعد لتكوين جيش والإنجليز يصدقون ذلك، ويفتشون ويقلبون الدنيا بحثا عن البطل الشهيد. وأحمد بك فرج قومندان آلاي البياده، وعبد القادر عبد الصمد، وحسن أفندي رضوان قومندان الطوبجية، الذي مزقت مدفعيته صفوف العدو، وظل يقاتل وهو جريح، وإعجابا ببسالته ترك له ولسلي قائد العدو سيفه تقديرا له.

ومن خلف الجيش كان هناك شعبا عظيما،وقد رأينا كيف شارك وساعد في الدفاع عن الإسكندرية ضد الأسطول وكيف شارك الآلاف من الفلاحين والبدو في المعارك، مشاركة مباشرة أو عن طريق الدعم المادي والمعنوي، ألوف المتطوعين من كل مكان والتبرعات بالمال والغذاء تنهال من كل مكان، وفرق كاملة من الدعاة الثورين يحشدون الجماهير ويلهبون حماسها مثل الشيخ محمد أبو الوصل والشيخ أحمد الدمنهوري والشيخ عبد الوهاب أبو عسكر، وعبد الله النديم يجوب مصر كلها لدعم المجهود الحربي للجيش، بل ويرافق الجيش في المعارك ويخطب فيه ملهبا حماسه.

وفي صدد الدعم الشعبي يقول محمد عبده " إن الجميع قد تبرعوا بالخيل والحبوب والنقود والميرة اللازمة للجيش." [٧٥] ويذكر نينيه " أن الشعب قد

أمد الجيش بالمال والقمح والشعير والفول والسمن والخضر والفاكهة والخيل والماشية " (٧٦).

ويقول عرابي في مذكراته " إن الخزينة المصرية كانت خالية من المال؛ لأن السير كلفن المراقب المالي الإنجليزي أخذ الأموال الموجودة في خزانة المالية وأنزلها بالأسطول الإنجليزي قبل إعلان الحرب بأيام وكذلك الأموال الموجودة بصندوق الدين حملها أعضاء القومسيون إلى السفن الحربية بالإسكندرية " السير كولفن وأعضاء القومسيون يسرقون، أي يفعلون أي شيء حتى السرقة في سبيل ذبح الثورة الإسلامية والمحافظة على النفوذ الأجنبي، فأرسلت (، أي عرابي) إلى المديرين أدعوهم إلى جمع الأموال والإعانات من مديرياتهم للجيش، ولما أعلن ذلك للعموم جاءت الأمة على اختلاف طوائفها ونحلتها بالمال والغلال والخيل والجمال والأبقار والجواميس والأغنام والفاكهة والحبوب والخضراوات حتى حطب الحريق، حتى أنه عند نهاية الحرب كان في مستودعات الجيش والمخازن ما يزيد على مليون جنيه من المال والمنتجات، وكل ذلك قدم هدايا من الأمة للجيش، وأن الجيش لم ينفق عليه درهم واحد أثناء الحرب من خزائن الحكومة " (٧٧).

ويبدو عدد كبير من كبار المتبرعين مثل " موسي بك مزار الذي تبرع بألف وثلاثمائة ثوب بفتة وثلاثين عجل بقر، حميد بك أبو ستيت الذي تبرع بألف وخمسمائة ثوب بفتة للجهادية، كما قدم وجهز ألف نفر من المتطوعين، وكذلك أحمد بك المنشاوي الذي قدم تبرعات كبيرة للجيش، وعلى رأسهم طبعا السيد حسن موسي العقاد الذي تبرع بآلاف الجنيهات " (٧٨) والانطباع

الذي يخرج به أي دارس أو قارئ لأحداث تلك الفترة يكتشف أن الشعب والجماهير لم تقصر إطلاقًا وكانت على مستوى المسئولية فالشعب الذي يتبرع بمليون جنيه في شهر واحد رغم حالة الفقر التي كان يعانيها هو شعب عظيم جدًا.

بل إن قائمة المتبرعين تضم أقصى درجات الفقر وأقصى درجات الغنى مرورا بكل الدرجات فالذين تبرعوا بحطب النار كانوا أشد الفلاحين فقرا ولم يكونوا يمتلكون ألا هذا الحطب، والذين تبرعوا بالغلال والحبوب هم فقراء الفلاحين ومتوسطيهم، والذين تبرعوا بالخضراوات كانوا فقراء الفلاحين والذين تبرعوا بالفواكه كانوا ممن يمتلكون حدائق الفواكه وهم فلاحون متوسطون أو أغنياء، والذين تبرعوا بالحمير والبقر والجاموس كانوا من الفلاحين المتوسطين والأغنياء، والذين تبرعوا بالخيل كانوا من الأغنياء من الفلاحين أو الأعيان أو التجار، والذين تبرعوا بالأقمشة كانوا تجارا، والذين تبرعوا بالأموال كانوا من كبار التجار، بل تبرع أيضًا أمراء البيت الخديوي من الشرفاء الذين انحازوا إلى الأمة، فوفقا لمذكرات عرابي: (فقد تبرعت والدة إسماعيل بجميع خيول عرباتها (قال جميع وليس بعض).

واقتدى بها بقية أفراد العائلة الخديوية وحرم خيري باشا رئيس الديوان الخديوي وحرم رياض باشا" (٨٠).

ووفقًا أيضًا لمذكرات عرابي " فإن من الأهالي من تبرع بنصف ما يمتلك ومنهم من تبرع بجميع ما يمتلك " (٨١) ،أليس هذا شعبا عظيما .والشعب تطوع في القتال؟ فالعربان تطوعوا، والبدو تطوعوا والفلاحون تطوعوا، وطلبة الأزهر والمدارس تطوعوا، والبعض كان يجهز المتطوعين بالسلاح، ووصل عدد المتطوعين في تقدير الرافعي أكثر من ثمانين ألفا،

حيث بلغ عدد المقاتلين حوالي ١٠٠ ألف بعد أن كان عدد الجيش ١٣ ألفا في بدء القتال، أي أن عدد الذين قاتلوا فعلا مع الجيش من المتطوعين كان٨٧% بخلاف من تطوع في نقل المؤن والسلاح ومساعدة الجرحـــى، وصـــحيح أن هؤلاء المتطوعين لم يضيفوا كثيرا إلى قوة الجيش النظامي ولم يؤثروا على نتائج المعارك؛ لأنهم غير مدربين على الحرب النظامية، ولكن ذلك لم يكــن خطأهم، بل خطأ قيادة الثورة، وكان من المفروض ألا ينضم هؤلاء للجــيش النظامي،بل أن تستفيد بهم قيادة الثورة في عمليات الكفاح الشــعبي المســلح، وكان هذا لو حدث كفيلا بإفشال الغزو تماما واندحار الإنجليز، ألم يحدث ذلك في ١٧٩٨- ١٨٠١- ١٨٠٧). وبالطبع كان الملايين مستعدين للمشاركة في هذا الكفاح الشعبي المسلح لو أرادت قيادة الثورة وعملت لهذا.

إذا فالشعب لم يقصر، وعلى مستوى الجيش و برغم عدم تكافؤ القــوى صمد الجيش في الميدان الغربي حتى النهاية، وانهزم في الجناح الشرقي؛ لأن الدفاع عن هذا الميدان لم يكن في تخطيط القيادة اعتمادا على وعود ديليسبس أو الثقة في حياد القناة واحترام إنجلترا لاتفاقياتها الدولية، ومــع ذلــك قاتــل الجيش ظهرت البطولات، ولولا الخيانة لكان الأمر مختلفا ولكــن انهزمــت الثورة في النهاية، ودخل الإنجليز القاهرة واستسلم عرابي، فما هي أســباب الهزيمة ؟

***

أسباب الهزيمة

كانت أسباب الهزيمة كثيرة ومتعددة، منها ما هو عام ومنها ما هو خاص، منها ما هو فوق طاقة الثورة ومنها ما هو بسب أخطاء قيادة الثورة، لعل الحديث عن تلك الأسباب يوضح السؤال الهام الذي يقفز أمام، أي باحث أو قارئ وهو لماذا نجحت مصر في صد الغزوتين الفرنسية في ١٧٩٨-١٨٠١، والإنجليزية في ١٨٠٧ وفشلت في ذلك سنة ١٨٨٢، في ١٧٩٨، ١٨٠٧ كانت هناك مؤسسات وأوضاع اجتماعية وسياسية واقتصادية تحقق أقصي قدر من حشد الجماهير وتحريكها وتنظيمها في عملية المقاومة،وقد قام محمد علي بضرب تلك الأوضاع وتصفية تلك المؤسسات وخاصة الأزهر، ثم أكمل ورثته من بعده ذلك، بالإضافة إلى الآثار السلبية لعمليات الاختراق الأوروبي لمصر اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا والتي استمرت وبلا هوادة منذ ١٨٤٠ إلى ١٨٨٢ وبالتالي فإن قدرة المؤسسات وتلك الأوضاع الاجتماعية على حشد الجماهير وتعبئتها كان قد ضعف في ١٨٨٢ برغم أنها حاولت على قدر استطاعتها، وبالطبع كان هذا العامل فوق طاقة الثورة وليس لها ذنب فيه، بل هي بالتحديد قامت من أجل استعادة تلك الأوضاع والقضاء على عوامل الاختراق والاستبداد.

في ١٧٩٨- ١٨٠٧ كانت أوضاع العالم الإسلامي والخلافة الإسلامية أفضل كثيرا جدًّا من تلك الأوضاع سنة ١٨٨٢ وصحيح أن منحني الحضارة الإسلامية في الحالتين كان في حالة هبوط – ولكن درجة هبوطه في ١٨٨٢ كانت أكبر من ١٧٩٨- وهذا أيضًا كان أمرا فوق طاقة الثورة ولم تكن لها يد

فيه – بل عن الثورة قامت لمحاولة وقف الهبوط في هذا المنحني ومحاولة عمل انقلاب في اتجاه الصعود من جديد، في الحالة الأولى – كان حكام مصر" المماليك " رغم كل أخطائهم اختاروا القتال ضد الفرنسيين الكفار في ١٧٩٨ – ١٨٠١ وخاضوا العديد من المعارك ضدهم – وحتى بعد هزيمتهم في القاهرة استمروا يقاتلون في الصعيد حتى النهاية – وفي ١٨٠٧ تكرر الشيء نفسه وإن كانت مساهمتهم كانت أقل؛ لأن محمد علي كان يطاردهم وعلى كل حال، فهم لم ينحازوا للإنجليز .

أما في (١٨٨٢) فقد أختار الخديوي أن ينحاز إلى معسكر الإنجليز وتجمعت حوله فلول الخيانة والتردد – وهذا أيضًا كان فرقا بين زمانين وبين نظامي حكم وعلى مستوى الأسباب المترتبة على أخطاء الثورة وقيادتها فإن الهزيمة كانت للأسباب الآتية:

١- إن الثورة لم تبادر إلى الإطاحة بنظام الحكم الخديوي مبكرا مما جعله يشكل في النهاية نواة تتجمع حولها قوى الخيانة والتردد.

٢- إن الثورة أخطأت في حساباتها عندما اعتمدت على التوازن الدولي في منع الإنجليز من الدخول عن طريق القناة.

٣- إن الثورة اعتمدت على الجيش في المقاومة، وبديهي أن الجيش الإنجليزي كان أقوى عددا وعدة، ولو لجأت الثورة إلى الحرب الشعبية لتغيرت النتيجة تماما، وكان هذا متاحًا على كل مستوي، فالجماهير لم تتأخر لحظة وكانت دائما أعظم من الثورة وأعظم من قيادتها، أما اختيار الثورة لأسلوب الحرب النظامية في مواجهة جيش حديث ذو تسليح أفضل

فهذا معناه الهزيمة المؤكدة، بل إن تطوع الأهالي هنا سيكون عبئا على الجيش وليس إضافة له، فالمتطوعون بالطبع لا يصلحون للحرب النظامية، والحرب النظامية ذاتها لا تصلح في مواجهة جيش أقوى عددا وعدة.

٤- إن قيادة الثورة أخطأت خطا جسيما عندما استسلمت بعد هزيمة التل الكبير فقد كان من الأفضل على كل مستوى استمرار المقاومة الشعبية المسلحة، والفرصة كانت مهيأة لذلك فقد كانت هناك جماهير جاهزة لذلك، بل هي حاولت من تلقاء نفسها وصرفها محافظ القاهرة، وكذلك كان هناك أجزاء من الجيش في دمياط وكفر الدوار مازلت قادرة على المقاومة.

٥- إن جهاز الثورة أفتقد الكفاءة في اكتشاف وضرب الخونة كما أن الثورة لم تعالج مسألة الخونة بالحسم الكافي، ولو كانت الثورة تمتلك جهازا كفأ في هذا الأمر لقضي على خلايا الخونة في مهدها ولتغيرت نتيجة المعارك كثيرا، حيث أن الخيانة لعبت دورا كبيرا جدًّا في الهزيمة، لدرجة أن المؤرخ بيوفيس يقول " لا تحسبوا أن انتصار القوات الإنجليزية كان بسبب كفاءة قوادها ومهارتهم ولكن كان سببها الخيانة، فالذي هزم عرابي ليس الجنرال ولسلي ولكن الذي هزم هو سلطان باشا وعلى خنفس وغيرهما من الخونة " (٨٢).

***

الإنجليز يشربون الأنخاب في القاهرة

أحداث ما بعد التل الكبير، وهي التسليم، والمحاكمة تستحق أكثر من تأمل، فما حدث في تلك الفترة من أحداث وتصرفات أعطت خصوم الثورة وأعداءها سلاحا قويا لذبح سمعة الثورة وسمعة عرابي، وجعلت حسني النية يبتلعون الطعم إلى آخره، ولكن هذا كله بالطبع لم يكن يستهدف ذبح الثورة لا ذبح عرابي، فالجيش الإنجليزي قد فعل ذلك ، ولكن كان المطلوب ذبح ما تبقي من جذور ثورية وإسلامية لا تموت داخل التربة الشعبية، كان المطلوب هو ذبح الأمل ونشر روح اليأس حتى لا تنبت بذور المقاومة ضد الاحتلال ويستمر الاحتلال جاثما على صدرنا،وقد فعل الإنجليز بذكائهم التقليدي ورؤيتهم المستقبلية كل ما يمكن لتحقيق ذلك،وقد فعل أيضًا مثقفي المدرسة الاستعمارية نفس الشيء، وهذا بالطبع شأنهم فهم جميعا يعملون لصالح قوى الاستعمار ويعملون ضد الثورة الإسلامية أمس واليوم وغدا، ولكن علينا أن نلفت نظر حسني النية فلا يبتلعون الطعم الخبيث، وأن يضعوا المسائل في موضعها الصحيح، وفي إطار ظروفها الموضوعية، ولنبدأ بعرابي، عاد عرابي إلى القاهرة بعد هزيمة التل الكبير، تدارس الموقف العسكري على الطبيعة فلم يجد ألا عدد ضئيل من الجنود النظامين " ٤٠ جندي و١٠٠٠ خفير " وبالحسابات العسكرية البحتة وجد أن الدفاع عن القاهرة مستحيل، نصحه نينيه بتسليم نفسه كأسير حرب إلى القائد البريطاني وبديهي أنه يترتب على ذلك أن يعامل كأسير حرب وفقا للقواعد المعمول بها في هذا الصدد، قبل عرابي نصيحة نينيه وأمر جنوده بالتسليم، وذهب هو وطلبه باشا إلى

مركز القيادة الإنجليزي في العباسية وسلما سيفهما للقائد البريطاني الذي أمر باعتقالهما، بعد ذلك تم نقله إلى حيث تمت محاكمته على يد محكمة عسكرية شكلها الخديوي، وصدر الحكم على عرابي بالنفي وتم تنفيذ الحكم، حدثت مشاجرات بين المنفيين، صدرت عن عرابي عند الإفراج عنه تصريحات سيئة أو تنسب إليه تصريحات سيئة إذن فعرابي تصرف كقائد عسكري مهزوم، سلم سيفه للقائد المنتصر، ولا شك أن عرابي أخطأ هنا، فهو لم يكن مجرد قائد عسكري مهزوم، بل هو قائد الجناح العسكري للثورة وعليه أن يتصرف في هذا الإطار، ولا شك أنه كان من الأفضل بكل الحسابات أن يستمر عرابي في المقاومة بما بقي من الجيش مهما كان ضعيفا وأن يفجر مقاومة شعبية مسلحة ضد الاحتلال.

ولا شك أن هذا كان هو الطريق الصحيح لقائد يمثل ثورة، ولا شك أيضًا أن الكفاح الشعبي المسلح هو الطريق الوحيد والحتمي؛ لأننا أمام قوى استعمارية أقوى منا عسكريا وبالتالي فلن ينجح معها جيش نظامي، بل كفاح شعبي مسلح وواسع نعم علينا هنا من أجل المستقبل أن نقر بخطأ عرابي، ولكن أيضًا علينا أن نحاول أن نتفهم سلوك الرجل في ضوء تفكيره هو حتى ولو كنا مبدئيا نخطئ هذا التفكير، فعرابي هنا لم يتصرف بمنطق قائد يمثل ثورة، ولكن بمنطق قائد عسكري مهزوم ظن أنه سوف يعامل كأسير حرب، وبالتالي فمنذ الآن علينا ألا نعامل عرابي كأحد قادة الثورة وألا ننسب أي سلوك يسلكه إلى الثورة بل إليه هو شخصيا كقائد عسكري أسير،نعم عرابي ظل طوال الثورة كقائد عسكري لها، ورفض دائما الخضوع لأعداء الثورة،

بل وقاتل مع الثورة رغم أنف الخديوي، بل وأستمر في المقاومة بعد خيانة الخديوي وإصدار قرار عزل عرابي، أي أن عرابي أستمر يقاتل طالما كانت هناك قوة عسكرية مصرية تسمح بالقتال، أستسلم عندما انهارت تلك القوة، ومنذ استسلامه علينا أن نفصل بينه وبين الثورة هذه واحدة، والثانية أن وقائع الثورة كلها تقول أن زعيم الثورة هو عبد الله النديم، فهو الذي فجر الثورة بخطبه وأفعاله وتحركاته، وكان دائما من وراء كل الأحداث الكبرى في الثورة، فهو الذي يقود الجماهير في التظاهر وتوقيع العرائض، وهو الذي يحشدها خلف الجيش في المعارك مع الخديوي أو مع الإنجليز، وهو أيضًا فيلسوف الثورة وجهاز دعايتها، ووقائع الثورة تقول أن القائد السياسي للثورة هو محمود سامي البارودي، فهو رئيس الوزارة في وزارة الثورة، في حين أن عرابي كان وزيرا للحربية فيها إذن فيجب وضع سلوك عرابي في هذا الإطار، فعرابي لم يكن زعيم الثورة ولا مفجرها وكذلك لم يكن قائدها السياسي، بل هو قائد الجناح العسكري للثورة أو قائد جيش الثورة، وبالتالي فإن خطأ عرابي في التسليم للأعداء ينحصر في إغفاله كونه قائدا عسكريا يمثل ثورة.

وبالطبع فإن محاولة جعل عرابي زعيم الثورة أو قائدها السياسي ومحاسبته ومحاسبة الثورة على هذا الأساس هي محاولة مشبوهة تستهدف تحقيق اكبر قدر من الإساءة إلى عرابي شخصيا وإلى الثورة وهكذا فإن عرابي قد أدي واجبه طوال مراحل الثورة في إطار أنه القائد العسكري لجيش الثورة أو قائد الجناح العسكري للثورة، وينحصر خطأه في موضوع التسليم

في كونه قائد عسكري يمثل ثورة وليس مجرد قائد عسكري هزم في معركـــة أما بشأن ضعف عرابي أثناء محاكمته، فهذا من الضعف الإنساني الذي ينتاب الكثير من المناضلين في السجون والمعتقلات ولا يشكل بأي حال من الأحوال أدانه لهم، ولكن بالطبع فإن الذين يظهرون استعلاء وتماسكا أثناء المحاكمات والسجون هم أفضل من الذين يضعفون، وأما بخصوص المشاجرات الصبيانية بينه وبين رفاق المنفي فهذا من الملل الذي يعرفه الذين عانوا مـــن فتـــرات السجون الطويلة وليس له أي دلالة سياسية أو نضالية، ولا مانع أن نكرر أن المتماسكين في هذه الظروف أفضل من غير المتماسكين، وأخيرا بخصـــوص ما نسب إليه من تصريحات عقب عودته من المنفي، فالله يعلم مدى صحتها، وحتى يفرض صحتها فلا قيمة لها، فلم يكن عرابي عند ذاك ممـــثلا لحركـــة الجماهير ولا غيرها، بل كان مصطفى كامل في ذلك الوقت هو قائد النضال الشعبي ضد الاحتلال، وعلى كل حال، فإن مصطفى كامل قد انتقد عرابي في تلك التصريحات في حين أنه أشاد بمحمود سامي البـــارودي، أي أن الجيـــل الثاني من حركة الكفاح يقول نحن نعتز بالثورة، ونرفض التصرفات المترتبة على الضعف الإنساني ويجب أن نفهم موقف الحزب الـــوطني مـــن الثـــورة العرابية في هذه الإطار، فمن المعروف أن الحزب الوطني كان يشيد دائمـــا بالنديم وبالبارودي، وكان يعترض على أخطاء عرابي التي حدثت في إطـــار ضعفه الإنساني وخاصة في فترة سجنه ومنفاه وبالطبع فإن أولي العزم مـــن المناضلين في لحظات المد ولحظات الجذر أفضل من غير أولي العزم.

ويظل دائما الاعتزاز بالثورة العرابية، وبعرابي كقائد للجناح العسكري للثورة رغم ضعفه الإنساني في السجن والمنفي، ومن كان من المناضلين بلا ضعف فليلقي عرابي بحجر.

على أن عددًا آخرًا من رجال الثورة كان يريد المقاومة ويحاول أن يؤدي واجبه حتى اللحظة الأخيرة، فمحمود سامي البارودي يرفض أن يسلم نفسه مع عرابي وطلبة، وذهب إلى المنصورة ومن هناك أبرق إلى عرابي يطلب إغراق مديريتي القليوبية والشرقية ليعطل زحف الجيش الإنجليزي ثم الاستيلاء على جميع المراكب في النيل وشحنها بالذخيرة وتوجيهها إلى الصعيد مع الجيش، ومن الصعيد تستمر المقاومة أو من السودان إذا أعجزهم الدفاع من الصعيد " (٨٣) وفي دمياط أبي عبد العال حلمي أن يستسلم، وحاول إقناع الأهالي بأن عرابي مازال يقاوم، ودعا إلى القتال حتى النهاية وأستمر على موقفه حتى يوم ٢١ سبتمبر " (٨٤) وفي القاهرة " قال الأميرالاي أحمد نير أنه يقف في وجه العدو ويقاتله برجاله الأربعين حتى يموت معهم " (٨٥) بل أن الأمير إبراهيم باشا ابن عم الخديوي الخائن توفيق، وكان هذا الأمير من المؤيدين للثورة، قال " الواجب هو الدفاع مادام فينا بقية.

وفي القاهرة " حاول أهالي باب الشعرية والحسينية أن يحاربوا الإنجليز ولو بالنبوت فمنعهم محافظ القاهرة وأخذ يراقب حركاتهم منعا لوقوع الاحتكاك بين الإنجليز والأهليين. (٨٦)

لكم اليوم وغدًا لنا

وفي المحاكمات ظهرت أيضًا حالات الاستعلاء والصمود وليس الضعف فقط، فالشيخ حسن العدوي مثلا عندما سألته المحكمة هل أصدرت فتوى بعزل سمو الخديوي توفيق ؟ يجيب في استعلاء وشموخ " لو قدمت المحكمة الآن فتوى بعزل توفيق " لاحظ توفيق بدون خديوي أمام محكمة شكلها توفيق نفسه " لما ترددت " بل ويضيف " وليس في وسع هيئة المحكمة وأعضاؤها مسلمون أن تنكر أن توفيق مستحق للعزل؛ لأنه خرج على الدين والوطن " (٨٧).

ويوسف أبو رية الذي يصدر عليه الحكم بالإعدام، وعندما يأتي أوان التنفيذ، يسأله الجلاد هل تريد شيئًا قبل إعدامك ؟ فيرد قائلا" أريد لمصر الاستقلال – لكم اليوم وغدًا لنا " (٨٨).

والسيد حسن موسي العقاد تلت المحكمة عليه رسائل لم تكن بخط يده، تقول تلك الرسائل أن توفيق أهبل وأنه لم تعد له ولاية على مصر فقد خرج على الشرع؛ لانضمامه إلى الإنجليز، فقال العقاد ببساطة " نعم أنا كاتب هذه الرسائل، برغم أنها لم تكن بخط يده، بل وأعترف أنه وقع قرار عزل توفيق راضيًا مختارًا عندما حاولت المحكمة استدراجه إلى أنه اكره على توقيعها، ولما سئل عن ثروته أين ذهبت– وقد كان تاجرًا ثريًا جدًا، بل كبير تجار مصر– قال أنفقتها في سبيل الثورة.

كان هؤلاء الرجال الذين حاولوا الاستمرار في المقاومة والذين لم يضعفوا في المحاكمة، كانوا هؤلاء جميعا يحمون جذور الثورة ويحافظون

على شعلتها متقدة تحت الرماد، وكان قبل هؤلاء زعيمها ومفجرها وفيلسوفها عبد الله النديم الذي رفض التسليم، واختفي داخل الوجدان المصـــري، تســـع سنوات كاملة، يحمل مشعل الثورة ويرعى جذورها، ويحـــرث الأرض مـــن جديد ويسقيها، وكان معه كل الذين أحبوا الثورة وحلموا بها مـــن البســـطاء والشرفاء وهم الشعب جميعا، هؤلاء الذين رفضوا تسليم النديم و أخفوه فـــي حبات عيونهم، رغم سيف الاحتلال والخـــديوي، ورغـــم ذهـــب الاحـــتلال والخديوي، هؤلاء الذين رفضوا أن يسلموا النديم أو يرشدوا عن مكانه برغم ألف جنيه مكافأة مرصودة لمن يرشد عنه، وبعضهم لم يكن قد أمتلك يوما ولو جنيها واحدا أو حتى امتلأت بطنه يوما ولو من الخبز الجاف، كـــان النـــديم يحمل شعلة الثورة، تحميه الجماهير، وكان يراسل عرابي في المنفي، ويعمل على إعادة تشكيل قواعد الثورة، أو على الأقل تسليم الشـــعلة متقـــدة للجيـــل الثاني،وقد وفي النديم وسلم الشعلة إلى مصطفى كامل.

الدهاء الإنجليزي

كان الإنجليز مرعوبين مذعورين، فهم يعرفون أنه لا يكفـــي احـــتلال مصر للبقاء فيها، فنابليون احتلها ١٧٩٨، واستمر الشعب يقاوم إلى أن هـــزم الحملة الفرنسية فرحلت ١٨٠١.

كان الإنجليز يعرفون أنه طالما كان هناك تفكير ومحاولات للمقاومة فإن الجذور موجودة والشعلة متقدة تحت الرماد، خاصة وأن النديم زعـــيم الثـــورة وجهازها الإعلامي ومفجرها وعقلها المفكر قد أختفي داخل مصر، أي أن النواة مازلت في التربة، والتربة صالحة، ومن يدري، فإذا كان اليوم للإنجليـــز فلعـــل

الغد يكون للثورة، وتحرك الإنجليز تحت تأثير رعبهم وخوفهم من هذا الغد، في محاولة شيطانية لإفساد هذا الغد ومصادرته قبل شروقه تحركوا لقتل الأمل، وإلقاء الحشائش الضارة على التربة لتخنق الجذور الثورية، كانوا يعرفون أن القبض على ٣٠ ألفا لا يكفي، ومحاكمة المئات لا يكفي، بل لابد من انتزاع الفكر الثوري من الواقع المصري، وفي هذا الإطار جاءت عملية الإساءة المتعمدة إلى رموز الثورة، وخاصة عرابي فأشاع الإنجليز أنه عقد معهم صفقة عندما سلم نفسه وتظاهروا بالدفاع عنه أمام المحكمة ومنعوا إعدامه؛ لأن إعدامه سيحوله إلى شهيد ورمز في نظر الجماهير مما يلقي ماء عذبا على جذور الثورة أو زيتا على قنديلها المشتعل تحت الرماد، وفي نفس الوقت فإن الدفاع عنه عن طريق محامين إنجليز يسئ إلى الرجل، والإشاعة التي أطلقوها وجدت بالطبع من العملاء ومن الأغبياء من يرددها، وفي الحقيقة فإن حكاية تلك الصفقة ظلت مجرد إشاعة تغذيها الدوائر الاستعمارية ويرددها الأغبياء، ولكنها لم ترد في، أي مرجع محترم أو حتى غير محترم، بل إن الرافعي الذي لا يترك نقيصة إلا وألصقها بعرابي رفض هذه الإشاعة ونقدها؛ لأنها بالطبع لا تحمل، أي جانب جدي أو منطقي، وإذا كان الأغبياء قد رددوا تلك الإشاعة الخبيثة التي روجتها وتروجها الدوائر الاستعمارية، فإن الوجدان الشعبي الذي أخفي النديم تسع سنوات، رد بطريقته الفذة على ذلك الدهاء الشيطاني الإنجليزي، فردد الفلاحون البسطاء أقوالا وأ شعارا هي الوعي بعينه، فالولس هو الذي هزم عرابي، أي الخيانة، وأن عرابي مازال في وجدانهم رمزًا للثورة على النفوذ الأجنبي، وقائد عسكريًا ثوريًا مخلصًا ومازال البسطاء والثوريون والشرفاء يغنون المواويل " من طلعة الفجر قومي يا مصر يا عياشة، وقمري العيش، ومدى أيدك لأحمد عرابي باشا، آمر لواء الجيش ".

دروس الثورة وعبرها

من البديهي أن الكتابة عموما و كتابة التاريخ وقراءته خصوصا ليست بهدف التسلية أو الامتاع، بل هو محاولة لاستخلاص التجارب والعبر والدروس بهدف الاستفادة منها، أي أنه موجه للمستقبل، هذه واحدة والثانية أن العوامل التي تفاعلت وأثرت في أحوال أمتنا في تلك الفترة مازالت موجودة، بل ربما أمتنا تعاني حتى اليوم نفس الظروف، ونفس التحديات بل نفس الأساليب، وبديهي أيضًا أن الحديث عن الثورة العرابية باعتبارها محاولة إسلامية للتخلص من النفوذ الأجنبي ووضع قواعد النهضة والاستقلال أمر هام وضروري لمستقبل ومصير أمتنا المرتبط في محاولة للاستقلال والنهضة بالثورة الإسلامية باعتبارها الوسيلة الوحيدة لتحقيق الاستقلال والنهضة، وكثيرة هي دروس الثورة، وكثيرة هي تجاربها:

التخلص من النفوذ الأجنبي فريضة إسلامية

لعل أول وأهم هذه الدروس هو أن التخلص من النفوذ الأجنبي ومقاومة الاحتلال السلمي أو العسكري، وعملية تحقيق الاستقلال السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي فريضة إسلامية بل هي فريضة مقدمة على الصلاة ذاتها، وأن ممالأة الأجانب مجرد ممالأتهم خروج عن الشروع، وبالطبع الانحياز لهم خروج عن لشرع، وفي الحقيقة فإن المسألة، هي سبب الثورة، واكبر أهدافها إن لم يكن الهدف الوحيد باعتبار الأهداف الأخرى متفرعة عن هذا الهدف ومرتبطة بمحاولة تحقيقه، وهذا السبب هو مفتاح فهم الثورة، مفتاح فهم أفكارها وتصرفاتها ومفتاح فهم تصرفات القوى المعادية للثورة،

نعم كان التخلص من النفوذ الأجنبي هو الهدف الوحيد والأكبر للثورة على مستوى أفكار قادتها وعلى مستوى وسائل الثورة أيضًا في حشد الجماهير وعلى مستوى حركة الثورة وأحداثها، فالأفغاني باعتباره الأب الروحي للثورة كان هو ذاته ثورة على النفوذ الأجنبي، وفي كل خطبه ودروسه وتحركاته كان يدعو إلى " تخلص أهل الإسلام من سيطرة أهل الكفر ".

وكان يحدد الوسائل الكفيلة لتحقيق هذا الأمر ويحلل الأسباب التي أدت إليه فهو يرى أن استبداد الحكام هو الذي مكن الأجانب في بلادنا، وأن تفرق كلمة هؤلاء الحكام هي أيضًا التي أدت إلى امتلاك الكفار لديار الإسلام،وأن الفساد والرشوة هما اللتان مكنتا الأجنبي من اختراق بلاد الإسلام، وهو حين يدعو إلى الجهاد والوحدة والحرية فمن أجل التخلص من سيطرة أهل الكفر على أهل الإسلام.

وعبد الله النديم مفكر الثورة وزعيمها، كان لا يفتأ في خطبه ومقالاته وجميع أعماله الفنية والأدبية يدعو إلى التخلص من النفوذ الأجنبي، ويحلل أيضًا هذا النفوذ وخطورته اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا، بل يصل إلى درجة الهجوم على تقليد السلوك الأوروبي، ويصل أيضًا إلى درجة التحريض على العنف في مواجهته، أنظر إلى النديم يقول " إن الأجانب أصبحوا إخطبوطا ضخما في مصر، حتى لكأنك تشعر أنك غريب في بلادك فتخيل نفسك عائدا إلى وطنك بعد غيبة، وحين تصل إلى الإسكندرية فسوف تجد قائد الميناء بحارا إنجليزيا، فإذا وصلت إلى حقائبك بالجمرك فستجد مديرا إنجليزيا كان موظفًا سابقًا في مصلحة البريد، فإذا أردت أن تسافر إلى القاهرة بالسكة

الحديد فسوف تجد هذا المرفق يدار بواسطة موظفين إنجليز وهنود وفرنسيين، فإذا أردت أن ترسل تلغرافا إلى أهلك تنبئهم بوصولك فستجد المشرف علــى التلغراف موظفًا إنجليزيا أيضًا، وإذا أردت أن ترسل لأصــدقائك خطابــات تخبرهم بقدومك فستجد مصلحة البريد مرؤوسة لموظف سابق فــي البريــد الإنجليزي "(٩٠).

وعرابي يقول في مذكراته" ثم أخذت في نشر أفكاري بين علماء الأمة وأعيانها وعمد البلاد ومشايخ العربان، طالبا منهم تأييدي في مطــالبي لكــي ننتشل الأمة من وهدة الاضمحلال وهاوية التلاشي التي سقطت فيها أو كادت بتفريط الحكومة في صفوف الأمة للأجانب وممالأتها لهم، وببيعها كثير مــن الأراضي لهؤلاء الأجانب مع تعيــين كثيــر مــنهم فــي إدارات الحكومــة ومصالحها بالمرتبات الفاحشة " (٩١).

ويقول الرافعي في أسباب حركة ٩ سبتمبر ١٨٨١) : " كانت المظــالم التي أشتكى منها زعماء الجيش تشبه المظالم التي كان الشعب يشكو منها، ولم يكن الناس راضيين عن الحكومة وسياستها، كانوا يتبرمون بمظالم الحكومــة وينقمون من الوزارة استسلامها للنفوذ الأجنبي وخضوعها لأوامر القناصــل ومحاباتها الموظفين الأجانب في مصالح الحكومة وتمييزها إياهم بالرواتــب الكبيرة والمزايا العديدة" (٩٢).

بل الأكثر دلالة في هذا الأمر أن الأمة عندما قررت توكيل عرابي في المطالبة باسمها بمطالبها، كانت وثيقة التوكيل تنص علــى أســباب الثــورة وأهدافها كالتالي: " أن الحكومة خاضعة للنفوذ الأجنبــي، وأنهــا مستســلمة

لأوامر القناصل، وأنها تبيع الأراضي للأجانب، وأن الأجانب تحكموا في مالية البلاد، وأن الموظفين الأجانب قد انتشـــروا فـــي كـــل الوظـــائف والمصالح" (٩٣).

أي أن البرنامج المعلن للثورة، أو العقد الذي وكلـــت الأمـــة بمقتضـــاه عرابي للمطالبة باسمها فقد حصر المسألة في التخلص من النفـــوذ الأجنبـــي، ليس هذا فحسب، بل إن علماء الأمة عندما قرروا خلـــع الخـــديوي بفتـــوى شرعية استنده ا في هذه الفتوى على أن الخديوي يمالئ الأجانب وباع بـــلاد الإسلام للأجنبي وأنحاز إلى الإنجليز.

وهكذا كان النفوذ الأجنبي هو سبب الثورة والتخلص منه هـــو هـــدفها الأكبر إن لم يكن الوحيد.

وعلى مستوى ممارسات الثورة نجد أن الثورة رفضت دستور شريف باشا رغم ما فيه من مميزات كثيرة؛ لأنه حرم مجلس النواب من حق نظـــر الميزانية وإقرارها، أي أن الثورة رفضت كل ما في الدستور من مميـــزات؛ لأنه حرمها من أهم أهدافها وهو ضرب النفوذ الأجنبي، فما دام نواب الأمة لا ينظرون في الميزانية، أي مادام النفوذ الأجنبي مازال مسيطرا علـــى ماليـــة البلاد فالدستور مرفوض ألم تقم الثورة أصلا للتخلص من هذا النفوذ بالتحديد وهناك حادثة ذات دلالة هامة في هذا الصدد وهي أن السيد أمين الشمس تقدم بطلب إلى مجلس النواب لمنع تصدير الغلال حتى لا ترتفع أسعارها، والسيد أمين الشمس هو أحد عناصر الثورة، بتقديمه هذا الاقتراح يعنـــي أن الثـــورة كانت تفكر في الاستقلال الاقتصادي لأنها حين تمنع الغلال من التصـــدير

اليوم، ثم تزرع وتصنع ما يحتاجه الناس غدا ثم تمنع استيراد كذا من البضائع حتى لا تضر المنتجات الوطنية، فإن هذا يؤدي إلى الاستقلال بالسوق وقطع خيوط التبعية للاقتصاد الأوروبي.

ومعنى هذا أن الثورة لم تكن تريد ضرب النفوذ الأجنبي في مصر فقط بل الاستقلال بالاقتصاد إنتاجا واستهلاكا، أي وضع قواعد النهضة الاقتصادية على أساس الاستقلال، وليس التبعية.

ولعل هذا يكون درسًا لنا، فالقضاء على التبعية والقضاء على النفوذ الأجنبي يجب أن يكون الهدف الأول للحركة الإسلامية وللثورة الإسلامية فطالما كان هناك نفوذ أجنبي، وطالما كانت هناك تبعية، وطالما كانت بلادنا مستهدفة للسيطرة الاستعمارية فالانعتاق من هذه السيطرة والتبعية والنفوذ فريضة إسلامية مقدمة على غيرها من الفرائض.

الحركة الإسلامية ليست حركة طائفية

لاشك أن الحركة الإسلامية لم ولن تكن حركة طائفية، وكذلك الثورة الإسلامية لم ولن تكون حركة طائفية، هذه حقيقة يدركها كل من عرف الإسلام وكل من درس الحضارة الإسلامية سواء كان مسلما أو غير مسلم، فأي باحث موضوعي أيا كان انتماؤه الديني أو الاجتماعي أو القومي أو الثقافي أو السياسي يعرف هذه الحقيقة؛ لأنها واضحة وضوح الشمس لكل ذي عينين فالإسلام، هو رسالة الله سبحانه وتعالى إلى الإنسان منذ بدء الخليقة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو تكليف للإنسان بالاستخلاف في الأرض وعمارتها بمقتضي العدل والإحسان، وهو دعوة إلى التفكير بحرية،

ودعوة إلى التصدي لكل من يحاول أن يصادر حرية التفكير أو يمارس الظلم على الإنسان بأي صورة من الصور.

وهذا بالتحديد هو مفهوم الجهاد، فالجهاد ما هو ألا حركة يقوم بها هؤلاء الذين حملوا الرسالة للقضاء على كافة أشكال وألوان الظلم والاستبداد والقهر سواء كان ذلك نظام حكم – أو نظام اجتماعي – أو طبقي أو عشائري أو غيرها –، فإذا ما ارتفعت وسائل القهر والاستبداد والظلم – كان للناس أن يختاروا عقيدتهم بحرية (لا إكراه في الدين) – إذن فالجهاد ليس إكراه أحد على دين معين أو تفكير معين – بل هو العكس من ذلك تمامًا – ، أي أنه حركة لتحقيق الحرية برفع أسباب غيابها – وكذلك ليس الجهاد لسيادة جنس على جنس أو قومية على قومية أو دين على دين أو طائفة على طائفة – بل هو دعوة للعدل – وهو كذلك ليس وسيلة لاستئثار مجموعة من الناس تنتمي للإسلام مثلا بالثروة والسلطة دون الناس – بل هو عكس ذلك تماما، أي أنه يرفع الاستبداد والظلم الطبقي والقومي والديني، إذا الإسلام على كل صعيد ليس دينا طائفيا وصحيح أن الناس بمجرد أن ترتفع عنهم أسباب الظلم والاستبداد والفقر والجهل يعتنقون الإسلام طواعية – ولكن ذلك؛ لأن الإسلام هو فطرة الله في الناس جميعا – ، فإذا انتفت عوامل القهر – رجع الناس إلى فطرتهم ببساطة – هذا من ناحية – ومن ناحية أخرى فإن الحضارة الإسلامية لم تمارس أبدا طول فترة سيادتها، أي شكل من أشكال الاضطهاد الطائفي – بل عندما غاب الحكم الإسلامي ظهرت المذابح الطائفية ومهما كانت أحوال الحضارة الإسلامية – حتى لحظات ضعفها لم يحدث منها، أي اضطهاد

طائفي – رغم آلاف العوامل الاستفزازية التي كانت تدفعها وتغريها بـــذلك – ولكن الحضارة الإسلامية في لحظات ضعفها وبرغم التآمر في داخلهـــا مـــن بعض الطوائف فضلت الانتصار لقيم الإسلام على الانتصار لوجودها ذاته،

وإذا حاولنا أن نضرب قليلا من الأمثلة نجد أن بلـــدا كلبنـــان متعـــدد الطوائف والمذاهب لم يشهد المذابح الطائفية إلا بعد سقوط الحكم الإســـلامي وسقوطه في يد الاستعمار الفرنسي بل حتى في ظل هذا الاحتلال – فإن رجلا مثل عبد القادر الجزائري الزعيم الإسلامي المعروف والذي كان منفيا قـــام بنفسه بحماية النصارى والوقوف دون ذبحهم في الحـــوادث الطائفيـــة التـــي أشعلها الاحتلال الفرنسي – وكان عبد القادر الجزائري يفعل ذلك " وهو فـــي المنفي " وهو الذي عاني شخصيا من التعصب الصليبي الفرنسي – انطلاقـــا من مسئوليته كمسلم أمام الله، ومن ناحية ثالثة، فإن الظاهرة الاستعمارية – قد شملت العالم الإسلامي كله، وشملت بلادا أفريقية وآسيوية غير إســـلامية، أي أن العالم أنقسم إلى عالم مستكبر وعالم مستضعف ، وإذا كان الـــدفاع عـــن المظلومين فريضة إسلامية ، وإذا كانت الثورة الإسلامية علـــى الاســـتعمار فريضة إسلامية ، فإن مناهضة الاستعمار أصبح قاعدة للتحالف بـــين الـــبلاد الإسلامية المستعمرة وغيرها من المستعمرات، وبالتالي فإن الحركة الإسلامية والثورة الإسلامية تضم كل من يحارب الاستعمار وثقافته ونفـــوذه ووجـــوده وجيشه وبنوكه .

إذن فالظروف التي تمر بالعالم الآن تؤكد وتحتم ألا تكـــون الحركـــة الإسلامية حركة طائفية – فهي أولا بحكم الإسلام وبحكم الحضارة الإسلامية

وبحكم الظروف السائدة في العالم حركة تتبنى مطالب كل المستضعفين والمقهورين والمحرومين.

ولأن الحركة الإسلامية هي الخطر الأكبر على الاستعمار فلابد من محاولة عزلها وتطويقها عن غيرها من المستضعفين لإضعاف الاثنين معا وهكذا فإن أي حركة مناهضة للاستعمار لابد أن توصف في دوائر الاستعمار بالطائفية والتعصب.

ولعل الدرس الكبير الذي تركته لنا الثورة العرابية – كان هذا الدرس، كانت الثورة العرابية ثورة إسلامية ولذلك لم تكن طائفية ولا متعصبة.

فالأفغاني مثلا – ولأنه كان إسلاميًا – دافع عن كل المستضعفين بل واستطاع أن يحشد المسلم والقبطي المصري و المسيحي غير المصري بل واليهودي في جبهة واحدة هي جبهة الانتماء للحضارة الإسلامية في مواجهة الاستعمار – وكانت دروس الأفغاني تضم المسلم والمسيحي واليهودي رغم أن هذه الدروس كانت في عقيدة وفكر وتاريخ الإسلام – لماذا كان ذلك ؟!

كان ذلك؛ لأن الأفغاني بما أنه إسلامي فهو غير طائفي وغير متعصب، كان ذلك لأن المسيحي المصري يعرف ويؤمن أنه مسلم ثقافة ووطنًا وحضارة وأن المسيحي القبطي إن لم يكن منتميًا إلى هذه الثقافة وهذه الحضارة وهذا الوطن فهو خائن، ولم تكن هذه إحدى علامات عبقرية الأفغاني – ولكنها كانت ترجمة لأمر معروف ومقرر ومخالفه خائن.

كانت إذن حركة الأفغاني تضم كل من ينتمي إلى الحضارة الإسلامية سواء كان مسلمًا أو مسيحيًا أو حتى يهوديًا – وكانت هذه إحدى أهم العوامل

التي تؤكد إسلامية الأفغاني –، أي أنها لم تكن انتقاصا من إسلامية الرجل أو تشكيكا فيها أو حتى تساهلا في أمرها – بل كانت تأكيدا لتلــك الإســـلامية، وكانت جماهير الشعب المسلم تعرف ذلك وتستوعبه بل وتحرص عليــه؛ لأن هذه بديهية إسلامية معروفة.

وكل حوادث الثورة تؤكد ذلك، فالنديم يحرص على هذا الأمر، ويدعو المسلم والمسيحي إلى التمسك بالأخلاق والسلوك الإسلامي والثقافة الإسلامية وكذلك كان عرابي، وكان الجميع.

وحينما صدرت الفتوى الشرعية من علماء الأزهر بأن الخديوي توفيق مارق عن الدين وقع هذه الفتوى بالإضافة إلى علماء الأزهــر – بطريــرك الأقباط – وحاخام اليهود في مصر.

نعم فالحركة الإسلامية حركة جامعة وليست طائفية – وهي تضم المسلم والمسيحي بل واليهودي طالما كان منتميًا إلى حضارة الإسلام وثقافة الإسلام وتلفظ أيضًا كل من يمالئ الأجانب ويناصر الاستعمار – وينحاز إلى الاحتلال حتى ولو كان مسلما؛ لأنه بذلك الانحياز أصبح مارقــا، أي كــافرا وكـــذلك المسيحي الذي ينحاز إلى أعداء الحضارة الإسلامية ويمالئ الأجانب يســتحق أيضًا العقاب ولا يكون عقابه هذا تعصبا ، أي لا يكون الخوف مــن تهمــة التعصب حاجزا دون عقابه أو تصبح مسيحيته مانعا للأمة مــن عقابـــه، أي يصبح له امتيازا خاصا لمجرد أنه مسيحي.

إذن فالثورة العرابية تعلمت الدرس وهو أن الثــورة الإســـلامية ثــورة ليست طائفية ولا متعصبة.

ولأن الثورة العرابية كانت إسلامية –، أي تشكل خطرا حقيقيـا علـى النفوذ الأجنبي – فإن الغرب الصليبي حاول إلصاق تهمة التعصب والطائفية بها، وهذه سنة استعمارية تقليدية وأسلوب مستمر من أساليبها فأي مسلم هـو بالضرورة عندها متعصب وطائفي وخاصة إذا رفض النفوذ الأجنبي وتمسك بالثقافة الإسلامية في مواجهة الثقافة الاستعمارية فما بالك إذا فجر ثورة ضد النفوذ الأجنبي ولتأكيد الحضارة والثقافة الإسلامية ومحاولة وضـع قواعـد للنهضة، وبالطبع سيتعرض لحملة من الافتراءات ومـن ضـمنها الافتـراء بالتعصب الإسلامي والطائفية، وتعتمد تلك الحملة ضد الثورة العرابية علـى عدد من الحوادث لعل أهمها حادث ١١ يونيو ١٨٨٢ المشهور تاريخيا باسـم مذبحة الإسكندرية – وحتى هذا الاسم التي اشتهرت به الحادثة اسم فيه افتراء وتجني – فهذه الحادثة لم تكن مذبحة بل هي مشاجرة – إذ لو كانت مذبحـة مدبرة لكان القتلى الأوروبيين فيها كثيرين جدًّا بالنسبة إلى قتلـي الأهـالي – ولكن جميع المصادر تؤكد أن العكس صحيح تماما – فجون نينيه – الذي كان في الإسكندرية وقتها يقول " إن عدد القتلى الوطنيين ١٦٣ قتـيلا عـدا مـن حملهم رفاقهم سرا على حين كان القتلى من الأوروبيين ٧٥ "(٩٤).

والشيخ محمد عبده يؤكد صحة ذلك أيضًا " (٩٥) والذي بـدأ المشـاجرة كان أوروبيا وهو مالطي من رعايا الإنجليز – رفض أن يعطي لأحد الأهالي إيجار حماره ولما أعترض صاحب الحمار طعنه المالطي بالسكين وعلى أثر ذلك حدثت المشاجرة خاصة وأن صاحب الحمار قد مات متـأثرا بجراحـه

وأهالي القتيل يعرفون طبعا أن نظام الامتيازات الأجنبية يحول دون محاكمة المالطي الذي يحمل جواز سفر إنجليزيا، فأين التعصب إذن ؟!

على أن المسألة أيضًا كانت أوسع من ذلك – فالشيخ محمد عبده يرى أنها كانت من تدبير إنجليزي أساسًا لخلق ذريعة للهجوم وخلق أجواء ملائمة للغزو – ويتفق معه في ذلك جونينيه – أما عرابي وبلنت فيران أن ذلك تم بتدبير إنجليزي بالاتفاق مع الخديوي ورجاله، ويرى الرافعي أن الإنجليز هم الذين دبروا الحادثة تبريرا للغزو ، إذن فمسألة التدبير الإنجليزي للحادثة وافتعالها موضع إجماع المؤرخين الأجانب والمصرين على حد سواء ، وهذا أمر طبيعي فافتعال الحوادث الطائفية أو تدبيرها من خصائص الدوائر الاستعمارية بل هذه طريقة تقليدية وسنة ثابتة وسلوك متكرر لها.

أين إذن التعصب الإسلامي ؟! فلا المسلمين بدءوا المشاجرة ولا الضحايا من الأوروبيين أكثر من الضحايا المسلمين والظروف المحيطة بالحادثة ووقائعها المادية تشير إلى التورط الإنجليزي فيها بل وافتعالها ، ولكن الجعبة الاستعمارية لابد أن تخرج دليلا يردده مثقفو المدرسة الاستعمارية وكان هذا الدليل هو أن المسلمين كانوا يصيحون أثناء المذبحة قائلين: (جاي يا مسلمين)، وكان على المسلمين ألا يصرخوا – وكان عليهم أن يخجلوا من كلمة مسلمين وكان عليهم أن ينهبوا ويقتلوا وتحتل بلادهم وأن يكون الأسطولين الفرنسي والإنجليزي أمام ساحل الإسكندرية وأن يقوم الأوروبيين الذين نهبوا البلد طويلا بشراء السلاح وإطلاق الرصاص على الأهالي وأن يقوم الأهالي لهم بواجب الشكر – ولا يقولون " جاي يا مسلمين "

وفي الحقيقة فإن حادثة الإسكندرية تدل على التعصب الأوروبي الصليبي وليس على التعصب الإسلامي فالأوروبيون الذين كانوا في مصر كانوا ينهبونها جهارا نهارا – في الجهاز الحكومي – وفي البنوك وفي الشركات وفي الريف ذاته عن طريق المرابين – ليس هذا فحسب بل كان الأوروبيون يقتلون ويسرقون ويرتكبون الجنايات في حماية النظام القضائي القنصلي والحماية الأجنبية – دون أن تطاولهم يد العدالة – ثم هاهو أسطولهم يتربص بالبلاد وهاهم القناصل يدعون الأوروبيين المقيمين بمصر إلى التسلح ويهربون إليهم السلاح عن طريق القنصليات – وهاهو المالطي الذي يحمل جواز سفر إنجليزيا يطعن أحد الأهالي بالسكين – ويستكثرون بعد هذا أن يقول المسلمون (جاي يا مسلمين) أليس هذا تعصبًا أوروبيًا صليبيًا؟

وبعد ضرب الإسكندرية ونزول الجيش الإنجليزي إلى مصر بهدف احتلالها، تعرض الأوروبيون لعدد من الحوادث والاعتداءات على ممتلكاتهم في أكثر من بلد مثل طنطا والمحلة وكفر الزيات وطوخ وبنها والدقهلية والتل الكبير ورشيد – وفي كل تلك الحوادث كانت الجماهير الهائجة تصادر أموال الأجانب وممتلكاتهم أو تسترد صكوك الدين " الكمبيالات " من المرابين وبالطبع من كان يحاول أن يعترض من الأجانب يضربه الأهالي – وفي كل تلك الحالات كانت حكومة الثورة ترسل قواتها لمنع حدوثها وحماية الأجانب إذن فهي لم تكن عمليات منظمة أو مدبرة بل كانت عمليات عفوية – بل والحكومة الثورية تحاول منعها –، وإذا ناقشنا المسألة بموضوعية – نجد أنها عمليات لاسترداد شيئًا مما نهبه الأجانب وكانت موجهة ضد هؤلاء الذين

يمثلون النفوذ الأجنبي – وهؤلاء الذين اغتصبوا أراضي الفلاحين أو أموالهم، أي كانت موجهة ضد طلائع الاستعمار وممثليه – ثم كانت محاولة لاسترداد الحقوق المغتصبة وهذا كله يؤكد أنها لم تكن حوادث طائفية ولا بسبب التعصب الإسلامي – بل كانت بسبب أن هؤلاء الذين تعرضوا لتلك العمليات من الأجانب لصوص ونهابين وطلائع استعمار، ومع ذلك فالحكومة الثورية كانت تحاول منعها.

وبالطبع فإن مثقفي المدرسة الاستعمارية، سيبحثون في الوقائع عن، أي شيء يدين الثورة، وسيفركون أيديهم فرحا قائلين قد وجدنا الدليل على التعصب الإسلامي، فقد امتدت تلك الأحداث لتشمل بعض الأقباط المصريين – وبالطبع لا يكمل هؤلاء الجملة لآخرها على طريقة لا تقربوا الصلاة، ولو كملوها لعرفوا أنها امتدت إلى هؤلاء الذين عملوا بالربا وتمتعوا بالحمايات الأجنبية – أي ليس لأنهم أقباط أو مسيحين بل لأنهم جزء من عملاء الاستعمار – والحقيقة أن امتداد الحوادث ليشمل هؤلاء يؤكد أنها أحداث غير طائفية – فلو أمتنعت تلك الجماهير عن الاعتداء على هؤلاء لمجرد أنهم مسيحيون لكان هذا تفكيرا طائفيًا – حيث أصبحت القبطية مبررا للانحياز للإنجليز أو الأجانب – أو أصبحت حامية ومانعة للعقاب.

إذن فالحوادث لم توجه للأوروبيين؛ لأنهم مسيحيون – ولأنهم أوروبيين بل لأنهم لصوص ونهابين وطلائع استعمار فهي لم تشمل الأوروبيين وحدهم لنقول أنه تعصب قومي بل شملت معهم الأقباط المصريين – بل والمسلمين الذين عملوا أيضًا في الربا وحصلوا على حماية الاستعمار، فحوادث

الاستيلاء على الأراضي شملت أيضًا ممتلكات مسلمين، وهي لم تشمل الأوروبيين والأقباط لتكون تعصب إسلامي بل شملت أيضًا مسلمين بل الأكثر عظمة من هذا كله أنها شملت الأقباط المرابين والحاصلين على حماية أجنبية مما يؤكد عدم طائفية الثورة والجماهير فلو كانت امتدت إلى الأقباط لمجرد أنهم أقباط لكان هذا طائفية وتعصب – ولو تركت هؤلاء الأقباط برغم أنهم مرابين وحاصلين على الحماية الأجنبية لكان هذا أيضًا سلوكًا طائفيًا – بل أنها عاقبت كل من نهب وسرق وشارك في التغلغل الاستعماري سواء كان أوروبيًا أو مصريًا ، مسلمًا أو مسيحيًا.

كانت الثورة العرابية ثورة إسلامية ولأنها كانت إسلامية فلم تكن طائفية ولا متعصبة.

***

أوروبا الصليبيـــة المتعصبـــــة

لعل من أهم دروس الثورة هـــي أنهـــا كشـــفت التعصـــب الصـــليبي الأوروبي، وصحيح أن التعصب الصليبي الأوروبي يكشف عن نفسه في كل حادثة وواقعة، إلا أن ما كشفت عنه وقائع الثورة والأحداث التي أحاطت بها في هذا الإطار كان كثيرًا جدًّا.

ولنتأمل هذا القول للرافعي فهو يكشف الكثير: انسحبت فرنســا مــن الميدان، ومعنى ذلك أنها تركت انجلترا تفعل ما تشاء وتعتدي على مصــر، ولو أرادت فرنسا منعها لكان لها من مركزها الممتاز في المسألة المصرية ما يحول دون هذا الاعتداء، وكذلك فعلت لعل أوروبا العظمى فإنها ظلت جامدة لا تحرك ساكنا، ولو وقع مثل هذا الاعتداء على أمة أوروبيــة كاليونـــان أو الجبل الأسود أو بلغاريا لاهتزت الحكومات الأوروبية، وتوعــدت وأنــذرت المعتدى بالضرب على يده، وليس من العسير علينا أن نفهم هذا التباين فـــي المعاملة فمرجعه إلى أن أوربا لا تنظر إلى مصر بالعين التي تنظر بها إلـــى الأمم الغربية ولا تراها جديرة بالعطف الذى حبت به أمثال اليونان وبلغاريا، ومما يدلك على مشاركة أوروبا؛ لانجلترا في مسئولية حوادث(١٨٨٢) أنه لم يكد الجيش الإنجليزي ينتصر على العرابيين في واقعة التل الكبير؛ حتى بادر الميسو تيسو سفير فرنسا بلندن إلى مقابلة اللورد جرانفيل وزيـــر خارجيـــة إنجلترا، وهنأه باسم الحكومة الفرنسية على هذا الانتصـــار، وكـــان جـــواب جرانفيل على تهنئته " إن واقعة التل الكبير هي انتصار أوروبى، ولو أنهـــزم الجيش الإنجليزي لكان ذلك كارثة على كل الدول التي تحسب حسابا للإسلام،

ويضيف الرافعي، وقد هنأ الميسو دكليـرك رئـيس وزراء فرنسـا السـفير البريطانى في باريس بهذه الواقعة قائلا " أن انتصار الإنجليز على المسـلمين في مصر ينتج ثمرة طيبة لفرنسا في تونس والجزائر، ويستمر الرافعي قائلا، قوبل نبأ الضرب في مؤتمر الأستانة بالفتور والجمود، ولم يكن المؤتمر قـد أنفض بعد، ولو كانت الدول الأوروبية حريصة على الدفاع عن حقوق مصر، بل عن الحقوق عامة لكان لضرب الإسكندرية صدى عاجـل فـي المـؤتمر يحفزه إلى وضع حد لهذا الاعتداء، ولكنه قابله بالصمت والبرود، ولم يبد أي اعتراض على إنجلترا في نقضها للعهود وخاصة عهودها في ذلك المـؤتمر ولم يكن لهذا المؤتمر أي أثر فعلى في نفوس المؤتمرين وهم سفراء الـدول الأوروبية في الأستانة " [٩٦].

إذن فإنه إذا ظهر الخطر الإسلامي، فإن الدول الأوروبية تتغاضى عن تناقضاتها الثانوية، فدول أوروبا تركت الكعكة كلها؛ لانجلترا في مقابل ذبـح الثورة الإسلامية، بل وفرنسا التي كانت تمتلك من النفوذ في مصر أكثر مـن إنجلترا قبل الغزو تضحى بهذا النفوذ، بل وتهنئ إنجلترا خوفا مـن الإسـلام والخطر الإسلامي.

ولكن نص الرافعي يكشف شيئًا طريفًـا، فهـو يقـول: إن التصـرف الأوروبي حيال بلغاريا واليونان والجبل الأسود غيره في حالة مصر، التي لم تحظ بالعطف الأوروبي مثل اليونان والجبل الأسود وبلغاريـا، وأن أوروبـا نظرت إلى مصر بغير العين التي تنظر بها إلى الأمم الغربية، ولم يقـل لنـا الرافعي: لماذا كان هذا التباين في الموقف؟ والرافعي بالطبع يعرف لماذا ؟

ولكنه خجلان من التصريح بأنه التعصب الأوروبي الصليبي ضد الأمم الإسلامية، والرافعي مكسوف حتى لا يتهم بالتعصب الإسلامي، وهذه آفة كثير من المثقفين الذين يتجاهلون التفسير المنطقي للحوادث، ويفضلون أن يتركوها بلا تفسير أو يلفون ويدورون حول المسألة، وكل هذا؛ لأنهم مكسوفون ومعتذرون ومهزومون أمام الابتزاز الثقافي الصليبى، الذى يتهم كل من ذكر الإسلام بكلمة حتى ولو كانت حقيقية بحجم الشمس بأنه متعصب.

وبالطبع فإن هذه المدرسة الفكرية المعتذرة والمهزومة والمكسوفة التي يمثلها الرافعي تستحق الرثاء، فليس في الإسلام ما يخجل، وليس في ذكر الحقيقة كاملة أية شبهة للتعصب.

وصلاح عيسى يقول" إن أوروبا شجعت البرجوازيات النشطة في اليونان وبلغاريا على الاستقلال بأسواقها القومية، ولكنها أصرت على ضرب البرجوازية المصرية " (٩٧) ولم يقل لنا صلاح عيسى: لماذا كان التشجيع هناك والضرب هنا ؟

إذ لو كانت المسألة مجرد أسواق واستعمار صرف لكان التشجيع أو الضرب قد طال الطرفين، وبالطبع صلاح عيسى أيضًا يعرف، ولكنه يكتم الحق، صلاح عيسى يعرف أن السبب في اختلاف موقف أوروبا في اليونان عنه في مصر أن شعب اليونان أوروبى مسيحى أي ينتمي إلى الحضارة الغربية، أما مصر فشعبها مسلم وينتمي إلى أمة الإسلام وحضارة الإسلام.

وصلاح عيسى يكتم هذه الحقيقة؛ لأنها تنسف أسس الفلسفة الماركسية التي يعتنقها، وبالطبع لم يقتصر الحقد الصليبي على تلك الواقعة في إطار

الثورة العرابية فبسبب التعصب الصليبي لم يتورع ديليسبس عن الخداع، وللسبب نفسه لم يتورع سير إنجليزي كبير عن سرقة أموال صندوق الدين والذهاب بها إلى الأسطول الإنجليزي، ولم تتورع إنجلترا عن اختراق كل المعاهدات وعدم احترام حياد القناة، ففي سبيل ذبح الثورة الإسلامية يهون كل شيء، التضحية بالشرف وبالمعاهدات وممارسة السرقة والكذب والخداع.

وفي الحقيقة فإن التعصب الأوروبي الصليبي لم يقتصر على وقائع الثورة العرابية وحدها بل هو سمة أساسية في السلوك والتفكير الأوروبي، لا يختلف في هذا الليبرالي والمحافظ، اليسارى واليميني، الملكي والجمهوري فأمام الإسلام فالتعصب واحد، فحزب الأحرار البريطاني وليس المحافظين هو الذي نفذ عملية غزو مصر سنة ١٨٨٢، وهو الذي حقق لانجلترا احتلال مصر وتمسك بهذا الاحتلال، واستمر الاحتلال ٧٤ عاما تعاقب علي حكم بريطانيا فيها اليمين واليسار والمحافظون والليبراليون، بل أن الاعتداء الذي وقع سنة ١٩٥٦، نفذته حكومة العمال البريطانية مع حكومة فرنسا الاشتراكية بالتعاون مع إسرائيل، والجزائريون تعرضوا للاحتلال والمذابح علي يد الملكيين والجمهوريين لا فرق، وعلى يد اليمين الفرنسي واليسار الفرنسي لا فرق، بل إن أشد المذابح والفظائع التي ارتكبت في حق شعب الجزائر نفذها الاشتراكيون والشيوعيون الفرنسيون، والدرس المستفاد من كل هذا أن كل الغرب بجميع قواه السياسية والفكرية يحمل تعصبا دفينا على الإسلام وأن من العبث أن نأمل في الاستفادة من التناقضات الثانوية بين هذه القوى أو الدول، بل إن الظاهرة الاستعمارية بكاملها هي شكل من أشكال التعصب الصليبي الأوروبي ضد الإسلام، فلو كان استعمارا صرفا وبلا دافع صليبي لتصرف مع مصر كما تصرف مع اليونان مثلا.

المغتربون وخيانة الثورة

نماذج الاغتراب كثقافة وكسلوك كثيرة ومتعددة تبـدأ بريـاض باشـا وتنتهي بشريف باشا، وهذه النماذج كمؤسسات وأحـزاب وأشـخاص لعبـت أدوارا كثيرة وخطيرة ومتعددة في حياتنا السياسية ونوبار باشا نموذج للـذين يرتبطون بالاستعمار بغير حدود، وشريف باشا له تميزه ولـه أفكـاره ولـه سلوكه المتقاطع أو المتفق مع الاستعمار، نوبار باشا أمتد بعد ذلك على شكل أحزاب ومؤسسات ثقافية وسياسية تبرر الاستعمار بل وتدعو للتعاون معـه، وشريف باشا أيضًا أمتد في مدرسة حزبية وسياسية وثقافيـة أيضًـا سـلكت سلوكا متميزا " مثل الوفد " وغيره.

كل من رياض باشا وشريف باشا لا يؤمن بالثورة، بل يـؤمن بالبنـاء بطريقة غير ثورية وفي إطار التفكير الغربي أو التفكير المنبثق مـن ثقافـة الحضارة الغربية.

وقد اخترنا هذا النموذجان؛ لأنهما أولا امتدا بعد ذلك في شكل أحـزاب ومدارس سياسية وفكرية، وثانيا؛ لأنهما ليسو عملاء للاستعمار، بمعني أنهـم يقبضون بل هما مقتنعان تمامًا بما يفعلان، بل أيضًا يتمتعون بأخلاق سلوكية جيدة في هذا الإطار فكل منهم لا يرتشي، وليس فاسدا ويتمتع بمواهب فكرية وسياسية وإدارية عالية جدًّا وهما يختلفان في الكثير و يتفقان أيضًا في الكثير، هما يتفقان في السلوك النزيه وفي إيمانهمـا بـالنمط الحضـاري الغربـي، ويختلفان في إيمان رياض باشا بالأسلوب المطلق للحكم، وبإيمان شريف باشا

بالحياة الدستورية والنيابية، يتفقان في رفض الأسلوب الثوري، ويختلفان في أسلوب مواجهته وفي مدي الاستفادة منه.

رياض باشا وكما يقول عنه الرافعي: من عائلة مصرية مسلمة وهي عائلة الوزان، بدأ حياته كاتبا بديوان المالية، أخذ يتدرج في سلك الوظائف والجيش إلى أن أصبح رئيسا للوزراء، ويكمل الرافعي، أن رياض باشا كان من الوجهة الإدارية حاكما ممتازا، حازما قوى الشكيمة ماضي الإرادة، محبا للعمل، نزيها مستقيما ممتنعا عن الرشوة، ويضيف الرافعي أن رياض باشا كان يميل إلى الحكم المطلق والرغبة عن نظام الشورى، والإذعان للتدخل الأجنبي "[٩٨].

إذن فرياض باشا مع كل هذه الميزات، ينحاز إلى التدخل الأجنبي والحكم المطلق فما الذي يجعله يجمع بين هذه المتناقضات، أنه الاغتراب، وعدم التشبع بالروح الإسلامية والوطنية، وعدم انتمائه إلى الثقافة الإسلامية، إذن فشخصية رياض باشا تؤكد أن الاغتراب وعدم الانتماء إلى الثقافة الإسلامية يفسد كل شيء، بل يفسد أعظم الشخصيات التي تمتلك أفضل المواهب وتتسم بالنزاهة والتعفف عن الرشوة.

ولكن على أي حال فنموذج رياض باشا ليس مشكلة فمادام واضحا في انحيازه إلى التدخل الأجنبي منذ البداية فهو أيضًا منذ البداية مرفوض من الشعب ومن الثورة ولم ينخدع به أحد بل اصطدمت به الثورة منذ البداية فلما ازداد نفوذ الثورة رحل رياض باشا إلى أوروبا ثم عاد بعد هزيمة الثورة، وأمثال رياض باشا يستخدمهم الاستعمار في حالة الجذر الثوري وعن طريقهم

يمارس الاستعمار اشد أساليب القمع والقهر على الشعوب وعلـــى الطلائـــع الثورية.

أما نموذج شريف باشا فهو المشكلة، فهو يتفق مـــع قـــوى الشـــعب والثورة في المطالبة بالدستور والحرية وبالتالي فهو يصلح لاستخدامه لتطويق الثورة أو احتوائها أو ليها عن أهدافها الرئيسية، وخاصة المتعلـــق بضـــرب النفوذ الأجنبي، نموذج شريف باشا نموذج يصلح؛ لأن يقدم للجماهير كبـــديل للنموذج الثورى، وهنا مكمن الخطر، نموذج شريف باشا يجد من يعجب بـــه أمس واليوم وغدا، بل ويدافع عنه ويجعله نموذجا للإقتداء، بالرغم ممـــا أداه من أدوار في خدمة الاستعمار، نموذج شريف باشا يقدمه الرافعي كنمـــوذج، بل ويفضله على عرابي والنديم ويقول أنه لو أستمع هؤلاء لنصائح شـــريف باشا لكان ذلك أفضل لمصر، ونموذج شريف باشا مقبول من حسني النيـــة، ويجد من يروج له أيضًا في معسكر مثقفي المدرسة الاستعمارية مثل لـــويس عوض، الذي يقدم شريف باشا كنموذج واجب الإقتداء والإتباع، ولكن لويس عوض أمره معلوم؛ لأنه يكيد للثورة وللإسلام وللعرب ولمصر، أما حســـنو النية فهم كثير ولم يكن عجيبا أن تتسع دائرة السائرين على درب شريف باشا مثل حزب الوفد مثلا إذن فلنتابع حكاية شريف باشا، ينتمي شريف باشا إلـــى أصل شركسي، دخل المدرسة الحربية وأتم بها دراسته، ثم التحـــق بالبعثـــة التعليمية المصرية في أوروبا وحصل على عدد من الدراسات الحربيـــة فـــي أوروبا وتدرب في الجيش الفرنسي، ثم عاد إلى مصر في عهد عبـــاس الأول والتحق بالجيش وأخذ يترقى إلى أن صار برتبة لواء ثم التحـــق بالوظـــائف

المدنية في عهد سعيد بوزارتي الداخلية والخارجية ثم سفيرا بدرجة قائمقام في الأستانة ثم رئيسا للوزراء سنة (١٨٦٨) وقد شكل بعد ذلك أكثر من وزارة في عهد توفيق أولها بعد خلع إسماعيل، والثانية بعد حادثة ٩ سبتمبر والثالثة عقب دخول الإنجليز مصر ١٨٨٢، يقول الرافعي: إنه جمع بين الكفاءة وكريم الخصال وعفة النفس إلى إدراك حظ كبير من العلوم الحديثة وأساليب الحياة الأوروبية مما جعله لا يقل مستوى عن رجال السياسة في أوروبا وأنه كان ذا ثقافة عصرية اكتسبها في فرنسا، ويضيف أنه مؤسس النظام الدستوري في مصر وأنه كان يؤمن بالحياة الدستورية ويكره الاستبداد، ويعود الرافعي لينتقد شريف باشا على أنه لم يسدي النصيحة إلى الخديوي إسماعيل في سياساته المالية " (٩٩).

إذن فنموذج شريف يري النهضة من خلال الدستور واستنادا إلى الثقافة الغربية، ولا يهتم بمسألة النفوذ الأجنبي كثيرا، ولا يؤمن بالثورة على هذا النفوذ ولا بالوسائل الثورية عموما، وهو لا يسدي النصح إلى إسماعيل رغم إغراق مصر في الديون ورغم النفوذ الأجنبي المالي والسياسي في عصر إسماعيل، وقبله سعيد ولا يجد غضاضة في أن يقدم هذا الدستور بدون التمسك بالسيادة البرلمانية على موضوع الميزانية، أي المهم هو الدستور والحياة النيابية حتى ولو في ظل هيمنة أجنبية على مالية البلاد وحرمان النواب من النظر في تلك السياسة بل ولا يجد غضاضة في الانضمام لمعسكر أعداء الثورة أثناء الغزو الإنجليزي وبعد هزيمة الثورة ولا يجد غضاضة أيضًا في تشكيل وزارة في ظل الاحتلال بل أول وزارة في ظل الاحتلال،

ولا يجد غضاضه في استعراض الجيش الإنجليزي مع الخديوي في ميدان عابدين باعتباره رئيسا للوزارة، ولا يجد غضاضه أيضًا في حضور الولائم التي تقام للإنجليز في القاهرة ويشرب معهم الأنخاب.

إذن فنموذج شريف لا يهتم بالتدخل الأجنبي ولا بالاحتلال، ويري أن الدستور أهم من ذلك كله حتى ولو في ظل الاحتلال، أو حتى لو خلي الدستور من هيمنة نواب الشعب على الميزانية.

وبالطبع فإن هذا النموذج يفتقر إلى أدني حد من الموضوعية، فأي دستور في ظل الاحتلال هراء، وأي دستور في ظل النفوذ الأجنبي أيضًا هراء والموقف الثوري الإسلامي الصحيح بالنسبة لهذه المسألة، أن القضاء على الاحتلال أو على النفوذ الأجنبي مقدم على الدستور وعلى غير الدستور وصحيح أن الإسلام والثورة والحركة الإسلامية مع الحرية ومع الدستور، مع حرية الرأي والعقيدة والفكر وحرية تعدد الأحزاب وحرية التعددية السياسية والثقافية، وحرية إصدار الصحف وحرية نشر الآراء والأفكار ومع كل الحريات، ولكن يجب أن ندرك أن حرية في ظل الاحتلال أو النفوذ الأجنبي هي حبر على ورق فلا تلبث أن تضيع شكلا ومضمونا، نعم من الصحيح أن نعمل من أجل هذه الحريات حتى في ظل الاحتلال والنفوذ الأجنبي، ولكن بشرط: أن ندرك أنها هنا ليست بديلا عن النضال ضد الاحتلال، وأنها ليست نهاية المطاف، وأنه لا يجب أن تكون وسيلة من وسائل التطويق لقوى الثورة أو تنفيس الضغط، وأنه يجب استخدامها والحرص عليها من منطلق توسيع وتحسين ظروف العمل الجماهيري والشعبي ضد الاحتلال وضد النفوذ

الأجنبي، ويجب أن نعض على الحرية بالنواجذ في كل الظروف، ولكن في إطار الفهم السابـــق.

وفي الحقيقة فإن هؤلاء الذين يتوهمون إمكانية قيام نهضة في ظل نفوذ أجنبي عن طريق الدستور واهمون ، فالنفوذ الأجنبي لن يســمح بحريـــة أو نهضة لا على أساس إسلامي ولا حتى على أساس تغريبي وكل ما في الأمر أنه يلجأ إلى تصعيد القوى الدستورية لتطويق الثورة أو يسمح بهـامش مـن الحرية لتنفيس الضغط فإذا ما حقق هدفه في التنفيس والتطويــق عــاد إلـى سيرته الثابتة في القمع والقهر والنهب.

نموذج شريف باشا درس يجب ألا ينســاه الجميــع، يجــب ألا ينســاه الثوريون وأن يعرفون كيف يتعاملون معه، كيف يستفيدون من الحرية المتاحة لتعميق الثورة وتحسين ظروف العمل الثورى، وأن يعرفوا أيضًا كيف يمنعون تلك القوي من تطويق الثورة أو السير بها في متاهات جانبيــة، وهــو درس يجب ألا ينساه أيضًا حسنو النية، بل والذين يؤمنون بالإصلاح عــن طريــق الدستور في ظل احتلال أو نفوذ أجنبي أو وفقا لثقافة الغرب، يجب ألا ينسي هؤلاء أن الاستعمار لا يلبث أن يطيح بتلــك المكاســب الجزئيــة بعــد أن يستخدمهم في ضرب الثورة، ويجب ألا ينسوا أن الاستعمار لن يســمح بــأي نهضة حقيقية ولا دستور حقيقي حتى ولو كان ذلك من منطلق ثقافتــه هــو واعتمادا على نموذجه الحضاري.

الاستعمار لا يريد لنا حرية ولا نهضة لا في إطار إسلامي، ولا فــي إطار حضارة الاستعمار أيضًا.

ولعل مأساة شريف باشا تؤكد هذا الأمر فإذا كان شريف باشا قد قبل الوزارة على أسنة الرماح الإنجليزية من أجل الدستور فهو أيضًا لم يحظي بالدستور بل عندما طالب بالدستور في خطاب قبوله تشكيل الوزارة رد عليه توفيق بوضوح بأنه يري أن يمسك في يديه (أي توفيق) كل السلطات، ومع هذا قبل شريف باشا الوزارة، وحاكم العرابيين وشرب الأنخاب مع الإنجليز وأستعرض جيش الاحتلال.

قد يقول قائل: إن شريف باشا قد قبل ذلك كله إنقاذا لما يمكن إنقاذه وهذه مأساة أخرى، فمازال البعض يدافع عن شريف بدعوى إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فهل أنقذ شريف شيئا ؟! هل حصل حتى على الدستور ناهيك عن الاستقلال ؟!

وفي الحقيقة فإن هذه الأقوال تغرق في التفاؤل والوهم، فلن ينقذ بلادنا من الاستعمار رجل دولة محنك ؛ لأنه مهما كان محنكا فهو ليس أكثر حنكة من الإنجليز خاصة وأنه لا يملك عناصر قوة تسمح له بالمناورة، ولن ينقذ بلادنا أن ندعي الإيمان أو حتى نؤمن بالثقافة الغربية، فالاستعمار لا يريد لنا أي نهضة ولو حتى في إطار الثقافة الغربية، لن ينقذ بلادنا إلا الكفاح المسلح ضد الاستعمار، إلا مواجهة الاستعمار بلغة لا يفهم غيرها وهي لغة المقاومة الشعبية وقطع خيوط التبعية.

وهناك آراء أخرى تري أن مأساة شريف لم تكن في كونه مؤمنا بالثقافة الغربية ولا في كونه مؤمنا بالدستور قبل الاستقلال، ولكنها تكمن في انتمائه إلى طبقة كبار ملاك الأراضي وأنه خان الثورة وقبل التعاون مع الإنجليز

بسبب انتمائه للأرستقراطية الزراعية أي أن خيانته جاءت كنتيجة؛ لانتمائه الطبقي وليس بسبب ثقافته الغربية وهذا القول أيضًا تحليل خاطئ للأمر؛ لأن محمود سامي البارودي أحد كبار قادة الثورة إن لم يكن قائدها السياسي الأول كان أيضًا ينتمي إلى الأرستقراطية الزراعية ومع هذا ظل مع الثورة حتى النهاية، بل وحتى بعد السجن والمحاكمة والنفي ومثل البارودي كثيرون بل هناك بعض أمراء البيت الخديوي ذاته ممن رفضوا التعاون مع الاحتلال، وساعدوا الثورة ووافقوا على خلع توفيق ودفعوا الأموال للجيش في حربه ضد الجيش الإنجليزي.

وقد يقول قائل آخر إن خيانة شريف باشا ترجع إلى أصله الشركسي، ونموذج البارودي وغيره يفند أيضًا هذا السبب، فالبارودي وغيره كثيرون كانوا أيضًا غير مصريين، بل شراكسة، ولم يكن هذا سببا لخيانتهم، بل وقفوا مع الثورة حتى النهاية.

الدرس واضح ولن نمل من التكرار، فلا أمل في نهضة بغير استقلال ولا أمل في استقلا بغير ثورة، وأن المغتربين عاجلا أو آجلا يسقطون في الخيانة، سواء كانوا مستبدين أم ديمقراطيين، وأن الاستعمار الأوروبي لن يسمح لنا بالنهضة سواء تمسكنا بإسلامنا أو حتى خالفناه وأعلنا إيماننا بالحضارة الغربية، وأن الطريق الوحيد إلى الاستقلال هو الثورة.

يحلو كثيرًا لمثقفي المدرسة الاستعمارية أن يتعمدوا الخلط في الأوراق وأن يناقشوا المسائل بشكل جزئي، وأن يضعوا مسألة الدستور والحياة البرلمانية والحريات منفصلة عن النفوذ الأجنبي والتبعية وبالتالي يجدوا

الفرصة لنشر أكاذيبهم حول ديكتاتورية أو استبداد الاتجاه الإسلامي أو عدم إيمانه بالحرية وإلى هؤلاء نقول أننا نؤمن بالحرية بكافة أشكالها ونؤمن بالدستور وبالحياة البرلمانية بل ونناضل من أجل انتزاع أي قدر كبير أو صغير من الحرية، ولكننا لن نفرط في أن أهم وأول أهدافنا هو القضاء على النفوذ الأجنبي والتبعية.

الغرب لا يريد لنا أية نهضة لا في الإطار الإسلامي ولا في الإطار_الغربى.

من أهم دروس الثورة أن الغرب لا يريد لنا أي شكل من أشكال النهضة سواء نهضة في الإطار الإسلامي، أو حتى نهضة في إطار الثقافة الغربية والحضارة الغربية وقيم الغرب.

وإذا كان هناك إجماع على أن الغرب لا يريد أمة إسلامية موحدة وقوية وعلى أنه لا يريد أي نهضة على الأساس الإسلامي في تلك الأمة ولا في أجزاء منها فإن البعض تراوده الآمال على إمكانية تحقيق النهضة في الإطار الغربي وعلى أساس الثقافة والحضارة الغربية، وفضلا عن أن هذا القول يفتقر إلى الجدية ؛ لأنه لا يمكن أقامه نهضة في أي مكان من الدنيا إلا استنادا على عقائد وقيم ووجدان أهل هذا المكان، ولكن بافتراض إمكانية قيام نهضة على أساس عقائد وقيم مغايرة ومختلفة عنا- بافتراض إمكانية قيام نهضة في إطار الحضارة الغربية وثقافتها، فهل سيسمح الغرب بذلك.

الواقع والتاريخ يقولان إن الغرب لا يسمح بأي نهضة ولو حتى على أساس ثقافته وتلك مسألة طويلة وهامة سنتحدث عنها وقد نكرر ما قلناه في أجزاء سابقة، ولكنه على أي حال تكرار محمود.

فشل الاستعمار الأوروبي في احتلال مصر مرتين، مرة فـي ١٧٩٨، ١٨٠١ ومرة أخرى في ١٨٠٧، وفي المـرتين حققـت المقاومـة الشـعبية إنجازات هائلة، بل واستطاعت بفضل التحدي وفي ظروف ثـورة القـاهرة الثانية ١٨٠٠ أن تنجح في صناعة المدافع والقذائف وترتـب علـى نجـاح المقاومة الشعبية في مصر أمام غزوتين أوروبيتين في أقل من عشر سنوات انطلاق طاقة هائلة، وكان من الممكن أن تتحول تلك الطاقـة إلـى نهضـة صناعية وقيام نظام حكم غير مستبد هذا في أقل الأحوال، وفي أكثر الأحوال كان من الممكن أن تتحول مصر إلى قوة إسلامية كبري تسيطر على أفريقيا وتحرم الغرب من الامتداد الاستعماري جملة وتفصيلا، وتلك الطاقـة التـي تفجرت لم تكن مجرد طاقة عاطفية لا تستند على شيء، بل كانت تستند على مفهوم يرفض الاستبداد وكانت تستند على قوة شعبية تثـور علـى الحكـام المستبدين بل وترفض حتى قرارات السلطان العثماني إن لم تكـن شـرعية وتفرض شخص الحاكم الذي تريده وكانت تستند إلى مؤسسات قـادرة علـى القيادة والثورة والنهضة مثل الأزهر وكانت تستند على تراث علمي واضـح متمثل في ظهور اهتمامات علمية متقدمة داخل الأزهر واهتمام العلماء عمومًا بالعلوم الطبيعية؛ لدرجة أن التلاميذ كانوا يأتون من الغرب لتلقي تلك العلـوم على يد هؤلاء العلماء، وكانت تستند على قاعدة شعبية واجتماعيـة واسـعة تضم جميع الطوائف من تلاميذ وحرفيين وطلاب علم وعلماء بـل وتجـار أثرياء مثل المحروقي والبشتيلي اللذين كانا من قيادات الثورة ضد الفرنسيين وهم من كبار تجار مصر، إذا فالطاقة والرغبة موجودة والأسـاس العلمـي

موجود بل والتمويل موجود والنتيجة الحتمية هو ظهور قاعدة صناعبة هائلة وبالطبع تحرك الاستعمار لتطويق هذه النهضة وضربها ولابد هنا أن تكــون الضربة ذكية وقاسية في نفس الوقت وجاءت الضربة عن طريق محمد على فإذا كانت الحرية والمشاركة الشعبية من أسس تلك النهضة، فلابد من ظهور نظام مستبد بل شديد الاستبداد وهذا هو نظام حكم محمد على. وإذا كان هناك مؤسسات أو زعامات شعبية قادرة على التعبئة والحشد وقيادة حركة النهضة فلابد من ضربها أو إفسادها فقام محمد على بتصفية نفوذ الأزهـــر وضـــرب بعض علمائه وأفسد البعض الآخر بالرشوة والمصالح الشخصـــية وضـــرب أيضًا الزعامة الشعبية المتمثلة في عمر مكرم، وإذا كانت الطبقة المتوســـطة من حرفيين وتجار قادرة في ظل تلك الظروف على التصـــنيع، فلابـــد مـــن ضربها، وقد صفاها أيضًا محمد على بلا هوادة، بـــل أمـــم كـــل الصـــناعة الصغيرة والكبيرة وأمم الزراعة والتجارة وأصبح هو المالـــك الوحيـــد لكـــل شيء، ولكن بعد هذا تبقي الطاقة الهائلة كامنة في النفوس، إذا لابد من استنفاذ تلك الطاقة في الطريق الخطأ، وكان الطريق الخطأ هو الصدام مع الخلافـــة العثمانية لإضعافها من ناحية واستنفاذ تلك الطاقة المصرية من ناحية أخرى.

واستنفذ محمد على الطاقة في بناء صناعات وجيش وصناعات كبيـــرة وهامة وجيش قوى، وتركه الغرب بل وشجعه وأمده بما يلزم. فمادام كل هذا سيصب في الصدام مع الخلافة العثمانية فلا مانع، ولكن بشرط واحد أن يكون ذلك مرتبط بشخص محمد على فقط لا غير أي لا يستند إلى مشاركة شعبية، وبالتالي فمن السهل القضاء عليه بعد استنفاذ الأغراض منه.

إذن فالغرب كان يدرك أن الطاقة المتولدة والظروف المحيطة بها ستتمخض حتما عن شكل من أشكال النهضة، وبما أنه غير قادر على ضربها بجيوشه فقد حاول وفشل، إذن يجب ألا تكون النهضة في إطار مؤسسات شعبية أو فئات شعبية واسعة؛ لأنه إذا حدث ذلك فمن الصعب تصفية ذلك بل من المستحيل إذا فلتكن النهضة من خلال حاكم فرد ومرتبطة به إلى أقصي مدي بحيث يكون هذا الحاكم الفرد هو عمودها الفقري فإذا ما انهار هذا العمود انهارت النهضة.

ولنكمل القصة فبعد أن حقق محمد على الخطة الاستعمارية بحذافيرها تكالبت عليه هو قوى الغرب وحطمت جيشه مجتمعة !! واجتماعها هنا له دلالته وفرضت عليه في معاهدة ١٨٤٠ /١٨٤١ أن يفتح السوق المصرية بلا قيد ولا شرط وفقا لمعاهدة يالطة ليمان ١٩٣٨، بدأ الاختراق الغربي على قدم وساق، فلما حاول عباس باشا التصدي لهذا الاختراق ومحاولة منعه، تم اغتياله في ظروف غامضة، وأستمر الاختراق في عهدي سعيد وإسماعيل وجاء الأجانب إلى مصر من كل حدب وصوب، مرابون، رجال بنوك، حثالات أوروبا، أفاقون، مغامرون، وعلى حين كان في مصر أقل من ١٠٠ أجنبي قبل الحملة الفرنسية نجد أن الأعداد التي جاءت في عهد سعيد وإسماعيل كانت كبيرة بدرجة غير عادية فبمجرد أن ذاع خبر موت عباس تدفق على مصر ١٢٠ ألفا من الأجانب ما بين عامي ١٨٥٧ و ١٨٦١ بمعدل ٣٠ ألف في كل عام، ثم ارتفع العدد، ففي ١٨٦٢ دخل البلاد ٣٢ ألف أجنبي، وفي ١٨٦٣ دخل ٥٦٥٠٠، ونفس العدد تقريبا في ١٨٦٤، ثم كانت

الذروة في ١٨٦٥ حيث دخل البلاد ٨٠ ألف أجنبي، ثم انخفض العدد إلى(٥٠) ألفا سنة ١٨٦٦ "[١٠٠] وبالطبع أستمر تدفق أجانب بنفس المعدل حتى اندلاع الثورة العرابية.

وهؤلاء الأجانب لم يأتوا إلى مصر طبعا للاستمتاع بشمسها بل جاءوا لاحتلالها سلميا، وضرب أي محاولة للنهضة، جاءوا للسيطرة على كل شيء فسيطر بعضهم على جهاز الحكم الإداري والسياسي عن طريق العمل كمستشارين للخديوي أو موظفين كبار في جهاز الدولة، وحققوا بذلك السيطرة على القرار السياسي ونهب المرتبات الضخمة في نفس الوقت "بلغ عدد الموظفين الأجانب في سنة ١٨٨٢، ١٣٥٥ موظفا مجموع مرتباتهم ٣٧٩٠٥٦ جنيها سنويا، بينما كان عدد كل موظفي الحكومة ٩٢٠٠ موظف "[١٠١]، وعمل بعضهم في إنشاء البنوك وإغراق الحكومة في الديون ونجد أسماء بنوك مثل قطاوي، سوارس، سرسق، وسيطر أجانب على النشاط المصرفي بالكامل وانتهي الأمر بالسيطرة على مالية البلاد والتدخل السافر في شئونها عن طريق المراقبة الثنائية والوزرين الأوروبيين اللذين يسيطران على الواردات والمصروفات وبلغ أمر السيطرة إلى حد التدخل بخلع خديوي وتعين خديوي آخر كما حدث مع الخديوي توفيق، وإلى حد الاعتراض على إصدار الدستور بالمذكرات والمظاهرات البحرية وإلى حد الاعتراض على حق مجلس النواب في نظر الميزانية وامتدت السيطرة إلى تدمير الاستقلال القانوني والقضائي لمصر عن طريق فرض الامتيازات الأجنبية والقضاء المختلط والقضاء القنصلي وسيطر أجانب أيضًا على ٩٦% من النشاط

التجاري والمشروعات مثل السكك الحديدية، الطرق، النقل البحري، تجارة الحاصلات الزراعية، السكر، الغزل، المياه، التلغراف، الموانئ، الاستيراد، التصدير، وابورات المياه، استصلاح الأراضي " (١٠٢).

وتطرق فسادهم إلى محاولة نشر الرذيلة والانحلال بهدف تدمير التماسك الاجتماعي والأخلاقي للمجتمع المصري ونهب الأموال في نفس الوقت وذلك عن طريق إنشاء الخمارات في كل شارع وحارة ومدينة وقرية ونجع، وكذلك بيوت الدعارة والقمار " (١٠٣) .

ولم يكتف الأجانب بالسيطرة على جهاز الحكم وتدمير الاستقلال القضائي والسيطرة على الاقتصاد والمالية في خطوطها العريضة، بل انتشروا كالجراد في الريف المصري لامتصاص آخر جنيه في جيب المصريين، ذهبوا إلى الريف واشتروا من الفلاحين بثمن بخس عن طريق المرابين أو عن طريق بيع المياه للفلاحين والتحكم فيها بالوبورات ومن يرفض بيع أرضه يتعرض للاضطهاد او حتى القتل على يد الأجانب في حماية الامتيازات الأجنبية طبعا، فعلى سبيل المثال قام " الأجنبي جرجس باكوس بالاستيلاء على مواشي الحرث في قرية الإبراهيمية وأحتجز الفلاحين وعندما تدخل العمدة لوقف هذا التعدي رفض الأجنبي المذكور الاستجابة لطلبه " (١٠٤).

وبالطبع كان كل هذا النشاط الأجنبي معفيا من الضرائب في حين كان على المصري أن يدفع الضرائب عن الأرض، وعن أدوات النقل البسيطة كالحمار والحصان والبغل وعربات(الكارو)، وكان على الحرفيين أن يدفعوا أيضًا ضرائب وكان على التجار المصريين أن يدفعوا الضرائب الباهظة

ناهيك عن عمليات السلب والنهب التي تمارسها السلطة المستبدة على هؤلاء الفلاحين أو الحرفيين أو التجار المصريين وبالطبع لا تجرؤ على ممارستها على الأجانب؛ لأنهم يتمتعون بالحماية والامتيازات.

ومحصلة هذا كله إفلاس التجار المصريين والحرفيين المصريين والفلاحين المصريين _ أي منع وجود أي تراكم مالي يسمح بقيام صناعة من ناحية، ووقوع النشاط التجاري والصناعي بالكامل في يد الأجانب وجزء كبير من النشاط الزراعي.

وبالطبع أدار الأجانب عملية الإنتاج بما يخدم تحقيق أكبر قدر من نهب مصر، فالنشاط الزراعي يوجه إلى إنتاج المحاصيل التصديرية مثل القطن حتى ولو على حساب غلاء أسعار الغلال طبعا، والنشاط الصناعي الوطني قد تم تدميره -الكبير منه والصغير- ولا يسمح بظهوره، أما الأجانب فلا مانع لديهم في عمل سكك حديد وطرق، أو مشروعات ري وصرف وابورات مياه أو مصانع غزل على أساس زيادة الإنتاج الزراعي من المحاصيل التصديرية مثل القطن والسيطرة أيضًا على الناتج المالي لهذا الإنتاج، أما الطرق والسكك الحديدية فهي لخدمة عمليات النقل وتسهيل عملية النهب استيرادا وتصديرا، وبالطبع اغرق الأجانب السوق المصرية بالمنتجات الأوروبية من كل نوع.

والنشاط الوحيد المسموح به للمصريين هو الاستثمار في القطاع الزراعي عن طريق تشجيع أرستقراطية زراعية، أي محظور على المصريين ممارسة التجارة والصناعة، ومسموح لهم فقط بجزء من الاستثمار الزراعي،

ولكن أيضًا بشرط أن يكون ذلك في يد الخديوي والأسرة الخديوية والحاشية " أي المؤسسة الاستبدادية " وهذا طبعا يحقق فائدتين، إحساس هؤلاء بشـيء من الفائدة تبرر لهم وتقنعهم باستمرار النفوذ الأجنبي، وتمتص في نفس الوقت أي فائض مالي يتراكم لدى هؤلاء بعيدا عن الصناعة، ولنكمل القصة، جـاء جمال الدين الأفغاني، وبعث الشرارة في القلوب، ونبه إلى خطـورة النفـوذ الأجنبي ودعا إلى الصناعة وتحصيل العلوم، والتقف الشرارة النديم وعرابي، وثارت مصر كلها، وفجرت الثورة الحماس والوعي، وبـدأت الثـورة فـي التفكير بالاستقلال بالسوق عن طريق منع تصدير الغلال والتفكير في إنشـاء بنك أهلي، وإصرارها على السيطرة على الميزانية وكان معني هذا أن هناك ملامح نهضة صناعية تبدو في الأفق وتستند إلى روح ثورية وطاقة ضـخمة متفجرة، وتستند إلى إحساس بأهمية العلوم ورغبة في تحصيلها، وتستند إلـى الدور التقليدي للأزهر في تشجيع دراسة العلـوم، وتسـتند إلـى توجيهـات الأفغاني في هذا الصدد وتستند إلى مشاركة شعبية واسعة، ثـم هـي لـديها خبرات علمية هائلة تراكمت من التعليم والبعثات ومن خبرات المصانع التـي أنشأها محمد علي، ثم انهارت بانهياره، فلا شك أن الذين عملـوا فـي هـذه المصانع اكتسبوا خبرات صناعية كبيرة، ليس هذا فحسب بل لديها التمويـل عن طريق المساهمة الشعبية التي تبرعت بمليون جنيه في أقل من شهر إبان الغزو البريطاني ولديها أيضًا مجموعة من التجار الأثرياء كانوا من كبـار قيادات الثورة والذين أخلصوا للثورة حتى النهاية مثل السيد حسـن موسـي العقاد كبير تجار القاهرة الذي ورث عن أبيه١٠٠ ألـف جنيـه نقـدا عـدا

العقارات والأطيان، ومثل السيد أمين بك الشمسي، بل ولدى الثورة الـوعي بالمسألة، الم تفكر في منع تصدير الغلال حتى لا ترتفع أسعارها على الناس فيمكن أيضًا أن تفكر في تقليص المساحة المنزرعة بالقطن حتى لا يؤثر ذلك أيضًا على أسعار الغلال ويجعلها ترتفع على الناس، ومن يبدأ بهـذا ينتهـي بالاستقلال بالسوق في النهاية، الم تفكر الثورة في أنشاء بنك أهلي إذن هناك ملامح نهضة صناعية، ولابد من ذبحها، فكان لابد من ذبح الثورة حتى ولـو تكلف ذلك ٣، ٢ مليون جنيه إسترليني هي تكاليف غزو مصر حتى ولو جاء ٦٠ ألف جندي إنجليزي منهم أبناء الملكة الإنجليزية، حتى ولو كان ذلـك أن تسمح أوروبا بانفراد بريطانيا بالكعكة كاملة في مصر، حتى ولـو ضـحت فرنسا بنفوذها ومصالحها في مصر وكان أكبر من نفوذ ومصـالح إنجلتـرا، كان لابد من ذبح الثورة وملامح النهضة بأي ثمن.

ومسألة عدم السماح بظهور نهضة مهمـا كانـت وسـائلها وأسـاليبها وإطاراتها مسألة تقليدية تتكرر كلما كانت هناك محاولة، تتكرر فـي كلياتهـا وفي جزئياتها أيضًا، فعندما حاول الشيخ محمود خطاب السبكي إنشاء مصانع للنسيج بأموال الجمعية الشرعية تدخلت وزارة الشئون الاجتماعية ومنعت ذلك بدعوى أن هذا يهدد بضياع أموال الجمعية !!

بل ودفع الشيخ السبكي الثمن بدخوله السجن على يد الإنجليـز سـنة ١٩١٦، وعندما حاولت مصر ذلك عن طريق بنك مصر وتجربـة طلعـت حرب تعرض الرجل والتجربة لأقصي حالات التضييق والتخريب على يـد الاستعمار وعملاء الاستعمار، ووصلت الحملة إلى حد اتهام الرجل في شرفه

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية نجحت مصر في إقامة عدد من المشروعات الصناعية الناجحة، وذلك بالاستفادة من حالة الحرب التي منعت عمليات الاستيراد بسبب النشاط الحربي العسكري، وكانت تلك الصناعات من الكثرة والاتساع بحيث شكلت خطرا على النفوذ الأجنبي، وخاصة أن الشارع المصري كان يغلي بالوعي والثورة وكان من الضروري أيضًا ذبح تلك النهضة وتطويقها، فكان انقلاب ١٩٥٢ المدعوم أمريكيا وأوروبيا، لتكرار، تجربة محمد على، ولكن بصورة هزيلة جدًّا، وبشكل جمع كل عيوب تجربة محمد على دون أن يشتمل على أي من مزاياها، فلما ذبحت النهضة وملامح الثورة تمت تصفية تجربة عبد الناصر الهزيلة أيضًا بهزيمة ١٩٦٧، وتلاشت بشكة دبوس؛ لأنها قامت على أنقاض صناعة الشعب وحريات الشعب ومشاركة الشعب، ومن جديد تعرضت مصر في السبعينات والثمانينات من القرن العشرين ا لنفس عمليات الاختراق الأجنبي وتغلغل النفوذ الأجنبي التي شهدتها مصر في الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر، القصة متكررة والدرس واحد٠

دور القوى الاجتماعية في الثورة العرابية

ولأن الثورة العرابية كانت ثورة إسلامية، ولأنها كانت موجهة ضد النفوذ الأجنبي فإن جميع القوى الاجتماعية قد احتشدت خلفها ولم يقف في معسكر الخيانة إلا الخديوي والخونة والمغتربين، ولدواعي البحث العلمي، سنحاول أن نناقش مدي ما ساهمت به القوى الاجتماعية المختلفة في الثورة والظروف التي شكلت هذه المساهمة.

دور الأزهر

ظل الأزهر منذ إنشائه هو طليعة الأمة، وهو المدافع عن حقوقها والمعبر عن طموحاتها، ومع بداية الغزو الاستعماري لعب الأزهر دور الحاضنة الثورية لحركات المقاومة الإسلامية والشعبية ضد الاستعمار والنفوذ الأجنبي، وإذا حاولنا أن نطالع شيئًا من كفاح الأزهر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لوجدنا أن الأزهر ظل دائما هو القائد الحقيقي للجماهير والمعبر عنها، فكلما وقع استبداد أو ظلم أو تعسف من قبل القوى الحاكمة كانت الجماهير تلجأ إلى علماء الأزهر وتعتصم بالجامع فيقوم العلماء بعرض مطالب الجماهير على السلطة فإذا استجابت كان بها، وإذا لم تستجيب كانت الانتفاضات والثورات الشعبية التي تبدأ بإغلاق الأزهر والامتناع عن إلقاء الدروس وتنتهي بثورة شعبية شاملة يخرج فيها علماء الأزهر على رأس الجماهير الغاضبة؛ لانتزاع حقها أو إبطال المظالم، وفي مواجهة الغزو الأجنبي كان الأزهر هو مركز المقاومة وكان علماء الأزهر هم قيادتها

الطبيعية،ففي مواجهة الحملة الفرنسية ١٧٩٨- ١٨٠١ كان علماء الأزهر هم محركو الثورات وهم قادتها، وفي مواجهة الغزو الإنجليزي ١٨٠٧، كان للأزهر الدور الأكبر في حشد الجماهير وتعبئتها وتحقيق النصر على الجيش الإنجليزي الغازي بقيادة فريزر، وكان من الطبيعي أن يكون الأزهر هدفا للحقد الأوروبي الصليبي وكان من الطبيعي أن تحاول القوى الاستعمارية والحكام المستبدين المرتبطين بالاستعمار تقليص أو تصفية دور الأزهر، وأن تفصم العلاقة التاريخية بين العلماء والجماهير، ونجح محمد على في إضعاف الأزهر كثيرا، ولكن الأزهر برغم الضعف الذي اعتراه بفضل ممارسات محمد على ظل على العهد، وظل مركز الثورة وموضع ثقة الجماهير، وحاضنة خصبة للفكر الثوري، وهكذا لم يكن عجيبا أن يكون الأزهر في طليعة قوى الثورة العرابية وفي طليعة القوى التي فجرت الثورة أو شاركت فيها.

وعلى مستوى احتضان الفكر الثوري وتسليح الجماهير به، نجد أن معظم قادة الثورة وخاصة عرابي، عبد العال حلمي، على فهمي قد تلقوا العلوم الإسلامية في الأزهر، وقضى كل منهم ٤ سنوات على الأقل في هذه الجامعة الدينية العريقة، وبديهي أنهم تشربوا روح الإسلام الرافضة للاستبداد والمناهضة للغزو الأجنبي والداعية إلى الجهاد ضدهما وعدم السكوت عليهما، وصحيح أن هؤلاء الزعماء قد تأثروا أيضًا بالأفغاني، ولكن هذا يدعم وينمي البذور التي غرسها فيهم الأزهر، فالأزهر ليس مجرد حوائط، ولكنه جامعة دينية إسلامية، إذن فالأفغاني يغرس نفس البذور التي يغرسها الأزهر ويدرس

نفس العلوم وينادي بنفس المبادئ، وكما قلنا فلم يكن الأزهر مجرد قوة اجتماعية شاركت في الثورة، بل كان أسبق هذه القوي وأكثرها تأثير، فمن ناحية السبق فإن علماء الأزهر فكروا في خلع إسماعيل قبل أن تخلعه أوروبا، وبالطبع فكروا في ذلك لعكس الأسباب التي خلعته أوروبا من أجلها، بل وفكروا سرًا وتباحثوا في ربيع عام ١٨٧٩ في التخلص منه باغتياله(١٠٥).

وعلى مستوى التأثير فإنه من المعروف أن شعب مصر بكل طوائفه لا يخرج في الثورة ولا يؤيدها إلا بمقتضي فتاوى العلماء، وقد كانت الثورة تدرك ذلك وتعرفه وكانت تطلب الفتاوى التي تعطي لحركتها الغطاء الشرعي دائما، وعلى مستوى المشاركة المباشرة في الثورة يقول الدكتور على شلبي " أنخرط الأزهريون كلية في أتون الثورة ونزلوا إلى الميدان الثوري وبدأ دورهم في إثارة الحمية الدينية والوطنية لقوى الشعب، مما كان له أكبر الأثر في تحريك الجماهير وإضفاء الشرعية على حركتها وعاش رجال الدين خطوة بخطوة مع الثورة فكانت لهم مواقفهم من الأحداث فنجدهم يرفضون مذكرة مايو التي تقدمت بها فرنسا وإنجلترا في محاولة لنفي عرابي، ووصل الأمر إلى أن أعلن الشيخ محمد الإمبابي عزل توفيق، كما هاجم علماء الأزهر دائما وأبد النفوذ الأجنبي في دروسهم وخطب الجمعة، وكان مما يزيد في قوة تأثيرهم في المجتمع استخدامهم للقرآن والحديث التي تؤيد وجهة نظرهم في الهجوم على الخديوي والأجانب " ويضيف الدكتور على شلبي " وواكب علماء الأزهر الثورة في حركتها، وكان في مقدمتهم الشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوى، فقد أفتي الشيخ عليش بأنه لا يصح أن يكون

توفيق حاكما للمسلمين بعد أن باع مصر للأجانب باتباع ما يشير به عليه القنصلان، الإنجليزي والفرنسي، ولذلك وجب عزله، كما أفتي الشيخ حسن العدوي بشرعية عصيان الخديوي فقال أنه بأمر الله ورسوله لن تطاع أوامر الخديوي، وأن الوقت قد حان لنشوب حرب مقدسة وقد أيده الشيخ عليش أيضًا " (١٠٦).

ويذكر عرابي في مذكراته: أنه في الاجتماع الذي تم في وزارة الداخلية عقب الإنذار الإنجليزي، تلقي فتوى شرعية من المشايخ حسن العدوي ومحمد عليش ومحمد أبو العلا الخلفاوي تقول أن الخديوي بانحيازه إلى العدو المحارب لبلاده يعد مارقا عن الدين " (١٠٧).

وتبدو هنا عظمة الإسلام الذي أنجب أمثال هؤلاء العلماء وتبدو أيضًا عظمة هؤلاء العلماء الذين لم يبيعوا دينهم للخديوي مقابل متاع الدنيا الزائف والزائل، بل انحازوا إلى الثورة، تبدو هذه العظمة في كون مجرد الاستماع إلى نصائح القنصلان يبرر خلع الخديوي، أي حتى قبل أن ينحاز إلى الجيش الإنجليزي.

وبالطبع استمر الدور المتميز والرائع لعلماء الأزهر في تأييد الثورة حتى آخر لحظة، يقول الدكتور على شلبي " في أثناء الحرب التي دارت رحاها بين المصريين والقوات الإنجليزية كان لمشايخ الأزهر وطلبته موقفهم المشرف، فقد أعتبروها حربا صليبية " كانت صليبية بالفعل" فكان ذهابهم أفواجا إلى ميدان القتال برئاسة الشيخ حسن العدوي وذلك للتأييد الروحي والمعنوي واعتبار ذلك من دواعي المدافعة عن الوطن وراح طلبة الأزهر

بعد أن وحدوا جهودهم يجوبون الشوارع ويوزعون المنشورات التي تحث على الجهاد في سبيل الله.

كما كان للخطابة الدينية وخاصة خطب الجمعة الأثر الكبير في تعبئة الرأي العام وتجميعه حول هدفين هما بذل الأرواح عن طريق التطوع، والتبرع بالأموال في سبيل الله، وبلغ الأمر إلى حد الدعوة لعرابي على المنابر بدلا من الخديوي " اللهم أنصر عرابي بجيش المؤمنين " كذلك كان لهم دورهم في ميدان التبرع بالأموال وإيواء المهاجرين وساهموا بالتبرعات كل على حسب مقدرته ، فقام الشيخ حسن العدوي بإخلاء منزله بعابدين لينزل به مائة من مهاجرين الإسكندرية ورتب لهم خمسمائة رغيف كل يوم، ولم يكن العدوي وحده هو الذي قام بذلك العمل وإنما كان ذلك شأن معظم العلماء الذين تبرعوا بمنازلهم لسكني المهاجرين وأجروا عليهم المأكل والشرب "(١٠٨).

حقا هؤلاء هم العلماء الذين يستحقون أن يكونوا ورثة الأنبياء كما في الأثر الشريف، كانوا علماء يعرفون حدود المسئولية التي حملوها على عاتقهم عندما حملوا العلم.

وكان من الطبيعي أن تكون قائمة المعتقلين بعد هزيمة الثورة ودخول الجيش الإنجليزي إلى القاهرة مكتظة بعلماء الأزهر الكبار والمتوسطين والصغار، وكان من الطبيعي أن يكونوا في مقدمة هؤلاء الذين أصدرت سلطات الاحتلال وحلفاؤها الأحكام ضدهم، وإذا قرأنا قائمة الأحكام المثبتة في كتاب الرافعي (١٠٩) .

نجد أن الشيخ عبد الرحمن عليش قد نفي خمس سنوات، والشيخ عبـــد القادر قد نفي ٤ سنوات، والشيخ محمد الهجرسي نفي ٤ ســـنوات، والشـــيخ أحمد عبد الجواد الغاياتي نفي ٤ سنوات، والشيخ محمد عبد الجواد الغاياتي " شقيق السابق " نفي ٤ سنوات،والشيخ يوسف شرابه نفي ٣ سنوات، والشـــيخ محمد عبده نفي ٣ سنوات، والشيخ أمين أبو يوســـف نفـــي ٣ ســـنوات مـــع تجريدهم جميعا من الرتب و الامتيازات والمناصب وعلامات الشرف.

ونكمل القائمة مع الرافعي فنجد أن كل من الشيخ أبو المعاطي الســـيد، والشيخ محمد شداد، والشيخ مصطفي عبد اللطيف، والشـــيخ محمـــد شـــلبى، والشيخ إسماعيل بطين، والشيخ حسين الأعسر، والشيخ عبد الهادى، والشيخ أحمد الفقي. الشيخ عبد المجيد الفقي،الشيخ على الفقي، الشيخ على نايل، قـــد صدر الحكم على كل منهم بالإقامة الجبرية تحت الملاحظة الضـــبطية مـــع تجريدهم من الرتب والنياشين والمناصب.

كما قضت المحكمة بتجريد العلماء الآتي أسماؤهم من جميـــع رتـــبهم وعلامات شرفهم وامتيازاتهم، الشيخ حسن العدوى، والشيخ أحمد المنصورى، والشيخ محمد السمالوطي، والشيخ أحمد البصرى، والشيخ محمد أبـــو العـــلا الخلفاوي، والشيخ محمد أبو عائشة، والشيخ عبد الوهاب عبد المنعم، والشيخ محمد السيوفي، والشيخ أحمد العدوي " نجل الشيخ حسن العـــدوى"، والشـــيخ محمد جبر، والشيخ عبد البر الرملي، والشيخ أحمد حلمي، والشـــيخ محمـــد غزال، والشيخ موسي علي.

المثقفـــــون

يلعب المثقفون عادة في أي ثورة دورا متميزا يتناسب مع قدرتهم على استيعاب الأفكار ونشرها بالوسائل المتاحة لديهم من صحافة وطباعة وغيرها وبالطبع فإن المثقفين كانوا ومازالوا جزءًا لا يتجزأ من الواقع الاجتماعي في أي مرحلة تاريخية، فهم يمكن أن يكونوا أداة للسلطة الحاكمة لتبرير سياساتها أو خوض معاركها داخليا وخارجيا أو حتى يكونـــوا أداة خـــداع للجمـــاهير، ويمكن أن يكونوا أداة لحمل الفكر الثوري أو نشره أو بلورته أو الدفاع عـــن حقوق الجماهير، أي يمكن أن يكون المثقف مرتبط بوجدان الشـــعب، أو أداة من أدوات الحكم ويمكن أيضًا أن يكون شريفا ومخلصا لقضاياه حتـــى ولـــو كانت في أي اتجاه ويمكن أيضًا أن يكون مرتزقًا.

ومحاولة دراسة دور المثقفين في الثورة العرابية، لا يمكن بحـــال مـــن الأحوال أن ينفصل عن دراسة مجمل الظروف التي كانت تعيشها مصر فـــي ذلك الوقت وكذلك أطراف الصراع أو الأطراف الموجـــودة علـــى الســـاحة المصرية، وفي الحقيقة فإن الذين تحدثوا عن دور المثقفين في الثورة العرابية وقعوا في عدد من الأخطاء المنهجية في هذا الصدد لأسباب كثيرة ومتعـــددة، فمنهم من حاول النظر إلى المسألة بالمنظور التقليدي من تقسيم المثقفين إلـــى رجعي وتقدمي، أو يميني ويساري وفق تعريفهم طبعا لتلك المصطلحات، وإذا بهم عند التطبيق يكتشفون أمورا أصابتهم بالحيرة فالأفغاني والنديم وعلمـــاء الأزهر مثلا خرجوا في رأيهم من عباءة الرجعية ومع هذا كانوا أكثر المثقفين

ثورية بل وانحيازا للفقراء في حين وقف الآخرون الذين خرجوا من قبضة الفكر التقدمي أما ضد الثورة أو حتى في مستنقع الخيانة.

ومنهم من نظر إلى المسألة في إطار لا يفهم غيره وهي أن الثورة لابد أن تكون ثورة على أوضاع أقطاعية وكنسية " دينية " أي لابد أن تكون ثورة برجوازية ضد الكنيسة والإقطاع " هنا المسجد والإقطاع أو تحالف رجال الدين والإقطاع " أي أن هؤلاء يريدون تطبيق الفكر الثوري الأوروبي على الثورة في بلادنا، وإذا بهم عند التطبيق على وقائع الثورة يصابون أيضًا بالحيرة الشديدة فعلماء الدين وكل من خرج من عباءة الإسلام كالأفغاني والنديم كانوا ثوريين في حين أن قطاعات كبيرة من الأعيان أو البرجوازية " بمصطلحاتهم " قد خانت الثورة ووقفت ضدها وآخرون درسوا المسألة بهدف البحث عن مدارس فكرية غير إسلامية يمكن أن تكون قد لعبت دورا في الثورة، وتسرعوا فاعتبروا الطهطاوي مثلا هو رائد الفكر التحرري، وهو رفاعة العظيم وأنه نقل الفكر الثوري الأوروبي، وأيضًا عند التطبيق أصيبوا بالدهشة، ولم يجدوا أثرا للطهطاوي ولا لأفكار الطهطاوي.

أنظر مثلا إلى صلاح عيسى مصابا بالدهشة يقول " إن العداء الجاد بين التيار العلماني والليبرالي وبين رجال الدين لم يظهر، فلم يطالب الأولون كما طالب نظراؤهم في فرنسا بشنق آخر ملك بأمعاء آخر قسيس " ، ثم يفتح صلاح عيسى فمه من الدهشة قائلا " والعجيب أن الليبراليين اتخذوا عدة خطوات للخلف، " مكسوف يقول أنهم خانوا " بينما تقدم الأزهريون عدة خطوات للأمام "!!

والدكتور رفعت السعيد يفرد عشرات الصفحات للطهطاوي، ليجعله رائدًا للتنوير وللتحرير، بل إن العنوان الذي اختاره لهذا الحديث كان " رفاعة الطهطاوي بستانيًا يغرس أزهارًا " (١١٢) ثم يعود فيضطر أن يعترف في عنوان رئيسي آخر " ولكن الأزهار لم تتفتح " (١١٣).

وبالطبع الأزهار لم تتفتح؛ لأنها نبات لا يصلح لتربتنا، كما أنها أصلا لم تزرع في تربة الجماهير، بل زرعت في بستان الخديوي ولحساب الخديوي وبأجر مدفوع من الخديوي".

ولويس عوض أيضًا يفرد الفصول للطهطاوي تحت عنوان رفاعة العظيم فإذا جاء وقت الحديث عن الثورة العرابية اختفي رفاعة تمامًا كشخص وكفكر، وفي الحقيقة فإن الأخطاء المنهجية والحيرة التي أصابت هؤلاء ترجع إلى أن كل من رفعت السعيد وصلاح عيسى أراد أن يطبق النمط التقليدي للفكر الثوري الأوروبي على واقعنا فجاءت حيرتهما وتشوشهما أما لويس عوض فهذا مزور يكتب التاريخ لطمس دروسه الحقيقية لصالح التعصب الأوروبي الصليبي.

ولو حاول أي باحث أن يدخل إلى المسألة بدون نظرة مسبقة وتعامل مع الحوادث كما هي ثم أستنتج ما تعطيه هذه الحوادث من نتائج لاكتشف أن الإسلام في أصله رسالة إلى الإنسان للثورة على الظلم والاستبداد وأن الجماهير لا تثور إلا من خلال الإسلام وأن الثورة العرابية ثورة إسلامية شاملة اعتمدت على الإسلام كأيدلوجية للثورة وكأداة أيضًا لتثوير الجماهير وحشدها.

الأخطاء المنهجية إذن هي تجاهل أن الإسلام هو الأيدلوجية الوحيدة القادرة على تثوير الجماهير، لماذا لا يعترف هؤلاء بذلك ويستريحون ويريحون ؟!

وإن الظروف التاريخية والحضارية لبلادنا تختلف عن تلك الظروف في أوروبا، وبالتالي فمن الخطأ تطبيق مبادئ الفكر الثوري الأوروبي على واقعنا، وأن أمتنا تخوض منذ البداية حربا ضد التعصب الأوروبي الصليبي، وإذا لم تكن هذه الحقيقة قابلة للفهم لديهم، نقول لهم أن الثورة العرابية كانت ثورة على النفوذ الأجنبي.

وإذا وضع أي باحث هذه الحقائق في ذهنه فمن السهل عليه إذن أن يتفهم أحداث الثورة وموقف مختلف القوي منها.

وإذا حاولنا أن نتتبع المثقفين الذين انحازوا إلى الثورة نجد أن الأفغاني يأتي على رأس هؤلاء، والأفغاني كما قلنا من قبل لم يأت من فراغ أو عمل في فراغ، هو امتداد طبيعي وعضوي للفهم الإسلامي الصحيح وهو أيضًا عمل في مناخ يستطيع أن يتفهم ويستجيب إلى هذا الإسلام الصحيح ودور الأفغاني هنا هو أنه طور ونظم وأثار الحماس فكان الأب الروحي للثورة بلا منازع وخلال إقامته في مصر ١٨٧١، ١٨٧٩ دعا الأفغاني إلى الجامعة الإسلامية وحث المسلمين على الوحدة والجهاد والحرية، وهاجم الاستبداد بلا هوادة بل أعتبره السبب الرئيسي في تخلف المسلمين وفي وقوعهم في قبضة النفوذ الأجنبي وكان الأفغاني ثوريا حتى النخاع، لا يؤمن بالأساليب الإصلاحية، بل يري أن الثورة هي الطريق الطبيعي والوحيد؛ لانتزاع

الحقوق، وفي هذا الصدد يقول الأفغاني: أن الحرية والاستقلال لا يوهبان عن طيب خاطر بل إن الأمم تحصل عليها قوة واقتدارا " (١١٥) .

بل ويحرض الفلاحين تحريضًا على الثورة ويغريهم باستعمال الفأس في شق رأس الظالم قائلا: أنت أيها الفلاح تشق قلب الأرض بفأسك لتنبت منها ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال فلماذا لا تشق قلب ظالمك، لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك " (١١٦).

والأفغاني يحلل أسباب التخلف ويضع الحلول للنهضة، الأفغاني يري أن التخلف والاحتلال والجهل والجمود ليست إلا نتائج الاستبداد وتفرق كلمة حكام المسلمين، ويكتب عن الحرية والشجاعة والقوة والعلم والصناعة.

قام الأفغاني في الناس خطيبا وجلس في الناس يدرس لهم العلوم والفقه وكتب في الصحافة باسمه أو باسم مستعار بل وينشئ الصحف ويحتضن الصحفيين الثوريين، ويشكل الجمعيات السرية والعلنية مثل مصر الفتاه بل ويستطيع أن يحشد خلفه كل المنتمين إلى الحضارة الإسلامية حتى ولو كانوا يهودًا أو نصارى.

وهكذا لم يكن عجيبًا أن يخرج الأفغاني منفيا من مصر سنة ١٨٧٩ بناء على طلب قنصل بريطانيا من الخديوي توفيق بإبعاده،

وعبد الله النديم يأتي على رأس المثقفين الثوريين بل هو القائد الحقيقي للثورة وهو فيلسوفها ومفجرها وجهازها الإعلامي في نفس الوقت.

والنديم هو التلميذ النجيب للأفغاني، وهو الامتداد العضوي له بل هو التجسيد العملي والطبيعي لأفكار الأفغاني، وإذا كان الأفغاني قد وضع

الخطوط العريضة فإن الندين يقدم تلك الأفكار بالتفصيل ويطبقها على الواقع المصري محللا وقائدا وثائرا، " وكان الأفغاني قد لاحظ نبوغ النـديم وقـوة حجته وسرعة بديهته ووضوح دليله واتقاد حماسه فاخذ يدربه وأعطـاه مـن وقته الكثير" (١١٧).

والنديم يستخدم الكتابة والخطابة الكتابة للذين يقرأون والخطابة للـذين يقرأون والذين لا يجيدون القراءة بل ويستخدم النديم جميع ألوان وفنون الكتابة من مقال وزجل وشعر وتمثيليات ومسرحيات، وله أسلوبه اللاذع والسـاخر دون أن يفقد الحساس، فقد كانت خطبه وكتاباته قطعا من الجمـر الملتهـب، يرتقي منابر المساجد ويذهب إلى الفلاحين في الحقول ويخطب في التجمعات الثقافية وعن ذلك يقول النديم عن نفسه:" أخذت أتقلب في الـبلاد وجـاهرت بالتضاد ولبست ثوب الجلد وتابعت الخطب في كل بلد وحركت الأفكار حركة لا سكون لها ونشرت مظالم الحكام وأعمالهم وناديت بهدم دعـائم الاسـتبداد وكسرت قيد الاستعباد"(١١٨).

والنديم كامتداد لأستاذه الأفغاني من ناحية وتطبيق عملـي وبرنـامجي وتفصيلي لأفكاره يكثر من الحديث عن الأوضاع الفاسـدة، عـن إسـراف الخديوي والحاشية و عن استبدادهم، يكتب عن الأجانب وسـيطرتهم علـى الحياة المالية والسياسية للبلاد ويشرح كيف كونوا الثروات مـن دم الشـعب ويشرح دورهم في الربا وذلك بأسلوب مفهوم وبسيط، ويهاجم الفساد الخلقـي الذي ينشره الأجانب في البلاد عن طريق الخمارات ودور الدعارة والقمـار ويسخر من هؤلاء الذين يريدون تقليد الغرب في سلوكه وأخلاقه وقيمه وذلك

في خطبه أو مقالاته أو في تمثيلياته " مثل العرب والوطن وطالع التوفيـق "، ويدافع عن الفلاح ويطالب بحقوقه ويحلل أوضاعه ويشير إلى الظلم الذي يقع عليه والبؤس الذي يعيش فيه، ولم يكتف النديم بشرح أوضاع الفساد والظلـم والتبعية للأجنبي بل نراه يحدد الطريق وهو الثورة: لا تتركوا الغرباء يتولون إدارة بلادكم ولا تمكنون الأجانب من الوصول إليها "(١١٩).

ويدعو أيضًا إلى الحرية والشورى ،وليست حرية الأعيان أو انتصـار مجلس النواب على الوجهاء والأعيان بل حرية كل فئات الشعب يقول النديم: إن الوجود مضبوط بممالك مقيدة بقوانين وضعت بأغراض ذاتيـة وأفكـار مقصورة على فرد واحد أو بعض أفراد، وإن قيل أن الممالك تعرض القوانين على مجالسها قبل تقريرها قلنا أن الممالك مقصورة على أرباب الثروة أو أهل الكلام وليست الأمة كذلك " (١٢٠) ويدعو إلى حرية الانتخابات ليس فقط مجرد الحرية السياسية بل وكذلك رفع نفوذ السلطة والأعيان ومنعها من التأثير في الانتخابات يقول: تترك ما كانت عليه من الميل للأغنياء والخوف من العمـد والرهبة من المآمير وتنتخب من تريد من أهل المعرفة والدهاء " (١٢١).

ويهتم النديم اهتماما بالغا بالدعوة إلى تحصيل العلوم والاهتمام بإقامـة الصناعة يقول النديم: المطلوب توسيع العمران بالصنائع والمعارف والأمـن والثروة " (١٢٢) .

ولعل كلام النديم هذا هو قطعة من العبقرية في فهم مسألة التصنيع حيث أنه وضع الشروط الصحيحة للتصنيع عن طريق المعارف والأمن والثروة فلا صناعة بدون معرفة ولا صناعة بدون انتشار الأمن؛ لأنه من البـديهيات أن

السلطة المستبدة إذا مارست البلطجة والسلب لا نصرف القادرون على بناء الصناعة عن ذلك، وكذلك لو فشلت السلطة في بسط الأمن وضرب الخارجين عن القانون لضاعت الصناعة أيضًا ورغب الناس عن بناء مصانع أو مؤسسات إنتاجية، وكذلك الثروة ضرورية للصناعة، بل النديم يرشدنا إلى أن العمران يتم بالصناعة ولم يقل بالزراعة مثلا مما يدل على اهتمام قيادة الثورة بمسألة التصنيع، وفي ذلك تقول لطيفة سالم" وجه النديم العناية إلى مسألة النهضة العلمية والصناعية "(١٢٣).

والنديم أيضًا منحاز اشد الانحياز للفقراء والمستضعفين يقول النديم: نرضي بالخبز والملح ولا تقنعون بآلاف من الجنيهات ونقنع بالقرش الواحد ولا تقنعون بالذهب والفضة، أخلقتم من ذهب وخلقنا من تراب، أولدتم قابضين على أزمة الدنيا وولدنا عبيدا لكم، أم نزلتم من السماء ونزلنا من بطون الأمهات ألا ترون أنكم تعدون بالأصابع في بلادنا والفقراء هم الأمة " (١٢٤)

وعندما حدث الغزو الإنجليزي لمصر سنة ١٨٨٢ كان النديم صريحا في تحديد طبيعته وأهدافه فوصفه بأنه " حرب صليبية جديدة، وأنها جاءت لتذبح ثورة أهل الإسلام على أهل الكفر " (١٢٥).

كان النديم مع الثورة، يدور معها حيث دارت، تراه في كل خطوة من خطواتها، كان النديم عقل الثورة وقلبها معًا فالنديم هو الذي يكشف الأحوال التي كانت تعيشها مصر من نفوذ أجنبي وظلم واستبداد الحكام، وهو الذي يذهب إلى كل قرية ومدينة ليدعو إلى الثورة وهو الذي يحشد الجماهير خلف الثورة وهو الذي يجمع التوقيعات لتوكيل عرابي للتكلم باسم الأمة وهو الذي

يقود المظاهرات لتأييد الجيش في ٩ سبتمبر ١٨٨١ أو في رفض اللائحة أو إعلان رأي الأمة لمن يهمه سماع رأيها، وهو الذي لا يكاد يفارق الجنود والضباط في الجناح العسكري للثورة، بل ويسافر مع فرق الجيش التي تم نقلها في وزارة شريف إلى الشرقية أو إلى دمياط ويستغل هذه الواقعة ليؤكد وحدة الشعب والجيش ففي كل محطة احتفال، في محطة الإقلاع وفي محطة الوصول وفي كل محطة يمر عليها القطار، وبعد الوصول والاستقرار يستمر النديم في حشد الجماهير وزيادة التحامهم مع الجيش بشكل يومي ودائم، وعند الغزو الإنجليزي تجد النديم في كل معركة، وفي كل عملية لحشد المتطوعين أو جمع التبرعات للجيش بل وحتى بعد هزيمة الثورة اختفى النديم تسع سنوات رغم الاحتلال ورغم الخديوي ورغم المكافأة المرصودة لم يدل عليه وعندما يظهر يستمر في الكفاح، ويرفض كل المغريات، وقد أرادوا إغرائه بأي ثمن حتى لا تتكرر الحالة الثورية، ورغم الظروف الصعبة رفض النديم كافة الإغراءات وظل مخلصا لقضية الثورة حتى النهاية، فأصدر جريدة " الأستاذ " وأستمر ينشر فيها الأفكار فضاقوا به وكان من الطبيعي أن يضيقوا به، ويقرر الخديوي نفيه فيختار الذهاب إلى الأستانة حيث يلحق بالأستاذ "الأفغاني" ليستمرا معًا في رحلة الكفاح من المنفى، لقد كان النديم إسلاميًا حتى النخاع ــ فكان ثوريًا حتى النخاع ــ ولأنه كان إسلاميًا فقد انحاز للفقراء، كان النديم نموذجًا فذًا للإسلام وللثورة الإسلامية لذلك فقد فهمته الجماهير واستجابت، له أليس يعبر عن وجدانها، بل وقدمت له الحماية والتغطية طوال سنوات تسع لم تهدأ فيها جيوش الاحتلال ولا عسس الخديوي

عن مطاردته، نعم فهمته الجماهير وأحبته، ولكن آخرين احتاروا فيه وعبروا عن حيرتهم بل وانتقدوه لأنهم لم يفهموه أولم يريدوا أن يفهموه.

فبلنت وصابونجي يتهمانه بالتعصب الديني، وبأنـه كـان يلجـأ إلـى النصوص الدينية في حديثه وخطبه ومقالاته، ويردد معهما رفعـت السـعيد" [١٢٦] نفس الكلام في صفحة ١٣١ من كتاب " المؤلفات الكاملة لرفعت السعيد، المجلد الأول، دار الثقافة الجديدة طبعة ١٩٧٧ "، ثم يعود رفعت السعيد بعـد أن ينسي أنه أتهم النديم بالتعصب الديني فيقول عنه أنه اشتراكي طوباوي ثم يعود فينسي أيضا ثانية فيقول " إن الأفغاني والنديم كانا زعيمين إسلاميين في تفكيرهما وفي أساليبهما وفي جماهيرهما " ص ١٠٠، المؤلفات الكاملة لرفعت السعيد، المجلد الأول، أما صلاح عيسى فيقول " أن دعاية الثورة التي قادهـا النديم وقعت في مأزق بسبب أسلوب التجنيد الخاطئ والقائم على وجه واحـد هو الوجه الديني بينما كان ضروريا وأساسيا لها أن تعتمد معه على وجه آخر أكثر أهمية هو الوجه السياسي "(في ص ٤٢٧، صـلاح عيسـى، الثـورة العرابية، دار المستقبل العربي، ١٩٨٢، القاهرة)، ويعود صلاح فـي نفـس الصفحة ليقول " إن عبد الله النديم ساهم في نشر الهـوس الـديني " وهـذه اللخبطة والتخريف والتناقض في كتابة هؤلاء وإطلاقهم التهم وإلقاء النصائح والمواعظ ترجع إلى أنهم إما أغبياء جدًّا وأما أنهم يتغابون، فإذا كان النـديم متهم بالتعصب الديني؛ لأنه وصف الغزو البريطاني بأنه كان غزوا صليبيا أو لأنه استخدم الآيات والأحاديث الشريفة في خطبه ومقالاته، فهذا لا يكشف عن

تعصب النديم بل يكشف عن تعصب منتقديه فلأن النديم كان إسلاميا فبديهي أنه لم يكن متعصبا؛ لأن الإسلام بداهة ضد التعصب.

أما انتقاده لإسلاميته أولاستخدامه الأحاديث والآيات القرآنية فهذا دليل على تعصب منتقديه، فهل محرم على المسلم مثلا استخدام الآيات والأحاديث في التعبئة السياسية ؟! أما كون النديم وصف الغزو البريطاني بأنه غزو صليبى، فهذا لا يدل على التعصب بل يد على الصدق مع النفس، ووصف الأشياء على حقيقتها فبالفعل كان الغزو البريطاني غزوا صليبيا، ، ومن يراجع تلك الأحداث بروح الحياد والمنطق فسيعرف أن النديم كان يصف الواقع كما هو والحقيقة أنه لو كان النديم قد وصف الغزو بغير ذلك لظنناه متعصبًا إسلاميًا وإلا فكيف يخفي حقيقة ؟ هل يخفيها حتى لا يقال أنه متعصب فيقع في التعصب دون أن يدري.

أما بشأن وصف رفعت السعيد له بأنه كان اشتراكيا طوباويا بعد أن يتهمه بالتعصب الديني ثم يعود فيصفه بأنه زعيم إسلامي في وسائله وجماهيره ثم يقف حائرا متعجبا، فإن الأمر ليس فيه ما يبرر العجب ولا الحيرة، فالإسلام والمسلمون والثورة الإسلامية والحركة الإسلامية وكل ما يمت للإسلام بصله ينحاز إلى الفقراء والمستضعفين ، بل أكثر انحيازا لهم من ماركس ولينين على مستوى الأيدلوجية والفلسفة والوسائل والمواقف بل ونماذج التطبيق.

إذا فلا عجب أن يكون النديم منحازا للفقراء ومدافعا عنهم ولا عجب أن يصل إلى تحليلات هامة في هذا الصدد، فهذه التحليلات الهامة مثل سرقة

الأغنياء عمل الفقراء أو مثل إدراك حقيقية أن جماهير الإسلام الطبيعية هي الفقراء والمستضعفين، هي تحليلات أو قل حقائق إسلامية معروفة قبل الأفغاني والنديم وهي من القرآن الكريم أو من أقوال الرسول والصحابة .

نعم فلأن النديم كان إسلاميا حتى النخاع انحاز إلى الفقراء والمستضعفين ودافع عن الفلاحين وتصدي للفساد والاستبداد والنفوذ الأجنبي، ولأنه كان إسلاميًا حتى النخاع فإنه عرف أن الطريق الوحيد لتحقيق ذلك هو الثورة وليس الإصلاح ولأنه كان إسلاميا حتى النخاع فقد أدرك أن جماهيره الطبيعية هي الفقراء وأن اشد جنود الثورة حماسا سيكونون من الفلاحين وأن تكوين عصبة من الفقراء لتحقيق الثورة كما قال النديم هو فهم إسلامي صميم؛ ولأن النديم والأفغاني كانا إسلاميين حتى النخاع فقد فهمتهما الجماهير ووافقتهما وسارت معهما على طريق الثورة.

أما ما قاله صلاح عيسى في أسلوب من الوعظ والإرشاد واتخاذ موقف الأستاذ الذي يعلم الثوار كيف يحركون الجماهير وكيف أنهم أخطأوا حين اعتمدوا على الدعاية الدينية وليس السياسية، فهذا شيء لا يمت بصلة إلى الكتابة التاريخية أو حتى الصحفية، فصلاح عيسى يفضح نفسه فهو لا يعرف الفرق بين الخطاب الديني والخطاب السياسي أو الدعاية الدينية والدعاية السياسية، ولن نحاسبه علي أساس المفهوم الإسلامي بل على أساس المفهوم العلماني الذي يعتنقه، وإن أراد فبالمفهوم الماركسي ، فالمبتدئ في علم السياسة أيا كانت المدرسة الفكرية والسياسية والفلسفية التي ينتمي إليها يعرف أن الثورة في دعايتها كانت تقوم بالدعاية السياسية في كل أحوالها

وأطوارها وحتى لو اعتمدت هنا علي النصوص الدينية، فالثورة مثلا لم تكن تقول للناس صلوا أو صوموا، بل كانت تدعوا إلى قتال الإنجليز أو الثـورة على الفساد والنفوذ الأجنبي، أو انتزاع حقوق الفلاحين وحتى فـي الجانـب الأخلاقي مثل الهجوم على الخمارات ودور الدعارة والقمار كان في المسـألة بعد سياسي، أليس كل هذا من الدعاية السياسية، إلـى هنـا مازلنـا نناقشـه بالمفهوم العلماني، ولكن الحقيقة أن الثورة اعتمدت في دعايتها السياسية على الإسلام جملة وتفصيلا؛ لأن المعركة كانت حربا صليبية على الإسـلام، والا فلماذا تركوا لليونان أسواقها وشجعوها على الاستقلال بتلك الأسواق، ناهيـك عن مساعدتها على التحرر والثورة والاستقلال السياسي عموما ؟!

هل نتجاهل الثورة الحقيقة والواقع، لماذا لا تقدم الثورة الحقيقة كاملـة إلى الجماهير، أليس الصدق مع الجماهير أسلوب ثوري مائة في المائة، ثم أن الثورة ما كان لها سوي أن تفعل هذا فالجماهير لم تكن تفهم غير تلك اللغـة، قبل أن تصاب بصلاح عيسى ولويس عـوض، وقـادة الثـورة وزعمائهـا وخطبائها وكتابها وكل جهاز دعايتها أيضًا لم يكن يفهم غير تلـك اللغـة ولا يجيد الدعاية إلا بها، فجميع قادة الثورة خرجوا من مشكاة الإسلام أمـا عـن طريق الأزهر أو عن طريق التتلمذ على الأفغاني أو هما معًا.

وفي إطار دور المثقفين في الثورة نجد أن هناك أيضًـا الكثيـر مـن المثقفين الذين انحازوا للثورة وقاتلوا في صفوفها مثل السيد حسن الشمسـي وهو من خيرة مثقفي الثورة ،عمل بالتدريس ثم بالنظارة وأعطي رسالة التعليم حقها، وتولي تحرير جريدة " المفيد " ثم أصدر صحيفتي السفير والنجاح ومثل

السيد إبراهيم سراج الذي أصدر صحيفة "الحجاز" لتكون في خدمة الثـورة، ومثل " يعقوب صنوع " الذي بدأ المعارضة الثورية عن طريـق الصـحافة بالاتفاق مع السيد جمال الدين الأفغاني، فأصدر العديد من الصحف مثل أبـو نضارة وأبو صفارة وغيرها قاد فيها الحملات على النفوذ الأجنبي والاستبداد والفساد، وكان لها انتشارا واسعا بفضل الأسلوب الساخر الذي أتبعه، ووصلت إلى أقاصي الريف وأعماق المدن وأثرت تـأثيرا كبيـرا وكانـت تتعـرض للمصادرة، فإذا ما صادرت السلطة صحيفة أنشأ أخرى وهكذا إلى أن تم نفيه إلى الخارج مع السيد جمال الدين، ولكنة أيضًا يؤيد الثـورة مـن الخـارج ويصدر الصحف باللغة العربية فتجد طريقها إلى داخل البلاد عن طريق خلايا الثورة المنتشرة في موظفي الجمارك والبريد وغيرهم لدرجة أنها تثير فـزع الخديوي توفيق فيعمل على محاولة تعطيلها عن طريق الضغط على المبعوث العثماني نظامي باشا؛ لأن يعقوب صنوع كان من رعايا الدولة العثمانية، بل وأكثر من هذا يصدر يعقوب صنوع الصحف باللغـات الأوروبيـة للدعايـة للثورة وفي الحقيقة فإن "يعقوب صنوع " بالتحديد كان أحد علامات عبقريـة الثورة وعبقرية الأفغاني بالتحديد، فبفضـل إسـلامية الأفغـاني الناضـجة والصحيحة أستطاع أن يحشد للثورة كثير من غير المسـلمين علـى قاعـدة الانتماء للإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن وكان " يعقوب صنوع " هو أهـم هذه النماذج التي انحازت للثورة الإسلامية برغم كونهم غير مسلمين، وفـي الحقيقة فإن يعقوب صنوع لم يكن أحد رجال الثورة أو صحافييها الكبار، بل

هو رائد الصحافة المعارضة، وكانت صحفه ومقالاته تأتي في الأهمية بعد صحف ومقالات النديم مباشرة.

وقد عهد إليه الأفغاني بتلك المهمة ولم يطالبه بأن يسلم مثلا، وكان مخلصا للثورة الإسلامية ومتحمسا لها عن إيمان بالانحياز للإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن، ولم يشك أحدا في إخلاصه ولم يكن أحد يشك في إخلاصه–لأن دعاة الثورة وقادتها وجماهيرها التي كانت تتلقف صحف صنوع وتقرأها وتوزعها، كانوا من الإسلاميين الناضجين الذين يفهمون الإسلام على حقيقته ولم يكونوا من الصنف الضعيف الإدراك الضيق الأفق الذي يشكك في أي شيء.

ولم يكن يعقوب صنوع وحدة في هذا الصدد، ولكن كان هناك أديب اسحق، وسليم نقاش، ولكن هؤلاء انحازوا إلى أعداء الثورة في النهاية، ولكن لأسباب لا تتعلق، ولا تمت لكونهم غير مسلمين إطلاقا بل لأسباب أخرى موضوعية وشخصية، وبالتالي يحسب موقفهم الأول على التأكيد على إمكان وضرورة مشاركة غير المسلمين في الثورة الإسلامية؛ لأنهم ينتمون إلى الإسلام كحضارة وثقافة ووطن والتأكيد على عبقرية الأفغاني ونضجه الإسلامي ويحسب موقفهم الثاني في إطار موقف أي شخص انحاز إلى أعداء الثورة في مراحل مختلفة مثل سلطان باشا، شريف باشا، أو حتى على خنفس وكل هؤلاء كانوا مسلمين، أي أن المعيار هنا شخصي وفكري ومصلحي،

أمتد التأثير الثقافي للثورة إلى كل القطاعات وانحـــاز الكثيـــرين مـــن المثقفين إلى الثورة من كل القطاعات أيضًا من المـــوظفين ومـــن الأطبـــاء والصيادلة والقضاة والمديرين والمدرسين والمهندسين وغيرهم.

ومن أبرز النماذج الثقافية التي أيدت الثورة نجد محمود سامي البـــارودي وهو من أصل شركسي ومن كبار ملاك الأراضي، أنحاز إلى الثورة منذ البداية وأرتبط بها حتى أصبح رئيسا للوزراء في حكومة الثورة، وكان أيضًا من أوائل المتهمين في المحاكمة التي شكلت لعقاب قادة الثورة، وصدر علية الحكم بالنفي ٢٠عاما مع تجريده من ألقابه وامتيازاته، وهو نفس الحكم الـــذي صـــدر علـــى عرابي، وكان محمود سامي البارودي من كبار المثقفين فـــي عصـــره، إلا أن ثقافته اتسمت بالتمسك بالإسلام وهو من رواد الشعر الحديث، وله أثـــار أدبيـــة كثيرة وخاصة في الشعر الذي نبغ فيه نبوغا كبيرا بحيث أنه أصبح من فحـــول الشعراء في الأدب العربي عموما والأدب العربي الحديث خصوصصًا .

ولا ننسي أيضًا السيد أحمد رفعت الذي يمثل نموذجًا عظيمًـــا للمثقـــف الثورى، وهو المسئول الإعلامي في الثورة ورئيس قلم المطبوعات وقد لعب دورين متميزين في هذا الصدد فقد نجح في توصيل الرسالة الصحفية الثورية إلى الجماهير من خلال قلم المطبوعات كما أنه أسهم في ترجمـــة المواقـــف السياسية التي تتخذها الحكومات الأوروبية والصحف الأوروبيـــة ومختلـــف القوى السياسية الدولية سواء كانت شخصيات عامة أو أحزاب أو حكومـــات مما ساعد الثورة كثيرا في الوقوف على موقف الدول والحكومات والأحزاب والشعوب من الثورة، وقد جاء في قرار اتهامه إبان محاكمة قادة الثورة " إنه

كاتم وكاتب أسرارهم، مراسلا وآمرًا ومكاتبًا جميع الجرائد بنشر الخطب والقصائد والأراجيف والمقالات والترهات التي أوجبت تهيج الأوباش وتجاريهم على ارتكاب أمور شنيعة و فكرات فظيعة " (١٢٧).

وبالطبع لا يمكن أن نتكلم عن دور المثقفين في الثورة دون أن نتكلم عن الأزهر كمؤسسة ثقافية، وعن دور الأزهريين كمثقفين، وبالطبع فإننا نظلم الأزهر كثيرا لو حصرنا دوره في كونه مؤسسة ثقافية أو حصرنا دور الأزهريين في كونهم مثقفين، فالأزهر أشمل من ذلك وكان هذا سبب أننا ناقشنا دوره في الثورة في جزء مستقل.

لعب الأزهر دورًا هامًا في تشكيل الثقافة قبل ذلك وبعد ذلك وأثناء تلك الثورة، بالإضافة طبعا إلى دوره التعليمي كمؤسسة إسلامية وفي الحقيقة فإن الإسلام لا يعرف الفصل بين الدين والسياسة أو الدين والثقافة أو الدين وأي شيء، وبالتالي ففي إطار الدور الديني للأزهر كان من الطبيعي أن يؤدي دوره في الثقافة باعتبار هذا واجب ديني، وهكذا أحتضن الأزهر دائما كل ما هو صالح ونافع للبشر من علوم وثقافات وآداب وفنون وبالتالي كان له تأثير على كل المثقفين في هذا العصر سواء من درس بالأزهر أو لم يدرس به سواء كان تعليمه ديني أو غير ديني، عسكري أو مدني، سواء درس في الداخل أو درس في الخارج عن طريق البعثات، فإذا أضفنا إلى ذلك أن معظم مثقفي هذا العصر قد تأثروا بالأفغاني والأفغاني أيضًا نهل من نفس المنهل الذي يشكل الأزهر جزء منه ، ألا وهو الإسلام، لأدركنا أن معظم المثقفين في ذلك العصر قد تأثروا بصورة أو أخرى بالأزهر أو ما يمثله الأزهر، ولم

يستثني من هذا الإطار إلا المغتربين الذين اعتنقوا قـيم الحضـارة الغربيـة بطريقة أو أخرى مثل شريف باشا وغيره من المثقفين المغتـربين، بـل إن الأزهر أثر على التكوين الفكري للمثقفين السلطويين مثل الطهطاوي أو على مبارك وغيرهما الذين استخدموا بعض وسائل التـراث الإسـلامي لخدمـة وتبرير سياسات الحكام، وعلى مستوى الأزهريين، فإن الأزهر كان يقدم من الثقافة ما يسمح بظهور العديد من الأدباء والشعراء والصحفيين والمبـدعين عموما "، ومن الأزهريين من يلتحق بالجيش، ومنهم من يلتحـق بالمـدارس العليا ليكونوا أطباء أو مهندسين ، ومنهم من يلتحق بالبعثات أيضًا ويتعلم في الخارج علوما وفنونا متنوعة، ومن خريجي الأزهر تجد المدرسين والقضاة، وبكل تأكيد كان لهؤلاء جميعًا أثر كبير على الثقافة عمومًا.

ومن المثقفين المواليين للثورة كذلك والمؤيدين لها.نجد طائفة كبيرة من طلاب البعثات المصرية في أوروبا، وانخرط معهم في عملية تأييد الثورة عدد كبير من المبعوثين من مختلف البلاد والشعوب الإسلامية وهـؤلاء حـرروا الصحف.وعقدوا المؤتمرات.وأرسلوا البرقيات لتأييد الثورة.بل وطلب بعضهم المجيء إلى مصر كي يشاركوا في الثورة ويحاربوا الإنجليز. (١٢٨)

لاشك أن الشيخ محمد عبده كان من كبار المثقفين في الفترة التي اندلعت فيها الثورة العرابية.فهو فقيه كبير.وأديب فذ.يكتب الشعر والنثر ويؤلف فـي المنطق والفلسفة والتربية والاجتماع، ويري بعض الأكاديميين مثل الـدكتور على شلبي أن الشيخ محمد عبده هو فيلسوف الثورة ومفكرها (١٢٩).

ويري قطاع لا يستهان به داخل الحركة الإسلامية أن الشيخ محمد عبده هو أحد أهم روافد الفكر الإسلامي الثوري المعاصر وهذا هو جوهر المشكلة في الشيخ محمد عبده؛ لأن مواقفه المتناقضة جعلت بعض الأكاديميين يصلون به إلى درجة فيلسوف في الثورة العرابية ومفكرها،وجعلت قطاعا لا يستهان من الحركة الإسلامية يعتبره أحد روافد الفكر الإسلامي الثوري المعاصر.

وهذا الموقف والتقييم خطأ تمامًا ولا يستند إلى تحليل حقيقي لشخصية وفكر الشيخ محمد عبده.ولكن المسألة هنا ليست مجرد خطأ في تقييم شخصية أو ظاهرة أو موقف تاريخى.بل هي مسألة خطيرة ذات مردود كبير على فكر الحركة الإسلامية ومستقبل الثورة الإسلامية أيضًا.

وعلينا أن نحلل موقف وشخصية محمد عبده لنصل إلى التقييم الصحيح والموضوعي في المسألة؛ فالشيخ محمد عبده هو أحد تلاميذ الأفغاني وقد تفتحت مواهبه الفكرية والفقهية بفضل المناخ الذي أحدثته أفكار الأفغاني في مصر بوجه عام وبفضل تتلمذه على الأفغاني بوجه خاص والشيخ محمد عبده طاقه عقليه وفكرية كبيرة جدًا.فقهية وأدبية على السواء فهو يكتب الفصول الممتعة في المنطق والفلسفة والتربية والاجتماع والأدب، بل ويقرض الشعر والشيخ محمد عبده يقود المعارك الفكرية دفاعا عن الإسلام ضد طبقات المستشرقين ويمتلك من قوة الحجة ما يجعله أهلا لذلك وخير مثال على ذلك رده على " هانوتو " وتفنيد مطاعنه على الإسلام.

وقد ألف محمد عبده عددًا من الكتب الهامة منها الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ". وقدم اجتهادات فكرية رائعة وأسلوب عظيم في تفسيره للقرآن

الكريم ولا مانع أن يكون " منبع النور والعلم والحكمة كما وصفه الرافعي " (١٣٠)، والشيخ محمد عبده بذل جهودا مشكورة في إصلاح التعليم في الأزهر وإصلاح الأوقاف وإحياء العلوم العربية والسلفية وتأسيس الجمعيات الخيرية لنشر التعليم والبر بالفقراء وإصلاح القضاء الشرعي. والشيخ محمد عبده له الفضل في إظهار مبادئ الإسلام على حقيقتها خالية من شوائب الجمود والبدع والشيخ محمد أيضًا يمتلك كل الصفات الأخلاقية المحمودة، وأنه لم يكن طالب ثروة، وكان عفيف النفس، كل هذا وأكثر منه يمكنك أن تقوله في شأن السيخ محمد عبده، أما أن تقول أنه كان قائدا ثوريا أو أنه كان مفكر الثورة العرابية أو تعده من رواد الفكر الإسلامي الثوري المعاصر فهذا خطأ كبير وخطير، فالشيخ محمد عبده لم يكن يومًا ما ثوريًا أو من دعاة الثورة ولا كان مفكر الثورة العرابية ولا فيلسوفها، ولا يمثل كشخصية وكفكر رافدًا كبيرًا أو صغيرا من روافد الفكر الإسلامي الثوري المعاصر.

ويمكنك أيضًا أن تفضل محمد عبده ومدرسته وأسلوبه على أسلوب وفكر مدرسة الثورة الإسلامية، ولكن عليك في هذه الحالة أن تقول أنك غير مؤمن بالفكر الإسلامي الثوري المعاصر، وأنك لا ترى فيه فائدة أو طريقًا صحيحا للنهوض بالمسلمين، أما أن تقحم محمد عبده في روافد الفكر الإسلامي الثوري المعاصر فهذا هو الخطأ ، يمكنك أن تفضل الإصلاح والتربية على الثورة، ولكن لا تخلط بين الإصلاح والثورة بين الفكر الإصلاحي والفكر الثوري بل ويمكنك أن ترفض هذا وذاك وتقول أنه لا أمل في المسلمين، ولكن الأمل في أقناع أهل أوروبا أو أمريكا أو روسيا أو

اليابان بالإسلام، وهؤلاء جميعا أو بعضهم إذا أسلموا استطاعوا أن يعيدوا للإسلام مجده.

يمكنك أن تقول أي شيء من هذا، ونحن نحترم كل هذه الآراء والأفكار، ولكن لا تخلط بين الثورة الإسلامية حتى لو كنت ضدها كأسلوب وبين محمد عبده الذي لم يمت بصله يوما للثورة، وانظر إلى الوقائع الثابتة، فمحمد عبده انحاز إلى رياض باشا المعروف باستبداده وانحيازه إلى النفوذ الأجنبي، وأعدي أعداء الثورة العرابية على الإطلاق وعمل رئيسا لتحرير جريدة الوقائع في عهد رياض باشا يقول الرافعي: ولم يكن الشيخ محمد عبده من أنصار الثورة العرابية حين شبوبها بل كان مؤيدًا لرياض باشا –، ولم يكن يشاطر العرابيين رأيهم في ذلك ويميل إلى نظام الحكم الفردي المقرون بالإصلاح " (١٣١).

ويقول السيد محمد رشيد رضا:" إن الشيخ محمد عبده رفض مطالبة عرابي بالدستور وبمشاركة الأمة في إدارة شئون الحكم " (١٣٢) بل ويصل الأمر إلى حد تأليف قصيدة في تأييد رياض إذ يصف واقعة عابدين بقوله:

قامت عصابات جند في مدينتنا ... لعزل خير رئيس كنت راجيه
ذاك الذي أنعش الآمال غيرته ... وخلصت القطر فارتاحت أهاليه
قاموا عليه لأمر كان سيدهم ... يخفيه في نفسه والله مبديه
كان الرئيس حليف العدل منقبة ... وسيد القوم يهدي الجور يأتيه
جروا مدافعهم صفوا عساكرهم ... نادوا بأجمعهم سل ما ترجيه
فنال ما نال وانفضت جموعهم ... أما النظام فقد دكت مبانيه[٣٣]

ونحن بالطبع هنا لا نناقش القصيدة ولا ظروفها ولا ما تريده من معاني ولا نقول هذا الموقف خطأ أو صواب، ولا صواب ولا نقدح في رأي الشـيخ محمد عبده ولا في رؤيته لظروف حادثه عابدين، ولكننا فقط نثبت أنه كـان ضد حركة الجيش في واقعة عابدين وكان منحازا إلى رياض الذي لا شك في أنه " أي رياض " كان منحازا إلى الأجانب ولو حتى على حساب الخديوي أو لحسابه –إذا فلم يكن الشيخ محمد عبده لا مفكر الثورة العرابية ولا فيلسـوفها ولا يري أن الظروف تسمح بقيام الحكم الدستورى، ويقول الرافعي: ولما وقع الخلاف بين العرابيين وشريف باشا في مسألة الميزانية والمواد المتعلقـة بها في الدستور كان الشيخ محمد عبده من الناصـحين لهـم بالاعتـدال والتريث " [١٣٤]، ونحن هنا لا نناقش هل كان العرابيون علـى صـواب أم كان شريف باشا هو الذي على صواب بل نثبت أنه إلى هذه اللحظة لم يكـن الشيخ محمد عبده مع الثورة العرابية ولنكمل الرحلة مع الشيخ محمـد عبـده يقول الرافعي:، ولكن لما تألفت وزارة البارودي أنضم الشيخ محمد عبده إلى العرابيين بكل قوة " [١٣٥].

إذن فقد لحق بآخر عربة في قطار الثورة بعد أن كان يخالفهـا وينشـد الأشعار في هجائها والإشادة برياض باشا، فهل هذا يرجع إلى أنه اكتشف أنه كان على خطأ وأن الثورة كانت على صواب فرجع عن خطئه واسـتغفر الله لذنبه ولحق بالثورة ؟ أم أنه لما وجدها وصلت إلى السلطة باسـتلام زمـام الوزارة قرر أن يرتبط بها ويدافع عنها بكل قواه ؟ أم تـراه يأخـذ الموقـف ونقيضه بدون أسباب ؟ الله تعالى أعلم ! ولنكمل أيضًا الرحلة مع الشيخ محمد

عبده، فبعد هزيمة الثورة صدر الحكم بنفيه ثلاث سنوات فالتحق بالأفغاني وأصدر معه مجلة العروة الوثقى التي لعبت دورًا هامًا في أيقاظ الشعوب الإسلامية، ثم عاد الشيخ محمد عبده إلى مصر سنة ١٨٨٩ وانقطع عن الكفاح السياسي تماما_ وأختلف في ذلك مع أستاذه جمال الدين_ بل وبمجرد وصوله إلى مصر تقلد منصب الإفتاء في الديار المصرية " سنة ١٨٨٩ ذاتها " وتراخت صلته بجمال الدين _ حتى الصلات الشخصية _ ولم يرسل رسالة واحدة إلى السيد جمال الدين في محنته ومنفاه بل إن جمال الدين عندما توفي لم تجد للأستاذ الإمام " الشيخ محمد عبده " كلمة رثاء في أستاذه الروحي، وهذه الناحية هي أثر من آثار الاحتلال في أخلاق الأمة ونفسيتها " (١٣٦) كل الكلام السابق للرافعي .

وبقي أن نقول نحن كلمتنا ، فالوقائع تقول إن الشيخ محمد عبده لم يكن ثوريا ولا من دعاة الثورة العرابية ولا غير العرابية، وهو لا يمت للفكر الثوري الإسلامي وغير الإسلامي بصلة بل هو أيضًا لا يمت للفكر السياسي بصلة وخاصة في أدوار حياته الأخيرة التي انقطع فيها عن السياسة أو انقطع عن الكفاح السياسي بتعبير الرافعي _ وقبل العمل كمفتي في ظل الاحتلال الإنجليزي وكانت له علاقة طيبة بالمعتمد البريطاني اللورد كرومر ولم يعرف عنه أنه دعا إلى مناهضة الاستعمار الإنجليزي منذ أن عاد إلى مصر سنة ١٨٨٩ إلى أن مات _ وهو في بداية حياته ينحاز إلى رياض باشا وينتقد الثورة فإذا ما لاحت علامات النصر للثورة أنحاز إليها بكل قواه، فلما تم نفيه عقابًا على ذلك بعد هزيمة الثورة تعاون مع جمال الدين في إصدار العروة

الوثقى فلما عاد إلى مصر سكن وركن إلى الإنجليز في مقابل إصلاح الأزهـر والتعليم وتفسير ذلك كله في رأينا أن الشيخ محمد عبده كان رجلا مخلصا ولـم يكن طالب سلطة ولا ثروة، ولكنه كان يري أن النهـوض بالمسـلمين يكـون بإصلاح التعليم والأزهر وبتربية النشء وفي مقابل ذلك يمكنه أن ينحـاز إلـى المستبدين أو المحتلين أو حكومة الثورة أو أي سلطة كائنا من كانت _ وهذا ما نطلق عليه المنهج الإصلاحي، وهو يختلف تماما عن المنهج الثوري الذي مـن رموزه الأفغاني والنديم ومصطفي كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وهو المنهج الذي يؤمن بالثورة على الاحتلال والاستبداد؛ لأنهما أو أي منهمـا هـو السبب في الجهل والتخلف، والمنهج الثوري لا يمـانع فـي الاهتمـام بـالتعليم والتربية، ولكنه يدرك أن سلطات الاحتلال والاستبداد لن تترك أحد يفعل هـذا بحرية بل في إطار ما تريده هذه السلطات وعلى كل فلو كان هناك فرصة لذلك فعلينا أن نستفيد بها إلى أقصي درجة.

المنهج الثوري يعطي الإنسان الرؤية الكلية وليست الجزئية وبالتالي تـراه منطقيا في كل سلوكه وليس مترددا تارة إلى هؤلاء وتارة إلي هؤلاء كما يفعـل دعاة المنهج الإصلاحي، المنهج الثوري يحمل مزايا المنهج الإصلاحي ويستفيد بالإصلاحيين داخل إطاره، ولكنه لا يحمل عيوب المنهج الإصلاحي، المـنهج الثوري هو الأفغاني والمنهج الإصلاحي هو محمد عبده ولا صلة بين المنهجين ولا علاقة بين محمد عبده حتى ولو لحق بقطار الثورة في اللحظـة الأخيـرة _ حتى ولو كان تلميذاً للأفغاني وحتى إذا شارك في تحرير العروة الوثقى فـذلك كله يأتي في إطار تردد الإصلاحيين وعملهم من خلال أي سـلطة أو فرصـة متاحة من أجل الإصلاح والتربية ولو على حسـاب مناهضـة الاسـتعمار أو

الاستبداد ، وفي إطار أن المنهج الثوري لا يمانع في الاستفادة من قدرات الإصلاحيين وخاصة من كان منهم في ذكاء محمد عبده فهذا سبب استعانة الأفغاني به وسماح الثورة العرابية له بتأييدها في آخر مراحلها.

وبديهي أن المنهج الثوري لا يمانع في الاستفادة من أي شيء في الدنيا في إطار الشرع وفي إطار عدم التخلي عن المبادئ الرئيسية للمنهج الثوري.

ونعود فنكرر أن من حق أي إنسان أو جماعة أو مجموعة أن تتبنى وتدافع عن سلوك مدرسة وفكر محمد عبده، ولكن عليها ألا تخلط بينه وبين الفكر الثوري أو تقحمه عليه إقحاما، من حقها أن تلعن الأفغاني والنديم وعرابي والثورة والحركة وأي شيء في مقابل الدفاع عن سلوك وفكر محمد عبده، ولكن عليها أن تعرف أن محمد عبده قد لعن أيضًا الثورة والحركة السياسية وكل ما يمت إلى كلمة سياسة بصلة وكل مشتقات اللغة من لفظ ساس من فعل وفاعل ومفعول ونائب فاعل وهلم جرا، أما أن تدعي أنك ثوري أو حركي أو حتى سياسي ثم تتبنى فكر محمد عبده كرافد للثورة أو السياسة فهذا هراء.

السلطات الحاكمة سواء كانت استعمارية أو استبدادية تستفيد من الإصلاحيين كثيرا وتحركهم لصالحها، فهي من ناحية تتركهم يمارسون نشاطهم الإصلاحي حتى تظهر تلك السلطات بمظهر غير معادي للإسلام أو الشعب ثم تضغط على هؤلاء الإصلاحيين شيئا فشيئا حتى تحصل منهم على التأييد والشرعية في مقابل عدم ضرب مشروعاتهم الإصلاحية، وهكذا لم يكن عجيبا أن ينضم الشيخ محمد عبده إلى حزب الأمة الذي ينادي بالتعاون مع الإنجليز وكان يشيد بإنجازات الاحتلال في مصر.

دور كبار الملاك.. الأرستقراطية الزراعية

حرص النفوذ الأجنبي في إطار الاحتلال السلمي لمصر على السيطرة الكاملة على التجارة والشركات والبنوك ودمر أي محاولة صناعية بلا هوادة وكان الهدف من ذلك هو نهب مصر واحتلالها سلميا من ناحية. وصياغة اقتصادها بحيث لا يمكن ظهور نهضة صناعية أو تراكم رأسمالي تجاري مصري يمكن توجيهه إلى الصناعة _ والشيء الوحيد الذي سمح به الاستعمار لغير الأوروبيين هو الاستثمار الزراعي. وبالطبع كان ذلك لامتصاص أي فائض مالي غير أوروبي في مصر بعيدا عن الصناعة والتجارة من ناحية _ واستغلال هذا الفائض المالي غير الأوروبي في زيادة الرقعة الزراعية المصرية الموجهة إلى إنتاج المحاصيل النقدية التصديرية مثل القطن _ أي التي تخدم عملية النهب الاستعماري أساسًا ولم يترك النفوذ الأجنبي هذا القطاع وهو " الاستثمار الزراعي " أيضًا بعيدا عن مشاركته بل وجدنا الأجانب والمرابين من جميع الجنسيات الأوروبية يحاولون شراء أي قدر ممكن من الأراضي الزراعية عن طريق إغراق الفلاحين أو حتى الأمراء في الديون الربوية أو عن طريق إفلاس الفلاحين الصغار والمتوسطين بواسطة الخمارات ووابورات المياه والتحكم في شراء الحاصلات وغيرها من الوسائل. والمحصلة الأخيرة هو أن الأجانب كانوا أيضًا جزءا من طبقة كبار الملاك.

والأرستقراطية الزراعية تلك أو طبقة كبار الملاك نشأت أصلا بطريقة غير مشروعة ، فقد نشأت عن طريق المنح والإكراميات التي منحها محمد

على للحاشية أو كبار الموظفين أو كبار ضباط الجيش أو حتـــى المثقفـــين المرتبطين به مثل الطهطاوي ، وأستكمل كل من سعيد وإسماعيل هذا الأمر. أي أن هذه الطبقة نشأت أصلا عن طريق الارتباط بالحاكم المســتبد وتقــديم الخدمات له فحصلت على المكافأة بمنحها أبعادية أو جفلــك أو غيرهــا مــن المسميات التي أطلقت على مساحات الأرض الواسعة. وكامن من الطبيعي أن يعمل كل من حصل على مساحة كبيرة من الأرض على زيادتها بلا قناعة أو رحمة بشراء الأراضي طوعا أو كرها من صغار الفلاحين.

ومن ناحية النفوذ الأوروبي، فإنه لم يعترض على هــذا بــل شــجعه وشارك فيه للأسباب التي ذكرناها.

إذن فهذه الطبقة مرتبطة بالحكم المستبد ، ولا تجد حساسية تجاه النفــوذ الأجنبي، وكانت هذه الطبقة تتكون من الأوروبيين والأسرة الخديوية وحاشية الخديوي سواء ممن الأتراك أو المصريين، وكنت تجــد فـــي هــذه الطبقـــة الأوروبي مثل عائلات دريفو وخريستو والتركي مثل شريف باشا والمصري مثل رياض باشا والطهطاوي، وبديهي أن الأسرة الخديويـــة كانـــت تحظـــي بالنصيب الأكبر في ملكية الأراضي، ولأن الثورة العرابية كانت ثورة إسلامية فإن من الطبيعي أن تفكر في إعادة تلك الأراضي المنهوبة إلى الفلاحين؛ لأنها أراضي منهوبة منهم أولا ولأن الإسلام يعطي الأرض لمـــن يزرعهـــا ولا يسمح أساسًا بملكية الأرض ملكية فردية بل هي ملكية عامة للأمة كلها يقـــوم من يزرعها بالحصول على ناتج غلتها وليس غيره.، وفي الإطـــار الســـابق يمكننا أن نفهم موقف كبار الملاك من الثورة العرابية فـــالأوروبيون مـــنهم

بداهة كانوا ضد الثورة في كل مراحلها والمرتبطون بالخديوي ارتباطا مباشرا مثل رياض والطهطاوي وعثمان باشا رفقي كانوا أيضًا ضد الثورة في كـــل مراحلها، ولكن هناك نموذجان متميزان فقد كان هناك بعض كبـــار المـــلاك بقيادة شريف باشا لم يقفوا ضد الثورة بصورة مباشرة منذ البدايـــة ؛ لأنهـــم كانوا ذوي ثقافة غربية ويريدون في إطار تلك الثقافة أن تحكم مصر بواسطة نظام دستوري على النمط الأوروبي إلا أن هذه المجموعة ما لبثت أن انحازت إلى معسكر أعداء الثورة وخاصة بعد الخلاف حـــول موضـــوع الميزانيـــة والنموذج الثاني المتميز كان نموذج مجموعة فضلت انتمائها الإسلامي على مصالحها بدرجات متفاوتة فمنهم محمود سامـــي البارودي باشا الذي انحـــاز إلى الثورة في كل مراحلها وكان أحد كبار زعمائها بل هـــو رئـــيس وزراء الثورة وكان المتهم الثاني بعد عرابي أثناء المحاكمة وصدر عليه نفس الحكم الذي صدر على عرابي وهو النفي المؤبد ، الأكثر من هذا أنه ظل متماســـكا ومخلصا لفكرة الثورة طوال المنفي وبعد العودة من المنفي في حين تراجـــع كثيرون أو ضعفوا.

ومنهم بعض أمراء البيت الخديوي نفسه الذين منعهم شرفهم الإســـلامي من تأييد الخديوي عندما انحاز إلى الإنجليز. مضحين بـــروابطهم الأســـرية ومصالحهم وربما بحياتهم ، فلو فكروا في تلك المسائل؛ لانحازوا إلى الجبهة الأقوى خصوصًا بعد نزول الجيش الإنجليزي إلى الإســـكندرية وكـــان مـــن هؤلاء الأمير إبراهيم باشا، الأمير كامل باشا فاضل " ابن عم الخديوي توفيق " ، الأمير أحمد باشا كامل. وقد وقع هؤلاء على قرار عزل الخديوي توفيـــق

والتمسك بعرابي كقائد للجيش المصري في مواجهة الإنجليز ، كما قام بعض أعضاء الأسرة الخديوية ليس فقط بإعلان الولاء للثورة وعزل توفيق الخائن بل تبرع بعضهم للمجهود الحربي للثورة مثل والدة الخديوي إسماعيل التي تبرعت بجميع خيول عرباتها وكذلك حرم خيري باشا وكثير من الذوات " على حد تعبير عرابي في مذكراته ".

دور الأعيان في الثورة

الملاحظة الأولي الخاصة بدور الأعيان في الثورة العرابية هو أن المراجع التاريخية والدراسات الخاصة بتلك الفترة تختلف اختلافا كبيرا في تقييم دور الأعيان في الثورة _ فالبعض يجعل الثورة العرابية ثورة أعيان والبعض الآخر يري أن الأعيان كطبقة كانوا ضد الثورة في جميع مراحلها وفي الحقيقة فإن هذا الرأي وذاك خطئان _ والخطأ هنا جاء أيضًا مثل كل الأخطاء التي تقع فيه تلك الدراسات بسبب استنادها إلى الفكر الثوري الأوروبي في تحليل أحداث الثورة أو أحداث بلادنا عموما ورغم اختلاف الظروف جملة وتفصيلا.

يجب في البداية أن نحدد المقصود هنا بالأعيان. وسوف نأخذ بالرأي الذي أجمعت عليه كافة المصادر والدراسات وهو أن هؤلاء الأعيان هم عمد البلاد ومشايخها وقد كان لهم نفوذ كبيرة وخاصة في الريف، وإذا نظرنا إلى تشكيل المجالس النيابية في تلك الفترة ففي مجلس ١٨٦٦ بلغ عدد العمد ٥٨ عضوا من مجموع الأعضاء البالغ عددهم ٧٥ عضوا وفي مجلس ١٨٧٠

كانوا ٦٣ عضوا وفي مجلس ١٨٧٦ بلغ عددهم ٦٠ عضوا وكان هذا طبعا بسبب قوانين الانتخاب.

وهؤلاء الأعيان عادة يمتلكون أكثر من ١٠ أفدنه، ولكن لا تصل درجة ملكياتهم إلى درجة كبار الملاك أبدا ، وعلى سبيل المثال فقد ورث عرابي عن والده ثمانية أفدنه وكان والده هو عمدة قرية هرية رزنة بمحافظة الشرقية _ إذا فملكية ولد عرابي عمدة القرية تتراوح بين ٢٠، ٣٠ فدان على الأكثر.

إذن فالأعيان إما من طبقة صغار الملاك أو متوسطيهم، وإذا حاولنا أن نقيم دور الأعيان في الثورة من خلال مجلس النواب لوجدنا أن مجلس النواب وقف مع الثورة في خلافها مع شريف باشا حول مسألة نظر الميزانية ، ثم تقاعس هذا المجلس نفسه عندما أنحاز الخديوي للأجانب ولما طلب عرابي إلى مجلس النواب خلع الخديوي رفض هذا المجلس ذلك رغم الضغط الذي مارسه الضباط على النواب في ذلك الاجتماع ولم يوافق على خلع الخديوي إلا خمسة نواب هم: أمين الشمسي، مهني أبو عمر، مراد السعودي، أبو عبد الله، محمد جلال ، واضطرت قيادة الثورة إلى عقد مجلس عرفي لخلع الخديوي _ مع أن المروض قانونا أن يضطلع مجلس النواب بتلك المهمة _ ونجد أن عددا من النواب (٥ نواب) قد وقع على قرار المجلس العرفي بعزل الخديوى ، على أنه ليس من المنطق ولا العلمية أن نحصر ونقيم دور العيان من خلال مجلس النواب وحده.

فإذا كان الأعيان هم العمد والمشايخ فإن الكثير من هؤلاء العمد والمشايخ قد أنحاز إلى الثورة في جميع مراحلها وخاصة في المراحل الحرجة

_ فوثائق الثورة العرابية تقول أن كثير من الأعيان جاءوا إلى القاهرة إبـان أحداث ٩ سبتمبر ١٨٨١ لتأييد عرابي وكثير منهم قد وقع على التوكيل الذي يخول عرابي حق التكلم باسم الأمة قبيل أحداث ٩ سبتمبر، ونجد أيضًا أن ٥٢ عمدة وشيخ و٣٦ من الأعيان " عمدة سابق أو شيخ سـابق أو مـن صـغار الملاك ومتوسطيهم " قد وقع على عزل توفيق " مجموع الذين وقعـوا كـان ٢٤٧ يمثلون مختلف طوائف البلاد " بل نجد أيضًا أن الكثير مـن الأعيـان والعمد والمشايخ قد تبرعوا للمجهود الحربي للجيش في مواجهة الإنجليز مثل أسر حميد و أبو ستيت و موسي ميـزار والاسـيوطي بسـوهاج وراضـي بالواسطي وزغلول بالغربية وجلال بالمنيا وعبـد الله بالشـرقية، وغيـرهم كثيرون " (١٣٧)

ولعب كثير من العمد والمشايخ والأعيان دورا هاما في تنظيم وحشـد المتطوعين للثورة وكذلك الدعم المالي، بل ونجد أيضًا عددا من هؤلاء فـي قائمة الذين صدرت ضدهم أحكام عند محاكمة قادة الثورة بلغ عددهم حـوالي ٤٠ شخصا ذكر الرافعي أمامهم عمدة وشيخ أو من الأعيان " (١٣٨).

وعلى الجانب الآخر نجد أن معسكر أعداء الثورة قد ضم أيضًا عددا لا يستهان به من الأعيان والعمد والمشايخ _ بل نجد أن الرأس المـدبرة وأهـم الشخصيات التي قامت بالدور الخياني هو سلطان باشا " من الأعيان " وقـد استطاع هذا أن يجند الكثير من العمد والأعيان في معسكر الخيانة مثل: السيد الفقي عمدة كمشيش، وأحمد عبد الغفار عمدة تلا، سـعود الطحـاوي شـيخ الهنادي، محمد صالح الحوت عمدة الصالحية وغيرهم.

وإذا حاولنا أن نأخذ دلالة الأرقام نجد أن خمسة فقط من مجلس النواب المشكل من الأعيان أساسًا هم الذين وافقوا على خلع الخديوي في حين رفض الآخرون وأن ٥٢ عمدة فقط من عمد البلاد الذين من المفروض أن يكونــوا بعدد القرى والمدن الصغيرة في ذلك الوقت هم الذين وقعــوا علــى قــرار المجلس العرفي والباقون إما رفضوا وإما كانوا على الحياد.

ومحصلة كل هذا أن الأعيان شاركوا في الثورة في معظمهم. ولكــن قطاع لا يستهان به منهم انحازوا إلى معسكر أعداء الثورة أو مارس الخيانــة وشارك فيها مباشرة بحيث لا يمكن اعتباره مجرد استثناء أو حالات فردية _ بل يشكل ظاهرة متسعة ولعل تعبير الدكتور على شلبي يعكس ذلك حيث يقول " أن ذلك لا يعني أن كل الأعيان قد تخلوا عن الثورة " [١٣٩]، ولكن الأصح أن نقول أن الأعيان شاركوا في الثورة في معظمهم وأن هناك قطاعا متســعا قد خان الثورة أو انحاز إلى معسكر الأعداء وأنه قطاع يشكل ظاهرة وليس مجرد استثناءات أو حالات فردية.

حاول لويس عوض كعادته أن يسيء إلى الثورة العرابية؛ لأنهــا كانــت موجهة ضد النفوذ الأجنبي الذي يعمل هو في خدمته، فأراد أن يتجاهلها ببعــدها الإسلامي والوطني، فحصرها في مجرد ثــورة أعيــان علــى الأرســتقراطية الزراعية ، أي مجرد ثورة قطاع صغير من المجتمع على قطــاع آخــر ، بــل ووضع عنوان دراسته كالتالي " الثورة العرابية ثورة أعيان " !!

ولويس عوض طبعا يريد ألا تكون الثورة العرابيــة ولا أي ثــورة أو فكرة ضد الاحتلال الأجنبي أو النفوذ الأجنبي، فبدلا من أن يــري الحقــائق

الكبيرة في الثورة مثل كونها ثورة شاملة ضمت جميع الفلاحين _ الأزهريين و المثقفين و قطاع كبير من الأعيان و بعض كبار الملاك و الموظفين والتجار بل طلبة البعثات، بل وزعماءها الإسلاميين حتى النخاع مثل الأفغاني والنديم وعرابي، نجده يتجاهل ذلك كله ويبلعه ويحصرها في إطار ضيق هو ثورة الأعيان ،مع أن الأعيان بالذات كانت الخيانة فيهم تشكل ظاهرة وليست مجرد استثناء على حد قول الدكتور على شلبي الذي سبق إثباته ونعيد إثباته " ولا يعني ذلك كله أن كل الأعيان قد تخلوا عن الثورة " ومع أن مجلس النواب الذي هو بالتحديد قيادة الأعيان وممثلهم رفض خلع الخديوي فيما عدا خمسة أعضاء، ولكن لويس عوض هو لويس أجاكس عوض دائما، فهو لا يريد الثورة العرابية أن تكون ثورة أمة ضد النفوذ الأجنبي ومستعد أن يتجاهل كل الحقائق في سبيل ذلك.

دور الموظفين في الثورة

لعب الموظفون دورًا هامًا في الثورة ، مثل كل الشعب والطوائف ونجد أن العديد من الأطباء ــ المهندسين ــ المديرين ــ الصيادلة ــ المدرسين ــ القضاة قد أنحاز إلى الثورة بل وصدرت ضدهم الأحكام بعد هزيمة الثورة، وقائمة المحكومين عليهم موجودة لمن أراد مراجعتها في الرافعي، فنجد أن ٦ من وكلاء الوزارات و ٨٤ من كبار الموظفين و ٥ من موظفي السراي الخديوي " و٦ من القضاة قد وقعوا جميعًا على قرار خلع الخديوي ، بل ولعب الموظفون دورًا هامًا في حشد وتعبئة الجماهير لصالح الثورة، وقاموا بإدارة الجهاز الإداري بكفاءة عالية رغم خيانة الوزارة وغياب مجلس النواب

وذلك في الفترة الواقعة من خيانة الخديوي وإسماعيل باشا راغب رئيس الوزراء وذهاب هؤلاء إلى معسكر الإنجليز وحتى احتلال القاهرة ، أي أدار هؤلاء الموظفين الجهاز الإداري للدولة طوال فترة الحرب وهذه الفترة شهدت ظهور المجلس العرفي و إدارته لكل مرافق البلاد اعتمادا طبعا على الموظفين الذين انحازوا إلى الثورة وتخلوا عن الخديوي ورئيس وزرائه.

دور الحرفين في الثورة

قد يبدو للبعض أن دور الحرفين في الثورة كان ضئيلا ؛ فقد وقع مثلا ٣ حرفيين فقط على قرار خلع الخديوي من مجموع ٢٤٧ شخصا يمثلون كافة الطوائف، كما خلت قوائم المحكوم عليهم من الحرفين. ولكن ذلك في الحقيقة لا يعكس ضآلة دورهم في الثورة، ولكنه يعكس حقائق أخرى ربما كانت من أهم أسباب الثورة ذاتها، والحقيقة أن محمد على كان قد ضرب الحرفيين والصناع وحولهم إلى أجراء عنده وتمت تصفية معاملهم ومصانعهم وحرفهم ونقاباتهم؛ وهي التي لعبت دورا كبيرا في الثورة ضد الفرنسيين، ثم ضد الاستبداد ما بين ١٧٩٨ _ ١٨١٠ .

وعندما انهارت صناعة محمد على لم يجد هؤلاء طريقا آخر إلا العودة إلى القرى والعمل كفلاحين حيث لم يعد للقطاع الخاص الحرفي والصناعي سواء كان كبيرا أو صغيرا وجود وبالطبع فإن النفوذ الأجنبي الذي سيطر على مصر ابتداء من ١٨٤٠ استهدف أساسًا منع ظهور صناعة وحرف بالمرة . وإذا اضطر إلى شيء منها في أضيق الحدود فإن ذلك يكون عن طريق أجانب فقط إذن فلم يكن هناك معامل ولا مصانع تسمح بظهور عمال

وحرفيين صناعيين وكانت هذه أهم أهداف النفوذ الأجنبي في منع ظهور أي نهضة وخصوصا النهضة الصناعية، وقد فكرت الثورة في ضمن ما فكـــرت في إنشاء بنك أهلي، والاهتمام بالعلوم والصناعات في محاولة لوضع قواعـــد نهضة صناعية .

وكان هذا الوعي الثوري بالمسألة أحـــد أسباب قيام أوروبـــا بتوكيـــل بريطانيا بغزو مصر وذبح الثورة.

دور التجار في الثورة

وما حدث مع الحرفيين والصناع حدث أيضًا مع التجار ؛ فمحمد علـــى قضي على التجار المصريين بنظام الاحتكار ولما أنهار نظام محمـــد علـــى صمم النفوذ الأوروبي الذي سيطر على مصر بدءا من ١٨٤٠ علـــى عـــدم السماح بظهور تجارة أو صناعة وطنية، وأمسك بكل خيوط التجارة الداخلية والخارجية في يده حتى ينهب مصر ، وحتى يمنع ظهور تـــراكم رأســـمالي يمكن أن يوجه إلى الصناعة، ومع هذا فإن التجار المصريين الذين اخترقـــوا هذا الحصار الأوروبي كانوا من أكبر المؤيدين للثورة بل ومن زعمائها وعلى سبيل المثال فإن ٤٣ من التجار قد وقعوا على قرار المجلس العرفي بعـــزل الخديوي توفيق والتمسك بعرابي من مجموع ٢٤٧ شخصا وقعوا على القرار من مختلف الطوائف وفي إطار دعم المجهـــود الحربـــي للثـــورة نجـــد أن الكثيرين من التجار قد تبرعوا بالأقمشة والغلال والأموال وعلى راس هؤلاء نجد السيد حسن موسي العقاد وموسى ميزار وأمين الشمسي.

وعلى مستوى المشاركة في أعمال الثورة والانتماء إلى الخلايا الثورية نجد مثلا أن السيد حسن موسي العقاد وهو كبير تجار القاهرة، وورث عن أبيه التاجر أيضًا السيد موسي العقاد أكثر من ١٠٠ ألف جنيه ، عدا الأطيان والعمارات، نجده كان منذ البداية- وحتى قبل اندلاع الثورة العرابية- أحد تلاميذ الأفغاني، وكان قلبه يضطرم بالثورة والمعارضة فعارض الخديوي إسماعيل معارضة كبيرة مما أدي إلى صدور حكم بنفيه ٥ سنوات إلى السودان فلما سقط إسماعيل، ومع بداية الثورة عاد السيد حسن موسي العقاد إلى مصر وشارك في الثورة في جميع أطوارها وأحوالها من توقيع للعرائض إلى تبرع للمجهود الحربي، إلى التفكير والتخطيط، إلى حشد الجماهير وغيرها، وعند انهزمت الثورة تمت محاكمته وقضي عليه بالنفي المؤبد وهو نفس الحكم الذي صدر على عرابي بل الأكثر من هذا كله أنه أظهر تماسكا وصبرا في المحاكمة، بل وظل يفخر بالانتماء للثورة ولم يبرر أو ينكر أي عمل أسند إليه، فهو يعترف بأنه هو الذي كتب الأوراق المضبوطة والتي تصف الخديوي توفيق بالكفر والمروق والخيانة برغم أن تلك الأوراق لم تكن بخطه، وعندما سأله المحقق عن ثروته الكبيرة أين ذهبت قال أنه أنفقها على الثورة، أما السيد أمين الشمسي – وهو كبير تجار الزقازيق – فتقول وثائق الثورة: إنه كان من أول الذين انضموا إلى الخلايا الثورية ، وأنه عندما نقلت الفرقة العسكرية التي كان يقودها عرابي إلى الشرقية كان السيد أمين الشمسي ينظم اللقاءات لعرابي مع أهالي الشرقية وأعيانها، وينظم عمليات التحريض والدعاية للثورة في محافظة الشرقية.

ليس هذا فحسب بل أن السيد أمين الشمسي هو الـذي قـدم الاقتـراح العبقري بمنع تصدير الغلال حتى لا ترتفع أسعارها وقد ناقشنا من قبل مدلول وأهمية مثل هذا الاقتراح وكذلك كان يفكر مع مجموعة من التجار في أنشـاء بنك أهلي لتمويل صناعة وطنية ، ولم يكن عجيبا أن تتم محاكمته بعد هزيمة الثورة ويصدر حكم بتغريمه ٥٠٠٠ جنيه ووضعه تحـت الإقامـة الجبريـة والمراقبة لمدة ٥ سنوات.

دور الفلاحين في الثورة

كان الفلاحون هم العمود الفقري للثورة وكانوا أكثـر الفئـات حماسـا وإخلاصا وثورية وتأثيرا في دعم الثورة، وقد كان هذا طبيعيـا بـل بـديهيا فالمعروف أن الفلاحين أكثر الفئات تمسكا بالإسلام وأكثرها حماسًا له وأكثرها أيضًا استجابة للدعاية الدينية الإسلامية ، والفلاح المسلم عموما والمصـري خصوصا لا يتحرك إلا في إطار الإسلام وبشرط الحصـول علـى الفتـوى الشرعية لأي عمل كبير أو صغير، وقد لعب النديم دورا هاما فـي توعيـة الفلاحين وتحريضهم بالوسيلة الوحيدة التي يعرفونها وهي الدعاية الإسـلامية كما لعب عدد كبير جدًّا من علماء الأزهر الصغار والمتوسطين الذين كـانوا من أبناء كل قرية وكل مدينة ريفية والذين كانوا يعتلون المنابر في عشـرات الألوف من المساجد في خطب الجمعة أو الدروس الدينية المختلفة أو خطـب الأفراح والمآتم ، لعب هؤلاء دورا كبيرا في تعبئة الفلاحين خلـف الثـورة وإعطائهم الفتاوى الشرعية لكل عمل يمكن أن يقوموا بـه، فـالثورة علـى الاستبداد وظلم الخديوي فريضة شرعية والكفاح ضد الاستعمار أيضًا فريضة

شرعية بل أن الغزو الإنجليزي هو حرب صليبية ضد الإسلام ، ليس هـذا فحسب بل إن الوجدان الشعبي يفرز حماسا وثورية بوسائله الخاصـة، فقـد أعتبر الفلاحون عرابي وليًا من أولياء الله الصالحين وأنه من السلالة النبوية الشريفة، وأن هناك نصوصًا دينية تؤكد انتصار عرابي وعلو شأنه".

كان الفلاحون هم أكثر الفئات مساهمة في الثورة؛ لأنهم كانوا الأكثـر حماسا للإسلام، وكانوا الأكثر عنفا في ثوريتهم؛ لأنهم الأكثر نقاء في إسلامهم ولم يكن التغريب قد أستطاع أن يصل إليهم أو يفسدهم. وكانوا الأكثر تنظيما؛ لأن تنظيمهم موجود دائما ومراكزهم التنظيمية وقيادتهم موجودة على هيئـة تنظيم دقيق دائما، تنظيم المسجد محوره ومركزه وعلماء الدين وأئمة المساجد هم القادة الطبيعيون، وهناك اجتماع أسبوعي جماهيري واحد على الأقل فـي يوم الجمعة من كل أسبوع. وهكذا كان حشـد الجمـاهير الفلاحيـة سـهلا واستجابتهم هائلة.؛ لأن الوصول إليهم سهل وميسور مـن خـلال المسـجد والعلماء ولأن اللغة التي يفهمونها هي لغة زعماء الثورة الكبار والمتوسطين والصغار ألا وهي الإسلام.

ومنذ اللحظة الأولي للثورة كانت جماهير الفلاحين خلف الثورة فعقـب حادث ١ فبراير ١٨٨١ جاء الفلاحون إلى القاهرة لتأييد عرابـي جماعـات وأفرادا، وقبل تقديم مطالب الأمة في ٩ سبتمبر ١٨٨١ كان الفلاحـون قـد وقعوا على توكيل لعرابي بأنه يمثل الأمة ويتحدث باسمها، وجاءوا بأنفسـهم إلى ميدان عابدين في مظاهرة شعبية كبيرة لدعم الجيش وكـان النـديم وراء ذلك ومعه جيش من الأزهريين ــ القيادات الطبيعية للفلاحين ــ وعند االغزو

الإنجليزي لمصر دفع الفلاحون آخر مليم في جيبهم من أجل الجيش وآخـــر حفنة خبز وآخر حزمة حطب وهذا هو ما يملكونه.

ومن كان يملك حمارًا أو جاموسة قدمه عن طيب خاطر إلى الجـــيش، وتطوع مئات الألوف من الفلاحين لصد الغزو الصليبي وهم الـــذين كـــانوا دائما يحاولون التهرب من التجنيد بأي وسيلة إلى حد إتلاف بعضهم لأجـــزاء أو أعضاء في أجسامهم، ولكن القضية هنا واضحة أنه جهاد في سبيل الله لصد الغزو الصليبي الأوروبي ويقول د. على شلبي في هـــذا الصـــدد " أن الفلاح أصبح يقدم نفسه متطوعا بإرادته؛ لأن الحرب بين مصر والإنجليـــز. من وجهة نظره حرب دينية مقدسة. (١٤٢)

وتشير وثائق الثورة العرابية إلى مدي استجابة الفلاحين لدعم الجـــيش بالنفس والمال فعلى سبيل المثال تقول تلك الوثائق " كان عبد ربه يوسف عبده من كفر عبد الخالق بمدرية المنيا يمر على النواحي وينادي هيا نتوجه لطرف عرابي الذي هو من نسل المبرور. بعثه الله لحماية الدين والوطن وســـيجعله الله واليا على القطر المصري، وعلى الفـــور قـــام الفلاحـــون بـــالتجهيزات العسكرية من مشتري أسلحة وخيول وخيام وما يلزم مـــن الـــذخائر صـــحبة المشايخ بزيادة ألفين وخمسمائة نفر ". (١٤٣)

كان الفلاحون يتمتعون بوعي كبير وتنظيم دقيق محوره المسجد وقادته الأزهريون من أبناء الريف والمدن الريفية. وكـــان الفلاحـــون يعرفـــون أن الأراضي الزراعية هي حق شرعي لمن يزرعها وفقا للفقه الإسلامي وأن تلك الأرض لهم بمقتضي الإسلام. وأن الأجانب والحاشية الخديوية قـــد ســـلبتها

منهم، وأن استردادها واجب شرعي فقامت الحركات الفلاحية في إطار الثورة بالاستيلاء على الأراضي، ففي الغربية هاجم الفلاحون من ناحية قلين بقيادة شيخهم الساعي منصور دائرة حيدر باشا، واستولوا على محصولاتها من الغلال وغيرها وقدموها لسلطات الثورة (١٤٤)، وفي القليوبية هاجم الفلاحون أبعادية محمد بك صدقي واستولوا على المحاصيل والمواشي وأعلنوا أنهم سوف يقدمونها للجهادية. (١٤٥)

وفي مديرية الجيزة قام الفلاحون في سبتمبر ١٨٨٢ بتقسيم أراضي الوسية المملوكة لحيدر باشا بناحية السمحة وقاموا بزراعتها ذرة شامي. (١٤٦)

وفي أسيوط هاجم الفلاحون في قرية دلجا جفلك الروضة وقاموا بتقسيم الأطيان وزرعوها خضارا. (١٤٧) .

وفي أسيوط أيضا قام الفلاحون بناحية أم القصور بالاستيلاء على أراضي الخواجات شنودة مرقص وولده مشرقي وقاموا بزراعتها لحسابهم (١٤٨) ليس هذا فحسب، بل كان الفلاحون بفضل الوعي والفتاوى الشرعية يعرفون أن الثورة موجهة إلى النفوذ الأجنبي فمارسوا العنف الثوري لتحقيق ذلك.

ففي قرية السلامية دقهلية قام الفلاحون بالاستيلاء على الأسلحة التي خبأها أحد التجار اليونانيين في عزبته. (١٤٩)

وفي بلبيس هاجم الفلاحون محلات لثلاثة أجانب واستولوا على ما بها من سلاح بلغ ١٧ بندقية، و ٣٧٣ خرطوشة وسيف. (١٥٠)

وفي طنطا أمسك الفلاحون بالنصارى واليهود والأروام وهجموا عليهم وكسروا دكاكينهم وازداد عدد القتلى لدرجة امتلاء ٦ عربات كارو بهم (١٥١)

وفي سمنود اعتدي الفلاحون على أجانب وقتلوا بعضا منهم (١٥٢)، وفي مديرية البحيرة هاجم الفلاحون في قرية منية سلامة ثلاث من المرابين اليهود وهددوهم بالقتل ما لم يستردوا منهم سندات الديون التي سبق أن حررها لهم الفلاحون (١٥٣).

وفي قسم منفلوط قام بعض الفلاحين بالاستيلاء على أطيان ومنازل كبار الملاك الأجانب وقاموا بتقسيمها فيما بينهم (١٥٤).

دور العربان والبدو في الثورة

وككل فئات المجتمع في مصر شارك البدو والعربان في الثورة يقول الدكتور على شلبي " شاركت قبائل البدو إلى جانب جيش الثورة في المعارك التي دارت بين المصرين والإنجليز ولم يشذ عن ذلك إلا عربان الهنادي بالشرقية الذين سقطوا في الخيانة بواسطة شيخهم سعود الطحاوي الذي أغراه سلطان باشا " ، ويضيف الدكتور على شلبي " إنه قد تطوع عرب الجوابيص بكوم حمادة بمديرية البحيرة، وعربان الكريمات بالواسطي، وعربان الحرابي بالفيوم، وعربان قبيلة النجمة بالجيزة، وعربان فوايد بحري، وعربان فوايد قبلي، وعربان الرماح " (١٥٥).

الثورة العرابية ثورة إسلامية شاملة

إسلامية الثورة العرابية هي من البديهيات، لكننا في زمن يحاول فيه البعض إنكار البديهيات أو الالتفاف حولها.

الثورة العرابية كانت ثورة إسلامية شاملة على النفوذ الأجنبي وعلى الاستبداد ومحاولة إسلامية لوضع قواعد نهضة حضارية إسلامية في مصر وبالذات نهضة علمية وصناعية كانت الثورة العرابية إسلامية على مستوى زعمائها وعلى مستوى وسائلها وعلى مستوى جماهيرها.

فعلى مستوى زعمائها الأفغاني، النديم، عرابي، على فهمي، عبد العال حلمي، محمود سامي البارودي، محمود فهمي، يعقوب سامي، طلبه عصمت، فالأفغاني والنديم كانا زعيمين إسلاميين في منهجهما ووسائلهما وجماهيرهما، وهذا أمر أعترف به الجميع حتى رفعت السعيد نفسه (١٥٦) .

بل الأكثر أن النديم متهم بالهوس الديني عند بلنت وصابونجي ورفعت السعيد وصلاح عيسى (١٥٧).

وعرابي وزملاؤه تعلموا في الكتاتيب ثم قضوا عددا من السنين في الأزهر ـــ ٤ سنوات في حالة عرابي ـــ واشتهر عنهم التمسك بالأخلاق ولنأخذ عرابي كمثال باعتباره أبرزهم ، خرج عرابي من بيئة إسلامية خالصة فعلى واجهة المنزل الريفي البسيط في قرية هريه زرنه بالشرقية والذي تربى فيه عرابي صغيرا تجد كتابات هي (الله ـــ محمد ـــ على ـــ رب يسر ولا تعسر) (١٥٨) ، وفي كتاب القرية حفظ عرابي القرآن والكتابة والحساب وشيء من الفقه ثم ذهب إلى الأزهر حيث قضي أربعة سنوات كاملة يتلقي العلوم الإسلامية ثم يعود إلى القرية فيناديه أهالي القرية " الشيخ أحمد" (١٥٩) .

ثم تبدأ رحلته في الجيش إلى أن يصبح من زعماء الثـورة. وعرابـي فـي سلوكه الشخصي أزهري متشدد كما يعترف بذلك رفعت السعيد وأنـيس منصـور إلى درجة الجمود من وجهة نظرهما طبعًا.(١٥٩)

فهو يرفض أن تتعلم أبنته اللغة الإنجليزية ففي أحدي رسائله: أن تعلمها لغة قوم لا يعود علينا وعليها منها إلا الضرر والفضيحة والعار فيقتضي تفهيمها بذلك في حضور أخواتها " (١٦١) وفي المنفي يدعو أهل سيلان من المسلمين إلى أنشاء مدرسة إسلامية ويمر على البيوت بيتا بيتا يجمع التبرعات " (١٦٢) بـل وعرابـي عندما يتفق مع زملائه على شيء يقسم الجميع على المصحف والسيف " (١٦٦).

وبلنت يقول " إن أفكار عرابي مبنية على أساس معرفة التاريخ ومن اتجـاه أصيل موروث من النزعات الإسلامية المتحررة " (١٦٧).

وعندما يسأل بلنت عرابي عن أهدافه يقول أنه نفس موقف المسلمين الـذين قالوا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يا أمير المؤمنين أنك تنهج طريـق العـدل والخير وذلك يثلج قلوبنا لكننا لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف " (١٦٨).

وفي ٢ يوليو سنة ١٨٨٢ يقول عرابي في رسالة لبلنت: لقـد أمرنـا نبينـا الكريم وقرآننا العزيز ألا نبدأ الحرب ولا نسعى إليها، ولكن تعاليم ديننـا تحضـنا على مقاومة أي اعتداء على وطننا وعلى أن نستشهد في سـبيله ، إن أي اعتـداء علينا سوف يوقع بكم أضرارا جسيمه؛ لأن رصاصة واحدة ضد مصر سوف تعني حربا دينية شاملة تمتد من دمشق حتى الهند، إن المسلمين جميعا يرون أن مصـر هي مفتاح مكة والمدينة وأن سيولا من الدماء سوف تنهمر في كل أسيا وأفريقيـا دفاعا عنها ولتتأكد انجلترا أننا مصممون على القتال.. على الشهادة في سـبيل الله فلقد حضنا نبينا الكريم على الاستشهاد " (١٦٩) .

ويقول صلاح عيسى: " والحقيقة أن عرابي كان متدينا إلى الدرجة التـي لا تخطئها العين وربما بالغ في ذلك بعض الشيء وكان يحيط نفسه برجال الدين؛ لأنه كان مسلما ورعا، وكانت الأوقات التي يجب عليه أن يقضيها في تنظـيم وسـائل الدفاع يصرفها في الدعاء والصلوات ويضيف صلاح عيسى بعد أن يضـع نقطـة والواقع أن تدينه كانت تشوبه بعض المعتقدات ليست من الدين في شيء منها مثلا اهتمامه الزائد بالأدعية " (١٧٠). وهنا إسلامية عرابي كبيرة وواضحة لا يسـتطيع صلاح عيسى أن يبلعها إذا فلابد أن يشوهها ويشوه معها الدين ويمـارس فذلكتـه المعهودة.

صلاح عيسى يريد أن يقول إن عرابي بسبب تدينه لم يأخذ بالوسائل وقضي أوقات التدبير في الدعاء والصلاة، وطبعا هذا كذب وافتراء وجهل _ فهو كـذب؛ لأن عرابي كان يأخذ بالوسائل ،فالذي يستطيع تفجير أو قيادة ثورة تظل منتصـرة على الخديوي والنفوذ الأجنبي وتضطر بريطانيا للتدخل العسكري لذبحها وإنفاق ٣ مليون جنيه إسترليني و٥٦ ألف جندي ومدافع وأساطيل ليس بالطبع رجل لا يأخذ بالأسباب، بل والمعارك التي خاضها العرابيون تؤكد ذلك وكانت هزيمتهم لأسباب كثيرة تتعلق بظروف المسلمين عموما والحضارة الإسلامية في هذا الوقت ولم يكن لعرابي ذنب فيها وتتعلق أيضًا بعدم تكافؤ القوى العسكرية بين العرابيين وإنجلتـرا المدعومة أوروبيا ولم يكن أيضًا لعرابي ذنب في هذا، وتتعلـق أخيـرا بالخيانـة وغيرها من الأسباب التي هي من باب الأخطاء، وليست من باب التواكـل مـثلا وعدم اتخاذ وسائل الدفاع كما يريد صلاح عيسى أن يقول هذا عن الكذب.

أما عن الجهل فهو عدم إدراك صـلاح عيسـى أن الـدعاء والصـلاة لا يتعارضان مع الأخذ بالأسباب، بل ذلك يؤكد الأخذ بالأسباب؛ لأن الروح المعنوية حتى بالحساب المادي الملحد أمر مطلوب ومرغوب وهل هناك أفضل من الروح

المعنوية عن طريق الصلاة من جنود وقيادات إسلامية ولأن الصلاة والدعاء هنا ضروري للمسلم؛ لأنه يعرف أن الكون بيد الله وأن النصر من عند الله خاصة وأن القوى المعادية متفوقة .

ويا عيسي: ألا تعرف أن المسلمين الأوائل انتصروا على إمبراطوريتين في زمن قياسي، وكانوا أيضًا يصلون ويدعون في كل الأحوال؟

أتجهل أم تتجاهل أن المسلم يعرف أن الصلاة والدعاء ليستا بديلا عن العمل والتدبير،وأنهما يؤكدانه؟!!

أتجهل أم تتجاهل أن الإسلام يدعو إلى الأخذ بالأسباب؟

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة أو كنت لا تدري فالمصيبة أعظم

فعرابي كان منحازا إلى الفقراء ويميل إلى العدل لإسلاميته،وهذا أمر طبيعي ومفهوم لكن صلاح عيسى يفسره بقوله: إن هذا كان نوعًا من الشعور الديني الجارف الذي يدعو إلى الرحمة والمودة والتصدق على الفقراء وأن هذا كان من الرومانتيكية وافتقاد الوعي!! (١٧١).

ما كل تلك السفسطة؟!!

هل انحياز الثورة الإسلامية العرابية إلى الفقراء مجرد رومانتيكية وافتقاد للوعي ومجرد دعوة إلى الرحمة والمودة والتصدق ؟!

إذا كنت ترى ذلك فأنت لا تعرف شيئا عن الإسلام ولا عن الثورة العرابية !! ألا تعرف – مثلا – أن الثورة العرابية حرضت الفلاحين على الاستيلاء على الأراضي، وقالت لهم هذه أرضكم، بل وصدرت الفتاوى الشرعية من العلماء وخطباء المساجد بذلك؟

ألم يقم الفلاحون الذين علمتهم الثورة الوعي أو تعلمت منهم الثورة الوعي، لا فرق ، ألم يقوموا بالاعتداء على الأجانب والمرابين وانتزاع ممتلكاتهم في إطار العنف الثوري ضد النفوذ الأجنبي وفي إطار الاستفادة بذلك في المجهود الحربي؟

ألم يكن من برنامج الثورة توزيع الأراضي المصادرة من الأجانب والخديوي والحاشية والخونة على الفلاحين؟

ألم يتحدث النديم والأفغاني وغيرهما عن الذين يـأكلون ويسـرقون عـرق الفلاح؟ هل هذا كله له علاقة بالرحمة والصدقة؟ أم تفتري على الحقائق وتلويهـا لغرض في فكرك وقلبك؟

ألم تفكر الثورة في إنشاء بنك أهلي؟ ألم تحاول منع تصدير الغلال حتى لا ترتفـع أسعارها على الفقراء؟ ناهيك عن دلالة ذلك فيما يتصل باستقلال السـوق وقطـع خيوط التبعية.

أما رفعت السعيد فقد كان أكثر احترامًا لنفسه ، فهو يعترف بأن" عرابي لـم يكن مناضلا مصريا فحسب، لكنه كان أملا لكل البلاد الإسـلاميةو كـان رمـزا لنضالها الصامد الشجاع " بل ويضيف " كانت الجماهير المسلمة في كـل مكـان.. سلاحا لعرابي في معركته " (١٧٢).

نعم كان عرابي إسلاميا أيضًا في جماهيره، فالجماهير التي كانت تدرك عن وعي أنها ثورة إسلامية ضد النفوذ الأجنبي والاستبداد ولأنها ثورة إسلامية فهـي منحازة إلى الفقراء، وعن وعي أيضًا كانت الجماهير تدعو لعرابي على المنـابر " الله ينصر عرابي بجيش من المؤمنين " وعن وعي أيضًا كانت الجماهير تـردد أن عرابي هو سليل بيت النبوة عن طريق سيدنا الحسين وأنه مؤيد من الله تعالى، وأن هناك نصوص دينية بذلك. وطبعا هذه الأشياء لا تروق للسادة العلمانيين وسيقولون أن هذا جهل وخرافات ووقوع في الغيبية وغيرها من الترهـات، ولـو أن هـذه

الجماهير لم تقاتل أو لم تتطوع للقتال أو لم تدفع آخر رغيف عندها لدعم الجـيش لكان هذا جائزا، هذه واحدة ، والثانية أن هؤلاء أنفسهم يشيدون بجان دارك مـثلا ويكتبون في خرافاتها المسرحيات والقصائد !! هل لمجرد أنها أوروبية أو فرنسية ولن نقول مسيحية ؟!.

إذن فجماهير عرابي كانت إسلامية في مصر وفي خارج مصر فمثلا أهالي سوريا يتظاهرون تأييدا لعرابي ويرسل أهل الشام السلاح والرجـال والتبرعـات لعرابي، والمهدي يفكر في أسر جوردون ليبادله بعرابي ، بل وفي الهنـد يثـور المسلمون على الإنجليز تأييدا لعرابي مما جعل الإنجليز يحددون إقامة الأفغاني بها.

وفي سيلان " ما أن نزل عرابي حتى هتفت الجماهير وهجمت عليه يقبلـون قدميه ويديه " [١٧٣] ويحدث ذلك في تركيا وتونس والمغرب وكل بلاد الإسلام. إذن فعرابي إسلامي في منهجه وفي سلوكه وفي جماهيره وكذلك كان الأفغاني والنـديم والبارودي وكل زعماء الثورة.

أما عن وسائل الثورة فقد اتخذت الثورة من المسجد مركزا للتنظيم والتعبئـة والدعاية وكان الأزهريون علماء وطلابا هم جهاز الدعاية الثوري وكانت صحافة الثورة وخطب الزعماء وكل أقوالهم تستند إلى الآيات القرآنية والأحاديث الشـريفة بل أن الثورة كانت تحصل دائما على الفتوى الشرعية في أي حركة تقوم بها ولعل الفتوى الشرعية بخلع الخديوي توفيق أشهر هذه الفتاوى. وفي الحقيقة فإن هنـاك إجماعا بين جميع الباحثين والدارسين والمؤرخين على أن الثـورة اعتمـدت فـي دعايتها على الإسلام وحده إلا أن بعض هؤلاء لأسباب لا نعرفها لعله الخجل مـن الإسلام والعياذ بالله قال إن الثورة اعتمدت على الخطاب الـديني وحـده" وقـال آخرون إنها اعتمدت على الدعاية الدينية !!

المهم أنه لا خلاف على تلك المسألة فحتى صلاح عيسى يقول " إن أحد أخطاء الثورة كان اعتمادها في التجنيد السياسي على وجه واحد هو الوجه الديني" (١٧٣).

ولأن الثورة كانت إسلامية فإنها أدركت أن الغزو البريطاني هو حرب صليبية جديدة، فأعلنت الثورة ذلك للجماهير، ولم تكذب عليها أو تخفي عنها الحقائق رغم إدراكها أنها مستهدفه للاتهام بالتعصب الديني. ولكنها كانت ثورة شجاعة وغير متعصبة فأعلنت الحقائق كما هي.

ولأن الثورة كانت إسلامية فقد تعرضت للحقد الصليبي الأوروبي، وتناست أوربا كل تناقضاتها، وتركت لبريطانيا التهام الكعكة كلها في مقابل ذبح الثورة الإسلامية، بل إن فرنسا التي كان لها من النفوذ في مصر أكثر مما لانجلترا فضلت أن تضحي بهذا النفوذ في سبيل ذبح الثورة الإسلامية.

وكانت الثورة العرابية أيضًا إسلامية في برامجها وأهدافها فكان على رأس أهدافها التخلص من النفوذ الأجنبي وبناء قاعدة لنهضة إسلامية حضارية شامله تكون محورا لعالم إسلامي أكثر قوة أو على الأقل تكون عصا غليظة في عجلة المشروع الاستعماري في شمال أفريقيا، وكان من أهدافها أيضًا القضاء على الاستبداد، وبناء نظام ثوري مستمد من الإسلام؛ ولأنها كانت إسلامية فلم تكتف بمجرد المطالبة ببرلمان بل ببرلمان يعكس كل الفئات ويمثلها ولا يقتصر على الوجهاء والأعيان.ولأن الثورة كانت إسلامية فقد اهتمت باستقلال السوق وفكرت في إنشاء بنك أهلي ووضع قواعد نهضة صناعية وعلمية ولأنها كانت ثورة إسلامية فلم تكن متعصبة ولا طائفية بل استطاعت أن تحشد خلفها " وخاصة

الأفغاني " كثيرا من غير المسلمين على قاعدة الولاء والانتماء للإسلام وحضـــارة ووطن.

ولأنها كانت ثورة إسلامية فقد انحازت إلى الفقراء والمستضعفين ودافعــت عنهم، ولأنها كانت ثورة إسلامية فقد أدركت أن الطريق الوحيد للتعبير هو طريق الثورة وليس الإصلاح من داخل النظام، وأن الفقراء هـــم جماهيرهـــا الحقيقيـــون والطبيعيون.

ولأنها كانت ثورة إسلامية فقد كانت شاملة واستطاعت أن تحشد معها كـــل فئات المجتمع.... الأزهر، الفلاحين، معظم المثقفين، معظم الموظفين، الحرفيين، أغلب البدو والعربان، قطاع كبير من الأعيان، بل بعض كبار الملاك وبعض أمراء البيت الخديوي نفسه.

ولم يكن غير الإسلام قادرا على حشد كل تلك القوي والفئات الاجتماعية في صعيد واحد، وإذا راجعنا قرار المجلس العرفي بخلع الخديوي والتمســك بعرابـــي باعتباره يمثل الفئات التي وقفت مع الثورة حتى فـــي أحلـــك اللحظـــات نجـــد أن الموقعين كانوا ٣ من أفراد البيت الخديوي. ٤٣ من علماء الدين، ٦ مـــن وكـــلاء الوزارات، ٤٨ من كبار الموظفين، ٥ من موظفي المعية " السراي الخديوية " و١٧ من كبار العسكريين، ٣٦ من الأعيان، ٦ من القضاة، ٤٣ من التجـــار، ٥٢ مـــن العمد، ٣ من المهنيين، ١١ من علماء الإسلام من غير ذوي الوظائف الرسمية.

على أن الملاحظة الجديرة بالتسجيل هنا أن الحماس للثورة والمساهمة فيهـــا ارتبط بالحماس للإسلام. فأكثر الفئات مشاركة وحماسًا للثورة كانوا من الفلاحـــين وهم أكثر الفئات حماسا للإسلام أمس واليوم وغـــدا إن شـــاء الله يلـــيهم الأزهـــر والمثقفين وهكذا. وأن أكثر الفئات عداء الثورة كانوا إما مرتبطين بالسراي وإمـــا مغتربين ثقافيا وإما خونة.

إذا فإسلامية الثورة العرابية لا شبهة فيها ومع ذلك نجد بعض ذوي النفــوذ المريضة يحاول أن يفسر الثورة على أساس قومي أو طبقي.

فهناك من يقول: إن الثورة كانت ثورة مصرين على جراكسة وهؤلاء طبعا يغفلون الكثير من الحقائق، ففي معسكر الثورة، بل في أكبر قياداتها نجد جراكســة مثل محمود سامي البارودي وكل من إبراهيم باشا والأمير كامل باشا والأمير أحمد باشا بل ومن الذين تبرعوا للمجهود الحربي للثورة كثير من الأمراء والجراكســة، وفي معسكر أعداء الثورة والخونة نجد رياض باشا " مصري من عائلة الــوزان " وسلطان باشا. على مبارك باشا، على خنفس، عبد الرحمن بك حسن، أحمــد بــك السيوفي. مسعود الطحاوي، محمد البقلي وغيرهم. وكل هؤلاء مصريون وقد لعبوا أدوارا في غاية الخطورة ضد الثورة في كل مراحلها فرياض باشا مثلا كان مــن أعدي أعداء الثورة بل وهو المصري كان وراء تجنيد عدد من الضباط الجراكســة لاغتيال قادة الثورة، وسلطان باشا دوره معروف في حشد كل القوى والفئات التي انحازت إلى الخديوي. بل وتجنيد الخونة من ضباط الجيش الذين تسببوا في هزيمة الثورة.

ليس هذا فحسب بل إن الأب الروحي للثورة وواضع بذورها هو جمال الدين الأفغاني، وواضح أنه لم يكن مصريا بل والأكثر من ذلك أن عرابي نفسه كان من أصل عراقي وراجع الرافعي ص ٨٢ ــ ٨٦ من كتاب الثورة العرابية والاحــتلال الإنجليزي. دار المعارف ١٩٨٣ الطبعة الرابعة حيث يقول: " إن عرابي من عائلة بدوية عراقية " بل وكان متزوجا من شركسية هي كريمة مرضعة الأمير إلهــامي باشا أخت حرم الخديوي توفيق من الرضاعة ".

ومن الظلم للثورة أن نحصرها في هذه الجزئية الضيقة فــلا زعماؤهــا ولا فكرها ولا برامجها ولا سلوكها ولا القوى الاجتماعية التي ساهمت فيها يمكــن أن

تؤدي إلى شيء إلا أن الثورة كانت إسلامية، وإذا كان هناك مطلب جزئي للثورة بإنصاف الضباط المصريين فهذا يؤكد إسلامية الثورة؛ لأن رفض الظلم فريضة إسلامية حتى ولو كان الظالمون مسلمين ، وعموما التفرقة في المعاملة بين الضباط كانت ترجع إلى مدي ارتباطهم بالخديوي وولائهم له ليس أكثر.

ويحاول البعض الآخر تفسير الثورة على أساس طبقي، وبادئ ذي بدء فالإسلام لا يرفض الثورة الطبقية بل هو يحرض عليها ويجعلها فريضة على المستضعفين ضد المستكبرين، أي إذا كان هناك ظلم طبقي فالإسلام يفرض ثورة الطبقات المظلومة ضد الطبقات أو الطبقة الظالمة، ولكن هذا شيء وتجاهل الحقائق شيء آخر فالملاحظ أن كل الفئات والطبقات شاركت في الثورة: الفلاحون، المثقفون، الأزهريون، العلماء، الموظفون، خلايا البعثات، بعض الأعيان، البدو، والعربان، التجار، المهنيين، بل وبعض كبار الملاك مثل البارودي وبعض أمراء البيت الخديوي أيضًا وكانت درجة المشاركة ترتبط بالولاء والحماس للإسلام وفي الحقيقة فإنه ليست الثورة العرابية وحدها هي الثورة الإسلامية فكل الثورات والانتفاضات التي ظهرت في المنطقة عموما وفي مصر خصوصا كانت إسلامية؛ لأن الإسلام هو الأيدلوجية الوحيدة القادر على تثوير الجماهير وحشدها وتحقيق الثورة. ولأن طبيعة الظروف والتحديات التي مرت بها المنطقة كانت منذ فترة طويلة جدًا ومازالت تحتم هذا الطرح، وأي قراءة موضوعية لتلك الظروف والتحديات تؤكد أنها تأتي في إطار الصراع بين الحضارة الإسلامية بما تمثله من توحيد وحق وعدل وحرية وإعلاء لكرامة الإنسان وبما تمثله الحضارة الأوروبية الإغريقية أساسًا من وثنية وظلم وقهر وإهدار كرامة الإنسان.

ولعله من الطريف أن نترك رفعت السعيد بنفسه يعترف بهذا في كتابه " الأساس الاجتماعي للثورة العرابية" _ القاهرة ١٩٦٦، مكتبة مدبولي ص ٩٣)

حيث يقول " والحقيقة أن الإسلام يمثل في مصر بالذات شيئًا بالغ الأثر في حياة الجماهير وأن نابليون لم يكن ساذجا عندما تمسح بالإسلام، فهو يعلم أن الإسلام هو الحقيقة الكبرى في حياة المصريين " وينقل رفعت السعيد عددا من الآراء التي تؤكد ما ذهب إليه مثل قول إدوارد ديسي " إن الإيمان بالله وبرسوله محمد يمثل مكانا هاما وغير عادي في حياة المصري، مكان هام جدًا بحيث أن تجاهله يعتبر تجاهلا لأحد العناصر الحاسمة في المسألة المصرية. وأنه ما أن يشعر الفلاح المصري أن الإسلام مهدد في أي مكان من الأرض حتى يستفز للدفاع عنه "

ثم يعود رفت السعيد ليقول (في ص ١٠٠) من نفس المرجع المذكور " والحقيقة أن المسلم لم يكن يشعر بالغربة في أي مكان يحل فيه من دار الإسلام، وقد اعتاد المسلمون على التنقل بحرية عبر المنطقة كلها بحيث أنك تجد شخصا في الإسكندرية وله أخ في بغداد أو فارس. ويضيف رفعت السعيد وعبر المنطقة كلها كانت التيارات تختلط وتمتزج بسرعة وقوة جنود الإسلام والولاة ورسل البريد والشعراء والرحالة يجيئون كل مكان مؤكدين وحدة الرابطة الإسلامية وأن ذلك كله ينعكس على مصر فيتخذ أكثر الصراع طابعا دينيا. ويتأكد ذلك الطابع بقيادة مشايخ الأزهر له.

هوامش

(١) على مبارك الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها. مطبعة بولاق ١٣٠٥
(٢) محمد رشيد رضا. تاريخ الأستاذ الإمام.
(٣) عباس العقاد. محمد عبده. سلسلة أعلام العرب.
(٤) نقلا عن الرافعي. عصر إسماعيل. ج٢ ص١٤٨. طبعة دار المعارف ١٩٨٢.
(٥) رفعت السعيد. الأساس الاجتماعي للثورة العرابية. ص٨١. مكتبة مدبولي سنة ١٩٦٦.
(٦) رفاعة الطهطاوي. مناهج الألباب المصرية.
(٧) رفعت السعيد. مرجع سابق. ص٨٨
(٨). (٩). (١٠). (١١) الرافعي. – مرجع سابق ص١٤: ١٤١.
(١٢) ديلفرد بلنت. التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر.
(١٣) د. الحديدي. عبد الله النديم. سلسلة أعلام العرب.
(١٤) التبكيت والتنكيت ١٥. ٨. ١٨٨١.
(٢٢) روزنشتين. تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده. ترجمة على شكري الطبعة الأولي ١٩٣٧.
(٢٣) د. عبد المنعم الدسوقي. مائة عام على الثورة العرابية. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.
(٢٤) الرافعي. الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي. ص١٣٤. طبعة دار المعارف.
(٢٥) الرافعي. المصدر السابق ص١٣٦.
(٢٦) الرافعي. المصدر السابق ص١٣٥.
(٢٧) الرافعي. المصدر السابق ص١٦٤.
(٢٨) الرافعي. المرجع سابق ص١٥٣.
(٢٩) الرافعي. المرجع سابق ص١٥٣.
(٣٠) رسالة المسيو سنكفكس إلى وزير خارجية فرنسا في ١٥ نوفمبر ١٩٨١. الكتاب الاصفر ١٨٨١. ١٨٨٢. وثيقة رقم (١).
(٣١) الرافعي. مرجع سابق ص١٨١.
(٣٢) الرافعي. مرجع سابق ص٢. ٥.
(٣٣) الوقائع المصرية ١٥ فبرأير ١٨٨٢.

(٣٤) الكتاب الاصفر سنة ١٨٨٢ وثيقة ٦٢. ٦٣.

(٣٥) الرافعي. مرجع سابق ص٢٤٩.

(٣٦) الرافعي. مرجع سابق ص٢٤٩.

(٣٧) بلنت. مرجع سابق. ص٢٦٦.

(٣٨) كرومر. الثورة العرابية ص٢. ٤.

(٣٩) صلاح عيسى. الثورة العرابية. دار المستقبل العربى. القاهرة ١٩٨٢ ص٩٤.

(٤٠) أمين عفيفي. تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث. القاهرة ١٩٥٣.

(٤١) د. حسن حنفي. الدين والثورة في الثورة العرابية. دار الموقف العربي ١٩٨١ ص٤٥.

(٤٢) د. على شلبى. دور القوى الاجتماعية في الثورة العرابية. مائة عام على الثورة العرابية. الأهـــرام. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية. ص٣٨.

(٤٣) د. على شلبى. نفس المرجع ص٣٨.

(٤٤). (٤٥). (٤٦). (٤٧). (٤٨). (٤٩). روزنشتين. مرجع سابق ص١. ٦.

(٥٠) احمد عرابي. مذكرات. دار الهلال ١٩٥٣.

(٥١) احمد عرابي. مرجع سابق.

(٥٢) كرومر. مرجع سابق.

(٥٣) الرافعي. مرجع سابق.

(٥٤) صلاح عيسى. مرجع سابق ص٤١١.

(٥٥) جون نينيه. عرابي باشا ص١٧٥.

(٥٦) جون نينيه. نفس المصدر.

(٥٧) من مذكرات الشيخ محمد عبده ص٢٥. تاريخ الاستاذ الامام لمحمد رشيد رضا.

(٥٨) مذكرات عرابي ص٣١٥.

(٥٩) محمود فهمي باشا. البحر الزاخر ج٢ ص٢٢. .

(٦٠) محمد صبيح. نقلا عن رفعت السيد. مرجع سابق.

(٦١) نفس المرجع.

(٦٢) نفس المرجع.

(٦٣) الرافعي. مرجع سابق ص٣٦٤.

(٦٤) الرافعي. مرجع سابق ص٣٦٥.

(٦٥) الرافعي. مرجع سابق ص٣٧٣.

(٦٦) الكتاب الأزرق ١٨٨٢ مجموعة ١٨ وثيقة رقم ١٣٢.
(٦٧) الكتاب الأصفر ١٨٨٢ وثيقة رقم ٦٤.
(٦٨) الرافعي. مرجع سابق ص٣٧٥.
(٦٩) جون نينيه. مرجع سابق. ص١. ٥.
(٧٠) بلنت. مرجع سابق ص٣. . . ٣٥٢.
(٧١) عرابي. مرجع سابق ص٣٩٧.
(٧٢) بينيه. مرجع سابق.
(٧٣) عرابي. مرجع سابق
(٧٤) بلنت. مرجع سابق. ص٣. ٢.
(٧٥) محمد عبده. نقلا عن محمود الخفيف. عرابي المفترى عليه ص٣٦٦.
(٧٦) نينيه. مرجع سابق ص٢١٦.
(٧٧) عرابي. مذكرات مرجع سابق.
(٧٨) عرابي. مذكرات مرجع سابق.
(٧٩) الرافعي. مرجع سابق ص٤٤٤.
(٨٠) مذكرات عرابي. مرجع سابق.
(٨١) مذكرات عرابي. مرجع سابق.
(٨٢) نقلا عن رفعت السعيد. مصدر سابق ص٢١١.
(٨٣) الرافعي. مرجع سابق ص٤. ١.
(٨٤) الرافعي. مرجع سابق ص٤. ٢.
(٨٥) مذكرات عرابي. مرجع سابق.
(٨٦) الرافعي. مرجع سابق ص٤. . .
(٨٧) محاكمة العرابيين. طبعة جريدة المحروسة بالإسكندرية ١٨٨٤.
(٨٨) نفس المرجع.
(٨٩) نفس المرجع.
(٩٠) على الحديدي. خطيب الوطنية عبد الله النديم. القاهرة. ١٩٦٢.
(٩١) عرابي. مذكرات. ص٢٢٩.
(٩٢) الرافعي. مرجع سابق. ص١١٩.
(٩٣) سليم نقاش. مصر للمصريين ج٤ ص٩. .

(٩٤) جون نينيه مرجع سابق.
(٩٥) محمد رشيد رضا. تاريخ الأستاذ الإمام ج١ ص٢٤٨.
(٩٦) الرافعي. مرجع سابق ص٣٣٧. ٣٣٨.
(٩٧) صلاح عيسى. مرجع سابق ص٧٧.
(٩٨) الرافعي. مرجع سابق ص٤٧. ٤٨. ٤٩.
(٩٩) الرافعي. ص٢٢٥ إلى ٢٤٤. عصر إسماعيل. ج٢.
(١٠٠) دافيد؛ لاندز. بنوك وباشاوات ص٨. .
(١٠٢) ١) دافيد؛ لاندز. بنوك وباشاوات.
(١٠٢) دافيد؛ لاندز. مرجع سابق.
(١٠٣) دافيد؛ لاندز. مرجع سابق ص٨. .
(١٠٤) محفوظات وزارة الداخلية. خطاب عمدة الإبراهيمية إلى مديرية الشرقية ديسمبر ١٨٨. .
(١٠٥) بلنت. مرجع سابق.
(١٠٦) د. على شلبى. مائة عام على الثورة. مركز دراسات الأهرام ص١٣٧. ١٣٨.
(١٠٧) عرابي. مذكرات. مرجع سابق.
(١٠٨) د. على شلبى. مرجع سابق ص١٣٨.
(١٠٩) الرافعي. مرجع سابق. ص٤٢٤ وما بعدها.
(١١٠) صلاح عيسى. مرجع سابق ص١٣٧.
(١١١) صلاح عيسى. مرجع سابق ص١٣٧.
(١١٢) رفعت السعيد. المؤلفات الكاملة. مرجع سابق. ص٢١ المجلد الأول.
(١١٣) رفعت السعيد. المؤلفات الكاملة. مرجع سابق. ص٥٣ المجلد الأول.
(١١٤) لويس عوض تاريخ الفكر المصري الحديث من عصر إسماعيل إلى ثورة ١٩١٩ ج ٢ ص ٢١٩.
(١١٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى. تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة –القاهرة –البحوث والدراسات العربية ١٩٧٣ ص ٣١.
(١١٦) نفس المصدر.
(١١٧) عبد المنعم إبراهيم الدسوقي _ عبد الله النديم ودوره في الحركة السياسية والاجتماعية _ القاهرة _ دار الكتاب الجامعي ١٩٨. ص ٤. ٨
(١١٨) نفس الرجع.
(١١٩) التنكيت والتبكيت _ العدد الأول ٦ يونيو ١٨٨١.

(١٢٠) د. لطيفة سالم _ مائة عام على الثورة العرابية -_. مرجع سابق
(١٢١) التنكيت والتبكيـــــت.
(١٢٢) التنكيت والتبكيت عدد ١٧ ٩ أكتوبر ١٨٨١.
(١٢٣) لطيفة سالم مرجع سابق ص ٢٧٩.
(١٢٤) التنكيت والتبكيت عدد ٦ في ١٧ يوليو ١٨٨١.
(١٢٥) الطائف. العددان ٣. ٧. أغسطس ١٨٨٢.
(١٢٦) رفعت السعيد _ مرجع سابق ص ١٣١.
(١٢٧) محافظ الثورة العرابية _ محفظة (٧) دوسية (٣٨).
(١٢٨) وثائق الثورة العرابية محفظة رقم ١٤ ملف ٢٩٧.
(١٢٩) على شلبي. مائة عام على الثورة العرابية مرجع سابق ص ١٤١.
(١٣٠) الرافعي _ مرجع سابق ص ٤٧١.
(١٣١) الرافعي. مرجع سابق ص ٤٦٨.
(١٣٢) محمد رشيد رضا _ تاريخ الاستاذ الامام _ ج ١ ص ١٤٧.
(١٣٣) تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ١٥٢.
(١٣٤) الرافعي مرجع سابق ص ٤٦٨.
(١٣٥) الرافعي مرجع سابق ص ٤٧. .
(١٣٦) مذكرات عرابي مرجع سابق.
(١٣٧) وثائق الثورة العرابية مرجع سابق.
(١٣٨) الرافعي مرجع سابق ص ٤٢٣ وما بعدها.
(١٣٩) على شلبي مائة عام على الثورة العرابية. ص ١٥٥.
(١٤٠) لويس عوض مرجع سابق ص ١٣٥: ١٧٢.
(١٤١) د. لطيفة سالم. القوى الاجتماعية في الثورة العرابية القاهرة. ١٩٨١ ص ٣٢٤.
(١٤٢) د. على شلبي مرجع سابق ص ١٧٥.
(١٤٣) وثائق الثورة العرابية محافظ ٧. ١٢. ١٣ ملفات ١٨. ١٨٧. ٣٥٧
(١٤٤). (١٤٥). (١٤٦). (١٤٧). (١٤٨) وثائق الثورة العرابية.
(١٤٩). (١٥٠). (١٥١). (١٥٢). (١٥٣). (١٥٤) د. على بركات. تطور الملكية الزراعية في مصـــر وأثره على الحركة السياسة ١٨١٣ _ ١٩١٤، القاهرة دار الثقافة الجديدة. ١٩٧٧.
(١٥٥) د. على شلبي _ مرجع سابق ص ١٧٦.

(١٥٦). (١٥٧) تم كتابة تلك المراجع والاقوال ومناقشتها في المتن والهوامش من قبل.

(١٥٨) أحمد بهجت _ مقال _ جريدة الأهرام ١٩٦٢/١١/١٩.

(١٥٩) رفعت السعيد _ مرجع سابق ص ١٢٧.

(١٦.) رفعت السعيد _ مرجع سابق ص ١٣٨ _ أنيس منصور. مقال آخر ساعة ١٩٥٩/٨/١٢.

(١٦١) نفس المصدرين السابقين.

(١٦٢) رفعت السعيد _ مرجع سابق ص ١٣٩.

(١٦٦) الرافعي مرجع سابق.

(١٦٧) بلنت _ مرجع سابق _ رسالة إلى جلاد ستون في ٢٠ ديسمبر عام ١٨٨١.

(١٦٨) بلنت مرجع سابق.

(١٦٩) بلنت _ مرجع سابق ص ٢٧٢.

(١٧.) صلاح عيسى _ مرجع سابق ص ٤٣٤.

(١٧١) رفعت السعيد _ مرجع سابق ص ١٨٧. ١٨٨.

(١٧٢) الأوبز رفرز السيلانية ١٨٨٣/١/١١.

(١٧٣) صلاح عيسى. مرجع سابق ص ٤٢٧.

فهرس الجزء الثاني

تابع فهرس الجزء الثاني